

فواز حداد

جنود الله

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

رواية



God's Soldiers
Novel
Fawaz Haddad

First Published in June 2010
Copyright © Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 466 - 2

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: حزيران (يونيو) ٢٠١٠

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicbook.com

تصميم الغلاف: هوسام كوسبيوت برس

الجزء الأول

ترتبط الذاكرة بالبصر والبصيرة. بالنسبة للبصر، أنا لا أرغب في أن أرى، أما البصيرة فما أصابها أشد من العمى.

في وقت من أصعب الأوقات، اضطررتني ظروف القاهرة للسفر إلى العراق، البلد الأكثر إبلاماً، كان محاصراً وجائعاً، وأصبح محتلاً ومهاناً.

بلد لا مكان فيه للعقل أو العدالة أو الرحمة، بل للخيانة والوشاية والخطف والذبح والقتل على الدين والطائفة والهوية والاسم.

والقد شاء حظي أن أعرد منه فالفقد الذاكرة.

ربما تعطلت ذاكرتي، أو أنني عملت على تعطيلها. لم يكن هذا سيحصل لولا يليني أنني اخترت ركناً قصباً لا تطاله الحقائق

ولا الأوهام. وإن كنت قد سميت من دون وعي وهلا فقد إلى
النسيان، فلكم الأذى إلى الأمان لا الاطمئنان.

أعرف أنني رهين ذاكرة سوداء، تتراءى لي أشبه بتهديد مسلط
ل فوق رأسي، تهدد أجهل سببه، وإن كنت أعرف منشأه. لا
يؤدي بي إلى الخوف من الموت، وإنما إلى الخشية من
الحياة.

سأواظب على هذا المنوال، إذ لا شيء يستحق أن أكون جزءاً
منه.

طريق آخر إلى الجنة

خادرت بغداد، أشبه بجثة هامدة، في سيارة بيك آب قديمة بضاء اللون، مجهز صندوقها الخلفي بأدوات ومواد إسعافية، وغطى بشانر بيّ فاتح اللون، كاحت ومهترئ. كانت حالتي التي بدت جيدة في الصباح، قد تدهورت خلال ساعات قليلة من فرط الحر والتعرق والذهاب.

انتقلت من المقعد الأمامي بجوار السائق إلى المؤخرة، اضطجعت على محفة بالية. قواي تنهتك ومناعتي تضعف، والمرئيات التي بهتت أخذت تتحلل في الفضاء الحار، وتكسي بلون واحد، لون اليأس.

السيارة تخضعض وأنا أصارع الموت بشجاعة، هنا ما قاله لي السائق، مع أنني استسلمت لهذا الذي لم أصارعه؛ مجرد رجل على قيد الحياة، بشكلي ما كنت ميتاً، حياتي في حكم العدم،

ومع هذا لرتحت لهذا الموت، وكنت أكثر لرتاحاً لذلك العدم.

لو أنني نعمت بذاكرة مسموحة، دونما شرح يتسلل منه الرعب ويتسل الجنون، لحظيت بنعمة النسيان عالصة. هذا الأكم ليس سوى وجع عابر، ما دمت أحمل ذاكرة أقفلت منافذها. وما دام الفضول لا يتملكني لإزاحة، فأنا في سلام، لن ترتد عليّ بأوعم الصور، أي لحظة منها كانت وعداً بتذكارات لا نرحم، وأي محاولة لتكهن بعض معالمها، أشد وطأة عليّ من الموت الذي نسيته مراراً، لأنجو منها.

المراكب السريعة المتوالية تعرقل المرور وتوقف السير بعداً طويلة. مستلقياً على ظهري، بصري الكليل تتخطفه ومضات سوداء لامعة كحد السكين تضرب رأسي بلا توقف. في العالي، من غلغل التشققات المنزقة والمتهتكة للشاشر القماشي، تسدل السماء المدلهمة توتراً شاملاً ينفر بالقنوط، وينتهي إلى سمي صوت السكون المدوي بالضجيج والمكتمز بالصهد اللاهب. بينما من الفتحة المكشوفة في مؤخرة السيارة، تتالي لافتات النعي دون انقطاع، كتابات بيضاء على قماش أسود، كتابات سوداء على قماش أبيض، أصوات على مد النظر، كل منهم يحمل لقب الشهيد... أنا في بلد الشهداء.

يدهني إحساس بموت يتسارع وموات يتهاطأ، يمور في داخلي، أراه منتشرأ في تلافيف الهواء والغبار، يحلق فوقني مثل هالة صلبة تتمدد، وتهيمن على الفراغ والأنفاس، ثمة ما بات وشيك الوقوع سينفض بين لحظة وأخرى، بانفجار يصم الأذان، ويهدد كل ما هو مرئي، لا يبقى سوى الدخان والحطام؛ حديد خردة، سخام،

بغايا مشتعلة، أجساد تنزف، نثرات لحم وفتات عظام، ودماء تصبغ الضياء الساطع بالأحمر القاني؛ هذا ما يترأى لي، لكنه لقوى من أمة حليفة.

لم نخرج من بغداد وضواحيها إلا بعد أن استوفقتنا العمد من الدوريات الأميركية والعراقية، وعرفلتنا الحواجز الاستتية. نسير شوارع باتت أرصفة مزحومة بالرجال والشبان والأولاد... ولا نساء. رطوبة خانقة، وروائح القمامة المتراكمة والمجاري المكشوفة نحقق الأجواء بالقرف والاشمزاز، زعيق السيارات يختلط بضجيج أصوات المسجلات، ونغنيات الباعة أصحاب عربات الطعام المكشوف، والأولاد الصبان على بضائع بسطاتهم؛ مشروبات غازية، سكاكر، حلويات، سجائر، جولرب، وسيدات عن كل شيء، من تلاوة القرآن والطقوس الفاضلية إلى الإعدامات والضجيرات... وأغانٍ راقصة.

تكفلت الأوراق المنتفخة بأختام عراقية وأميركية بتفليل مرورنا في الطرقات المفتوحة لل عربات المدرعة والديابات، بينما سيارات الشرطة المنتدفة تطلق صفارات الإنذار، ومسلحون في سيارات رباعية الدفع، أخفوا عيونهم وراء نظارات سوداء، يرافقون مواكب المسؤولين الحكوميين، برزوا من النوافذ يطلقون الرصاص في الهواء، يجبرون السيارات والمارة على إخلاء الطريق لهم.

أمضت سفري الطويل بين النوم الكثير والتفليل من الصحور. لولا حقن المسكنات والمهدئات ومضادات الالتهاب للاكت حضي في زحام إحدى تلك العقد المرورية الخائفة. أخفق على وقع زمن ينساح مثقلاً بجعر محرك بمنّ مجهداً تحت لهيب صيف حار

ولزج. وأصحو على طين الذهب ووهج نور الظهيرة.

أنهض بجذعي، وأتحامل على نفسي، أحمل كيس المسرووم الموصول بفراعي، أنزل من السيارة وأحتل مكاني إلى جوار السائق. فطالعني ذلك المدى الثابت من الرمال يشقه طريق بلا نهاية، على أطرافه واحات من أشجار النخيل تخلفها ألوات مدمرة تلعب تحت الشمس، ومعالم رجراجة قد تكون خيالات أو سراباً.

يلوح بناء ضخيم، إلى يسار الطريق وربما إلى يمينه، يبدو كالسراب ذاته، تحيط به حراسة مشددة، كأنه مجمع لعدة ثكنات عسكرية، حشد من الجنود، أسلاك شائكة، أسوار عالية، وأبراج محصنة، تظهر منها رؤوس الجنود من بين أكياس الرمل والشباك المموهة. طائرات الهيلوكبتر تحلق عالياً، ثم تنخفض وتمسح محيط المنطقة. في الأسفل، جداريات مشوهة، وأكوام من النفايات. عوارض خرسانية متوالية، على عدة طبقات، ورنل طويل من السيارات تتقدم الهويى فوق طريق ترابية.

«سجن أبو غريب، يقضي الزوار النهار كله وهم يحاولون رؤية أقرانهم المعتقلين، في حال أفلحوا ووجدوهم فيه». قال السائق.

أردت الوصول بسرعة، لكن إلى أين؟! مجرد توق إلى مكان بعيد جداً، وكأن أي مكان آخر، سيفير هذه المشاهد الكالحة، ويخفف من آلامي تلك التي لم أرغب في التخلص منها، بل أن أوصل النسيان، ربما أقرر: متى سأذكر!!

توقفت سيارتنا إلى جانب الطريق، على بعد نحو نصف كيلومتر من قافلة عسكرية تحمل أعتدة ونعزيزات، يبرز من كل محرمة

جيب هاملي مدفع رشاش خلفه جندي يعتمر خوذة. الأعلام الأميركية الصغيرة ترفرف على هوائيات السيارات. الدوريات الراجلة تترصده من بعد. نقاط المرافقة على التلال والجسور تطل علينا. الحراسة مشددة خشية أن تخترقهم سيارة مفخخة. لم يتجرأ السائق على تجاوز القافلة. الإشارة تقول: (لا تقترب أكثر من ٢٠٠ متر.. قوة ممتدة) وفي الأسفل رست جمجمة وعظام متقاطعة باللون الأحمر.

طال توقنا.

ربما كانوا يظنون مفعول عبوة ناسفة.

بعد حين، عاد الرتل يزحف على مهل، يطء شديد.

وجهتنا الحدود السورية، هناك سيجري تسليمي، وفي دمشق سيكملون علاجي. اضطر السائق لأن يقول لي هنا عدة مرات! يبدو أنني سألته مراراً السؤال نفسه. كان مرضي أيضاً، قبل بمخاطرة نقلني مقابل رزمة دولارات دفعها الأميركيون لقاء إصالي سالماء، أو ميتاً. كان يحيل ثلاث عائلات، انتزع مجهولون أسماء وابن عمه ليلاً من بيوتهم منذ شهرين، المجهولون كانوا من فرق الموت أو الشرطة أو المخابرة، أو الحرس الوطني. ما الفرق؟ منذ ذلك الوقت لم يعرف عنهم شيئاً.

هل هناك منطقة تدعى بالكيلو ١٦٠، لا تزيد على نقطة تتلامح في الحجر، تحتوي على محطة وقود ومطعم ودكاكين وبيع شاي أسود... هل رأيتها، أم تخيلتها؟ اعترضنا مسلحون ملتصقون، أشاروا للسيارة بالتوقف، كانوا من عصابات السليبة، توقع السائق

ظهورهم. قال لهم إنه مكلف بمهمة إحصالي إلى الحدود السورية. أنزلوه من السيارة وفتشوه، لم يكن لديه سوى ساعتة، وبضع مئات من الدنانير التي لا قيمة لها. ثم فتشوا السيارة، لم يجدوا شيئاً ذا قيمة. أطل عليّ واحد منهم، رجل ملتئم لم ين من وجهه سوى عينيه، أحبطه عزالي وملامحي المستفهمة، وقبضني المتسخ الملطخ بالشحم، وكس السروم المعلق بالعارضة الرفيعة للسقف. كنت ممدداً فوق الملايات القنطرة الصفراء، تفوح مني رائحة العرق والبول والقيء. سألتني:

«مجاهد؟».

«مجاهد والحمد لله» تدخل السائق.

«حياك الله» عطف الملتئم.

وحتّ السائق على الإسراع، عشي ألا أصل حياً. تمنيت أن يطلق رصاصاً في رأسي كي أصل بسرعة أكبر. حتى هذه الأمنية، كانت أضغاث حلم.

تركنا نسر من دون مقابل، لقد فعل شيئاً طيباً، للمجاهد والمجاهدين، زكاة عما يملكونه.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

عند نقطة «الوليد» الحدودية العراقية، نزل السائق من الشاحنة، تخطى الدور والرتل الطويل من السيارات، وسلم الضابط المسؤول رسالة من القيادة الأميركية إلى سلطة مركز الحدود تطلب منهم تسهيل مغادرتي للعراق. الضابط لم يستغرب، كانت قد وصلتته برقية البارحة بهذا الخصوص. رجع السائق ومعه جندي أمريكي يرافقه مترجم، فوجئا بالشاحنة العتيقة وهيئة العززية، توقفا رجلاً يلبس بدلة أنيقة يركب سيارة سوداء من الموديلات الحديثة. ناولته أوراقتي الشهوتية، وكنت قد أعفيتها في لفائف الشاش المربوطة حول عصري، ولم يحاول أن يفهم أكثر.

وهكذا نفذ الأمر كان الاتفاقي من طرفهم، ووفوا بما وعدوني به.

في مركز «التف» السوري، لم أعرف إلى الذين استقبلوني، كانوا مرتبكين وهم يهرولون من حولي. نقلتوني إلى سيارة الهلال

الأحمر السوري. لمحت المنظر الأعير، طوابير الشاحنات المحملة بالبضائع تمتد على مسافة كيلومترات داخل الأراضي السورية تنتظر الإذن بالعبور، وإلى جوارها مئات السيارات الصغيرة تتقدم وتبدأ نحو بوابة الخروج، تحمل مئات العائلات عائداً إلى العراق... من يفكر بالعودة!؟

ولا تستغرب، يفلتون المستحيل كي يهربوا المحفود إلى بلدهم. قال لي ضابط الجمارك السوري. قبل أن أستلم لنوم طويل ومشوش.

وصلت إلى دمشق بعد منتصف الليل، حياً ومنهكاً. عانيت طوال الطريق من كوابيس، كانت أكثر إلاماً من جراح علي وشك أن يتفح من لسعات الحر والحشرات. فور إدعالي إلى المستشفى، أرسلت إلى غرفة الإسعاف، جرى التأكد من سلامتي ووضعني الصحي، ولم يكن جيداً. أعيد تضيدي، ووُضعت تحت المراقبة في غرفة العناية المشددة. قال لي الطبيب المتأوب:

«حالتك ليست سيئة، سوف تتحسن سريعاً».

ثم سألتني عن اسمي وعلمي. قلت له، لا أعرف. قال، لا تهتم، بعد أيام ستذكر كل شيء».

... كأنه بكلماته اللامبالية ألقى بي إلى المجهول.

الأشخاص الذين توافقوا لرؤيتي، عانقوني وعناوني على سلامتي. يلو أنني أعرفهم، وجوههم مألوقة، أهدوا شيفاً من الفلق، وتمنوا لي الشفاء العاجل. الشخص الذي عرفته كان صديقي، نفرت

الدعوى من عنده، عانقتي فلفظت باسمه حسان. ظنت الممرضة أنه أنني وصرخت متأثرة، الدم يحرق. كان الشخص الوحيد الذي احتفظت به من ماضى أردته هباء.

وما الذي كنت أفعله في العراق؟ سأك.

«غادرت منذ شهرين إلى بيروت، على أن تسافر بعدها إلى دبي، لتسلم عملك في قناة تلفزيونية حديثة التأسيس. هذه القصة غير صحيحة، كانت أكنوية تركتها خلفك قبل رحيلك، وجهتك كانت العراق. بعد نحو ما يزيد على أسبوعين من إقامتك في بغداد، اعتطقت...».

«لا أرتب بالمزيد». قاطعته.

«إن نخوض كثيراً في التفاصيل».

لخص حسان قصة محنتي بسرعة، وكانت أنني اعتطقت من مقهى في شارع (الرشيد). اقتادني مسلحون إلى جهة مجهولة. اعتقت أعباري بعدها، لم يطالب أحد بقدي، أو يظهر وسط، ولم يتمكن أحد من معرفة مكاني، إلى أن دهمت القوات الأميركية موقفاً في محافظة الرمادي، تعرفوا إلي من خلال صورة لي، ولولا حصولهم على معلومات باحتجازي في هذا الموقع، لأجهزوا علي. كنت بين الحياة والموت، حياتي لم نهمهم، لكن عودتهم بجثة مهشمة ملامحها تطابق الصورة التي يحملونها معهم، كانت عملاً جيداً، وإن لم يكن متقناً.

تصورت المشهد، اقتطعته من فيلم سينمائي أميركي، ولم يكن

عسيراً، الجزء الأكبر منه كان معركة حربية: طائرات تنقض، نصف شديد، أثرية، دخان وغيش، الرؤية غير واضحة، رصاص كثيف، انفجارات، شتائم وضجيج، فوهة بندقية تصوب إلى جبهتي، وعسكري أميركي متحفز إصبه على الزناد. يحدده عني ضابط، صوت مروحية، يحملوني على نقالة ويسارعون بي إلى الطائرة، ينقلوني إلى مستشفى ميداني.

أما الذي لم أنه، فهو الطبيب الأميركي الذي أشرف على علاجي، وكانت مفادتي للمستشفى متوقفة على موافقته.

قلت له، لا أريد الموت هنا.

فقال، لن نموت، ستعيش.

قلت له، لا أتذكر شيئاً.

قال، أنت جريح وفي حالة صدمة.

قلت له، ولا أعرف من أنا.

قال، نحن نعرف من أنت، ولهذا ما زلت حياً.

في اليوم التالي، عاد ورفقته ضابط أميركي برتبة ليفتنانت يدعى جوناثان، وشاب عراقي يدعى فاضل. قيل إنني كنت على صلة وثيقة بالأميركي، أما العراقي فقد رافقتني طوال مدة وجودي في بغداد. خالجنني إحساس أنه ينبغي أن يكونا ثلاثة، كان مجرد إحساس. جابا بودعائتي قبل أن أخلد المستشفى على محفة مثلما جئت على محفة.

كان الوداع ثقيلاً على نفسي، أحسبت أنني سأترك رجلين كانا عزيزين عليّ، فحسنت مدى قربهما مني، وأن هناك الكثير مما ينبغي قوله في هذه المناسبة، لكنني امتنعت، خشيت ألا أحصل ما قد أسعده منهما.

فاضل العراقي والليفتنانت جوناثان، كانا مسرورين، لم يفوتا فرصة وداعي، شيئاً على يدي. وبالكد عثرت لهما عن رغبتني في الكلام، وكان سؤالاً عن شيء، لا أعرف ما هوا

قال جوناثان، أنصحك، لا تحاول أن تعرف شيئاً.

ومع هذا بلغت سخاوتي أقصاه، دار في خلدي سؤال واحد، هل أنا عميل أمريكي؟ لكنني لم أتجرأ على طرحه.

قلت، يبدو أنني لا شيء!!

قال، في هذه الظروف، اللاشيء أفضل من أي شيء. إنها نعمة لو تفري، لنتي أيام وأستيقظ مثلك، وأجد نفسي في طرقتي إلى فلوريندا. عندها سأختار نسيان كل ما صادفتني هنا، كل ما رأيته وسمعته.

قال فاضل، ستذكرنا في ظروف أفضل.

قلت، سأذكركم جميعاً.

انسمت بصعوبة، ونويت ألا أتذكر أحداً. غير أن فاضل لفت نظري، بلمحة تبدت عليّ تقاطيع وجهه وشت بسخاوقه عليّ، بنا ما يجمعني معه، لا يقل عما يربطني بجوناثان، بل أكثر. حرك

وجودهما إلى جاني مشاعر لم أستطع تحديدها كنهها، كنت
متأكداً أنه لا يجوز أن أعطى في تقدير ما بذلوه من أجلي.

قبل عروحي من المستشفى سأني الطبيب:

«هل تؤمن بالله؟».

لويت رأسي، وقلت متحيراً:

«لا أدري».

«أنتم المسلمين مؤمنون بالفطرة والوراثة».

«وماذا يعني؟».

«اشكر الله، لقد أتقنك».

تعود صداقتي مع حسان إلى أيام الدراسة الثانوية في مدرسة جودة الهاشمي، منذ أكثر من ثلاثين سنة، استمرت منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

هذا حسب قوله، وزوّدي بخلاصة وافية عنها، لقد تشاركنا طموحات واحدة، السياسة والثقافة، الهوايات واللهو... ولديه سجلّ كامل عن مقاماتنا العاطفية، ولم تكن مظفرة تماماً. وأطلق ضحكة، كنا من الطراز المثالي مع الفتيات، من الجيل الذي آمن بالحب كعويذة خارقة. وعلى الرغم من ابتعادنا الواحد عن الآخر فترات طويلة نسبياً لظروف العمل والسفر، حافظت صداقتنا على ثباتها.

كان وجوده إلى جانبي في هذا الوقت الحرج الذي أضحت فيه نفسي، دليلاً على هذه الصداقة. ولكي أكون دقيقاً، ليست الصداقة

وحنها، كان على علاقة بأجهزة الأمن السورية، ويبدو أن علاقته بهم سهلت لي الكثير من الأمور التي لم أسأله عنها.

توالى إجراءات تعريفي بالزئيرين، وكانت البداية التي لا بد منها، تعريفي إلى نهى زوجتي السابقة وندي ابنتي. نهى في أواخر أربعيناتها، امرأة وزينة، لا بد أنها كانت جميلة، المساحيل ساعدتها على الاحتفاظ بقدر غير ضئيل منه، كانت محببة، وأنيقة باعتدال، أو أنها اعتنت بأنقتها لهذه الزيارة، التي مرت مترعة بالتساؤلات من طرفها، ومن دون إجابات من طرفي، ابنتي ندى لم تبلغ العشرين من عمرها، في ستها الأولى الجامعية.

أحدق إلى الفراغ بعينين جامدتين، أصغى إلى صخب بضج في رأسي. وحولي كان الصمت المنقطع والمتوتر ثقيلًا على الجميع. ألتفت ندى متسائلة عن وضعي الصحي، ما بعد السكون قليلاً. أجبها حسان أن حالتي إلى تحسن. ثم خرج معهما من الغرفة، طال الحديث في الخارج، شرح لهما حقيقة وضعي، وطمأنهما إلى أنني سأخرج قريباً من المستشفى، وأكد لهما أنني لم أكن أنظأهم بعدم معرفتهما، كي لا تزد زوجتي نكراني لها إلى علاقتنا السفة في السنوات الأخيرة، ما لؤدى بنا قبل ستين إلى الطلاق.

وكان الأمر الوحيد الذي أظهرتم فيه رجاحة عقل وسداد رأيي.

كان الطلاق النهاية المحتومة لحياة زوجية كانت في انهبأر متواصل، من دون أي أمل بإصلاحها. اتفقنا على الانفصال بعد عمر قضينا جلّه لم تتبادل خلاله سوى المزيد من عدم التفاهم والتواها السفة.

لم أسأله كيف أصبحت هذه المرأة زوجة سابقة لي، وما الذي
 يدفعها إلى الاطمئنان إلى زوجها السابق؟ هناك شيء يجمع بيننا
 أكثر من هذه الأبنية التي عانقنا وقبلت يدي وبللت وجهي
 بالدموع!!

وكان من الأفضل ألا تأتي.

وبعض الأشخاص أنت لست مغرباً لإياهم.

لم أرفضها، كنت أرفض الماضي من دون تمييز.

كان الاستعراض الذي أشرف عليه حسان على الشكل التالي: قبل
 أن يدخل الشخص، يُعرضني إليه بشكل موجز. يقدمه إلي. تبادل
 أحاديث أشارك فيها بنصيب ضئيل من الكلمات لا تشف عن
 شيء، ونظرات باردة وساهمة. فيما بعد يفسر لي حسان ما قيل
 بالاستناد إلى علاقات وصلات ووقائع جرت في زمن مضى.

الاستعراض لم يكن ناجحاً، وإن اكتشفت من خلاله مدى تشعب
 علاقاتي وتنوعها، لم يقتصر على الأقارب والجيران، أو يخل من
 الرجال والنساء المتعلمين، كان نصيب المثقفين فيه غير قليل.
 وعندما قلت لحسان إنه لم يزرنني رجل ذو شأن، عقب ضاحكاً،
 لأنك رجل غير ذي شأن. لكن حالي استدعت زيارة رجل مهم،
 لم يطل جلوسه، اطمأن إلي بوضع كلمات، ثم خرج، لحق به
 حسان، عندما عاد سألته عنه، فقال لي، لن تتذكره، لقد ساعد
 على تسهيل سفرك إلى بغداد.

سمعت عن نفسي بعض الأمور منهم، لكن كأنهم يتكلمون عن

شخص آخر لا يعني، آثار هنا في ذهني بعض الاستنكار. لكن كان ضرورياً إنجاز العرض قبل مغادرة المستشفى، هناك عرض آخر سيبدأ.

قبل أن يبدأ، ما زال هناك فصل أخير، لاحظت من نظرات حسان المختلفة أنه يعتقد عليه أملاً كبيراً، ما جعلني أتخفّر. أوجزه بكلمات قليلة:

«ستدخل سناء بعد قليل».

وأضاف إليه ما ينبغي أن يحدث:

«استقبلها بلطف، لا تكثف بمصانحتها، تهبط معها بالحدث، ولا بأس لو عانقتها وقتها. أنت على علاقة قوية بها».

«علاقة حب».

«كدت أن أقدم على الزواج بها، لولا ما طرأ و...».

كانت قد دخلت.



كانت السيدة التي ظهرت لتوها من الباب تشبه الممرضة الشابة الشفراء المولجة بالعباية بي في الفترة الصباحية، ملامحها رفيعة مثلها، غير أن العينين فاتحتان وواسعتان، والقم أصغر وأحلى، وإن بدت متجهمة قليلاً، بالمقارنة مع الممرضة المرحمة، ربما بسبب مزاحها معي، ونظراتها الخيثة التي تغلي بأكثر من تعبير، لا شيء يثير استنكارها ولا دهشتها حتى حالات الولادة العجيبة والموت المفاجئ. حالتي بدت لها طبيعية وواعدة، أن يرجع الإنسان كما

ولدت أمه، لا سيما بهذا العمر، كي يعيش ثانية. حتى أنها
شجتي قاتلة لي، فرصة اغتصابها.

لا، لم تكن متجهمة، كانت أقرب إلى أنها خائفة، وشي، ما في
نظراتها يوحي بالانكسار والضعف، لم تثنني لهفتها، وإنما التعبير
الذي ارتسم على وجهها، كان عابثاً بالحنان ومفرطاً بالهواجس
وأسيراً لأشواق بدت مبهمة لي. فتوجست منها، كأنها كانت
تحتلكني، ولم تأت إلا لتستعيدني. وإذا أصبحت على مقربة مني،
نظرت إلي بحب غامر، فنجلت، كنت على وشك إنكارها.
تعالكت نفسي، لم أظهر لها أي أحساس ولو كان بسيطاً
بالمودة. كان جسدي الذي برز بقوة ونهني، لو استلمت إلى ما
بدا أنه علاقة قوية، سوف تفردني إلى كارثة. فصعدت النظر إليها
بفتور ونفور، ما أوقف اندفاعتها نحوي، كانت على وشك أن
تعاقتني نظراتي المستهجنة صدمتها.

في اللحظة التي شُبل إليها أنها وجدتي، أشعرتها أنها فقدتني. لم
أرغب في إحباطها بهذه السرعة، كانت الفرحة التي برقت
للحظات على وجهها قبل أن تتلاشى، جعلتني أحس بتفترتها على
الاستيلاء عليّ. تبيست أطرافني، تلك الألفه الملعونة قد تعمل،
وتتزعجني عنوة من عالمي المباحث. تملككني الرعب، الشواش في
رأسي أقصاها عني، مجرد امرأة متطفلة لا تدرك أي نزيه سوف
تتركه وراءها. كيف أبعدنا عني من دون أن أتحول إلى شخص
كرهه في عينها. لم أتردد. كان لديّ عثري، لم أكن سوى رجل
ممدد على السرير مربوط بالشاش، جراحه غائرة، وفروحه
محضفة... وفائد الذاكرة.

لم أصافحها، لو أشجعها على الاقتراب مني. رغبت في أن تغادر
الفرقة بأسرع وقت، من دون أن تبادل كلمة واحدة.

لم تنزحزح عن مكانها. قلت لها بهرود، لئلا تطيل صفتها
وولفتها:

«لا أضمن أنني سأحبك ثانية».

فرقت بحدة تعلياً على وقاحي:

«ولا أنا».

توقعت أن تنسحب. لكنها ترددت، ما اعتزل في داخلها ظهر
على وجهها، شفتاها ترتعشان من القهر، تكاد أن تنفجر غاضبة
في وجهي، لكنها انفجرت بالبكاء.

أشرت له بأن يخرجها، لم أكن مستعداً لأي موقف يستدر
العواطف، لا أريد أن تواسيني ولا أنا مضطر إلى مواساتها، كان
صوتها وقد خالطته التهديدات، يدعو للرتاء. لم أمؤن عليها، حتى
الشفقة كنت مصراً على عدم إظهارها.

قبل أن أبارح المستشفى، نصحتني الطبيب بأن أساعد نفسي،
وأكف عن المقاومة وضرب الحصار من حولي. كنت متمسكاً
بقراري، لن أترزح عنه، لا أريد أن أعرف شيئاً عن حياتي، مهما
دأبوا على تسريب المعلومات إليّ عنى.

إلى متى استمر عتادي؟

ليس طويلاً، بعدما ظننت أنني نجحت.

بارحت المستشفى ظهراً، أوصلني حسان إلى البيت. قبل أن يتركني قال لي، ستأتي سناء بعد قليل. قلت له، لا أظن أن وجودها ضروري. فحلوني، ستردد عليك، إليك أن تؤذيها بكلمة، إنك بحاجة إلى شخص يعني بك، إنها الأخرى بأمرك.

طلعت بين غرف المنزل، فحقت النوافذ للنور والهواء. على الأثاث حطت طبقة خفيفة من الغبار. باب الخزانة مولوب في غرفة النوم، الأندراج مفتوحة، المرآة تعكس كرافقة كحلية اللون مقلعة معلقة على المشجب، فوق الفراش قميص وبنطال مرميان باهسال إلى جانب قائمة السرير البحتي، حقيبة سفر صغيرة فيها بعض الأغراض، كانت عائدة لرجل تركها في آخر لحظة وغادر على عجل.

في المطبخ، صحون وبقايا طعام جاف خالطه العفن في المجلى.

في غرفة القמוד على الطاولة الصغيرة أجهزة التحكم عن بعد، وبعيداً إلى الحائط تلفزيون وجهاز استقبال الفيديو. على الطاولة الصغيرة يضع جرائد محلية وعربية يعود تاريخها إلى أكثر من شهر. تحف صغيرة متوضعة في عزائم الحائط الزجاجية. صورة على الجدار لمنظر طبيعي زيتي ذي إطار فضي اللون. رفوف المكتبة مكتظة بعشرات الكتب، إلى جوارها منسومات وسجادات صغيرة وأوان خزفية...

توفعت أن أجد نفسي، أو أقرأ لي. أحبطني أنني عثرت على شخص آخر، لم أكن أنا، آخر لديه تذكارات وأشياء يرغب في الاحتفاظ بها. أنا لا أريد الاحتفاظ بشيء، بل التخلي عن كل شيء. أجعل بصري في أرجاء الغرفة، المكتب التي قرأها أو تصفحها، لم تكن بالنسبة إليّ إلا أوراقاً وحقاوين. مواجهتي كانت الصوفا والأرائك فوقها، تشير إلى ركن خال.

كان الغالب عن أشياء أكثر حضوراً مني.

كان الآخر... اللامرئي سارحاً في أماكنه، أنفاسه لا أنفاسي، تضطرم في صدري وتضج في رأسي، لم أواجهه فحسب، بل اصطدمت به أيضاً!!

جاء من الفراغ، واتخذ مكانه فوق الصوفا.

كنت إلى جواره أو أمامه، وربما خلفه، وحيثاً بلا ماضٍ ولا ذكريات، أنف على الضد منه، بلا حملات عاطفية ولا حنين. لا يترك لي خياراً سوى الاستمرار هكذا، غريباً عن المكان، شخصاً زائفاً، لا أمل لي في البقاء على الهامش، إلا بتعزيز الفراغ

الذي في رأسي، بالمزيد من الفراغ من حولي.

دخلت سناء تحمل بعض الأغراض، الآخر أدار لها ظهره، لم تكلمه، أعدت الغداء وكانت قد جاءت به جاهزاً، تناولوا الطعام، وتبادلا بضع كلمات، من دون أن يتبادلا النظرات على الإطلاق. ضبطتها أكثر من مرة وهي تتأمله. كان متوجساً منها، لا يدري كيف يتصرف معها، أشك في أنهما كانا على علاقة معاً.

بمسائل، بينما أعدت تنفض القبار عن الكنبات والأثاث. ما كنه هذه العلاقة؟ حب، جنس، صداقة..؟ يخشاها مهما كانت، بمعنى ألا تكون حدثت، يرغب في الاعتقاد أن ما يجري الآن ليس أكثر من خطأ يحصل أحياناً، هذا أحدها.

تسلد على الصوفاء، وغداً زماً يزيد على ساعة، لم يحلم بشيء، إلا إذا كان هناك ما يدور خلف البياض المصمت البارد. أحلامه انصحت، كان الفراغ ناشطاً.

عند مغيب الشمس شطفت الشرفة، وضعت كرسيين وطاولة صغيرة. كانت الشرفة مكانها المفضل مع الآخر، وكان علي أن أحل كرسيه.

مع نسائم أول مساء، رشفا القهوة بصمت، فيما المنظر أمامهما بدأ يأخذ أبعاده؛ دمشق تدرج في الليل، الأضواء الملونة تسري في شوارعها وطرفاتها المتشابكة، ونسخ على قاسيون مهرجاناتاً من الأكراد، بينما أطرافها البعيدة تمدت في العتمة وادعة تحت جناح الظلام. سررت لأنني أعيش في كنف مدينة بدت جميلة من العالي، كانت ملجئي الأول والأخير. دهمتني رغبة جارفة في

لإحاطة أي عقبة بيتي وبين دمشق. ليهني أحمده ارتباطي بها ولو في السر. ولم يكن بالأمر السهل... وكل ما في يقاوم البشر والمدن.

فوجدتُ بما كنت أفكر به، هل كنت أنا لم الآخر؟ ظننت أنني اقتحمت عربين الآخر، لكن كأن شخصاً نهض في داخلني. أتعب لم أكن شخصاً واحداً، بل اثنين، الأول يريد أن يعرف، والثاني يرفض أن يعرف.

قبل أن تذهب، أعدت العشاء في المطبخ، وسأله عما إذا كان يريد شيئاً، فشكرها.

عدت وحيداً، أنا والآخر، وجاء دور الشفاء.

جراحي لم تتعلم، وأنا أرغب في نكته فروح ذاكرته.

لكنه اختصم بالصمت.

كادت الأيام التالية أن تمتد إلى صمت شامل، لولا ابنتي ندى، تأتي يوماً قبل أن تذهب إلى الجامعة، تعد لي الفطور. لم تنقطع عني حتى عندما شرحت بوجود سناء، ما ناقشت علاقتي معها أو أشارت إليها، يبدو أن الآخر أنهى هذا الأمر معها سابقاً. لا تتركني قبل أن تطمئن إلى أن هناك من سيأتي في مواعده كالمتعاد، كأننا قد تقاسنا العناية بي. كذلك حسان لم يدعني لزوري القلائل، يأتي يوماً بلا وقت محدد، فيصافح أحياناً سناء ظهراً. كانت زيارته المسائية توفر لنا مجالاً لأحداث مطولة، من دون تحقيق تقدم يُذكر، لم يكن لدي ما أقوله، الجزء الأكبر منها يقع على عاتقه.

هيا لي حسان أكثر مما يلزمني من الهدوء والراحة والتأمل على أمل أن يُضيق الحبل الخناق عليّ فيجعل في خروجي من قوقعتي ويُسرّع بشفتائي. لم تُشعرتني بأنني مطارد بالأسئلة، بعد أن تعهد لأصدقائه في فرع المسافرات أن قضيتي هي مسؤوليته، وأنهم بعدم جدوى أي تحقيق يتطرق لما تعرضت له في العراق، قبل أن أتعهد ذاكرتي.

العناية والحماية اللتان أحاطني بهما فرضتهما اعتبارات الصداقة. كان الآخر صديقه الحميم، مثلما كان هو صديقه الأثير، الحياة لم تبعدهما عن بعضهما بعضاً إلا لماماً. وكان من الطبيعي في هذا الطرف، أن يقف إلى جانبه في ما بدا أنه سحنة قاسية يعاني منها، تستلزم حسب رأيه إجراء فرز لما سبق من حياته.

هزّون عليه حسان الكثير من الصعاب، وطمأنته إلى أن هناك ما سياتي وحده وبأخذ موضعه في الذاكرة، فترات الطفولة واليافعة وما أشبه من أحداث سعيدة، وهذه لا تشكل عائقاً. ما ينبغي التركيز عليه هو استحضار الحديثة منها، لا سيما المؤلمة، يستحسن الكشف عنها، ولا يضره تذكورها، تسهم في إعادة رؤية ما جرى بصورة أفضل، وتجعله أكثر استعداداً لما لا بد قريباً من مواجهته. ولقد ساعده، على الأخص، في المرحلة التي كان جزءاً منها.

كانت لديهما قصة طويلة كان حسان قد شارك بغير كبير فيها.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

هذه القصة إذا أردت أن أعيد سردها، فأولى وقائعها تبدأ في مدرسة جودة الهاشمي الصف الأول الثانوي عام ١٩٧٦. بعد أسبوع من الدوام، نقل الأستاذ الطالب المشاغب المفترض أنه أنا، إلى جانب حسان الطالب الأكثر هدوءاً والأقل كلاماً. خلال أيام أصبحنا أصدقاء، عداني حسان بفضيلة الثروي، وأصبته بميزة الطيش. ترى من كان موقفاً أكثر بما اكتسبه؟

جمع بيننا تحالف متين، غضا مشاجراتنا ومناقشاتنا مع الآخرين متكافئين ومتضامنين، لم يتخلف أحدنا عن مساندة صديقه، وتورطنا بمغامرات صغيرة مع عبرات ضئيلة أخذت تكبر مع الزمن، فتحت أمامنا عالماً من الغراميات والإحباطات مع طالبات مدرسة الفرنسيكان، قصص غزل وحب واختناقات تعاليت فصولها بين المسالك المؤدية إلى شارع الصالحية وساحة الشهداء، وعروض الأحد السينمائية في سينما الزهراء والمسفراء. غراميات

تتلكأ في العطلة الصيفية، نظفر خلالها باهتمامات مختلفة وإشارات مختطفة، ورسائل متبادلة على الأثير. نتسكح تحت شرفات بيوتهن على مقربة من ساحة النجمة وأزفة أبي رمانة وساحة عرتوس والشهبندر، وقد يكون الختام في الصيف نفسه، عندما تخلو الشرفات من إطلالاتهن، أو في بداية الخريف، فلا نحظى برؤيتهن يتمايلن خارجات من المدرسة في دخلة الشعلان. بعد عدة أشهر نلتقي بهن مصادفة، في يوم شتائي بارد أو ماطر، نلمح المحظوظة منهن في شارع الحمراء تتكئ على فراع زوجها، تشحط قدمها اليسرى وبتنها متفخ.

في الصف الثالث الثانوي، اكتشف حسان الولد الهادي ما يدور من سياسة تحت الأرض، وما يجري فوقها من تملسل في الشارع؛ الأصوات المرتفعة المتنادية بالحرب، تطالب بتحرير الجولان المحتل. الحرب انطلقت لكن وقف إطلاق النار أحبط الآمال، وخفض التوقعات المتفائلة إلى الحدود الدنيا تحت وقع المفاوضات المكوكية، وتأجل التحرير إلى أجل غير معلوم. كانت الانتقادات التي وُجّهت للسلام الذي بات استلاماً، قد دفعت حسان للتحرف على الجرائد السرية والكراسات والمنشورات.

أصبحت اهتماماتنا واحدة، قرأنا الكتب الرائجة الحمراء، وعشرة أيام هزت العالم... فاستأثر انتصار ثورة أكتوبر بخيالنا الجامحة ومشاعرنا المتأججة. وبشرت بالقضاء على الرأسمالية، وحتمية زوال الملكية الخاصة، وإقامة مجتمع شيوعي بلا استغلال ولا طبقات.

اعتقدنا نحن الطلبة، أننا الطليعة الثورية المدعوة للتغيير، فبدت

ثورتنا على الأبواب، لا نتقصها سوى المبادرة بالخطوة الأولى. تخيلنا أننا سنقاتل حتى الطلقة الأخيرة والنفس الأخير وراء المتاريس. كان أساتفة الإضرابات والعصيان والكومونات قادتنا الفكريين المارقين. لم نتوقع الكثير، بعد أن تعلمنا من النبي المسلح الذي اختل أعزل ومتبوقاً بالمكسيك، كيف تُحدر بالقوة الاشتراكية الأولى في العالم.

استمرت صداقتنا في الجامعة، رغم انتساب كل منا إلى كلية مختلفة، حسان كلية السياسة والاقتصاد، أنا كلية الحقوق. لا نبدأ بما كنا نتعلمه، ماذا تكون السياسة والاقتصاد والحقوق سوى علوم برجوازية؟ مارس كل منا تأثيره في صاحبه، وعلى الرغم من تطلعاتنا الثورية، لم تنتسب إلى الحزب الشيوعي، كان أقل من طموحاتنا الراديكالية، لم نرضنا سوى الثورة الدائمة، فانتقلنا من منظمة إلى أخرى.

بعد سنوات من الإخفاق في الامتثال لحزب أو منظمة، ابتدعنا تنظيمنا السياسي الخاص، لا يزيد على بضعة أفراد، يتشغلون بين أصداقهم وعصومهم ساكني الغرف المستأجرة في الضواحي والأرياف القريبة والأحياء المهشمة وأحزمة الصفيح، يتحلقون حول الطاولة، يدخنون بشراهة ويشربون القهوة بالفراط ويتجادلون طوال الليل، وأحياناً يذهبون ليعبدوا الكرة في المقاهي الدافئة والأقمية الباردة مع متفني الأحزاب والتنظيمات الأخرى.

كانت لدينا رغبة عارمة في التنظير. فكثبت عن الثورة، ولم تكن أكثر من خطط على الورق تبين مراحل الاستيلاء على السلطة، تبدأ بإضراب عام، ثم توزيع السلاح على الشعب، فالثورة وتسريح

الجيش، تحطيم الجهاز العسكري، السيطرة على الشرطة، هدم
السجون وإطلاق المساجين، تفكيك الجهاز البيروقراطي... ثم
نهاية الحكم المطلق.

وكتب حسان رؤيته عن صراع طبقي نظيف، دونما عنف ومجازر
وبلا ضحايا. تلمحه بدقة خارقة على نحو غير علمي ولا تقلمي،
وكأنها عملة إقناع فكري، واستلام طوعي لحركة التاريخ، ينتج
منها تأخ فطري ضد القهر والاستغلال والبشاعة. تتوج بمصالحة
تاريخية، وتغير مؤبد.

رؤية أقرب إلى الإلهام الشعري المثالي، بمضمون رومانسي
فوضوي، مع أن الشكل بدأ موضوعياً. كان لدي بعض
الانتقادات، ومن الممكن التفاوض عنها، ما دام الأمر مجرد
تهويمات في حينها. لكن إزاء هذه المخالفة الخطيرة، اتخذ
جدالاً حدة غير مألوفة.

في حماته، ضللتنا طوبقتنا في أزقة دمشق القديمة. كنا نبي
الوصول إلى عهده النورف. فإذا بنا عند نزلة باب السلام، على
مشارف العسارة. فأزوت إتهابه، قلت له:

«متى كانت الثورات تصير بالإقناع؟»

«أنتشد ثورة يضاء تضادي سفك الدماء».

«لا بشر تغير نخالطه الرحمة».

من سيخطر له أشد أن القادمين من بعدنا، المؤمنين الصغار،
متخرجي المساجد والحلقات الدينية، الأكثر بسالة منا ومسالمة،

لن يكون في قلوبهم موضع لفرة من رحمة، ولن يشفقوا على
إنسان مهما ناشدهم الرأفة؟

كأنني ما زلت ضائعاً هناك، وهو إلى جوارى يعود بي محاذة
سكة الترام المهجورة إلى ضجيج دخلة المناخلة.

كان الصراع الطيفي هو المحفز الأكبر في تحريك الجسوع الهائلة
نحو المستقبل العظيم. ولم تكن تندي أن المستقبل غير وجهته
صوب اتجاه آخر.

كما قد بدأنا متأخرين، ولن نصل أبداً.

بعد التخرج من الجامعة، وأداء الخدمة العسكرية، التي لم تكن
عسكرية، فلم نذاع عن الوطن، أو نسرّة ما احتل من أراضينا،
كان علينا كي نحارب، الالتحاق بمنظمات العمل الفدائي،
وكانت محاصرة في لبنان. لم نحزم أمرنا إلا عندما كانت على
وشك الترحيل من بيروت، وتصفية القضية الفلسطينية إلى مكاتب
ومفاوضات وتنازلات ومساومات.

اتخرطنا في حيلة البطالة، وكانت فاترة، لكنها اتسعت لاستضاف
مغامراتنا الغرامية، وكانت جدلاً إضافياً مع رفقات الدرب اللواتي
باتت نضالهن مهلوساً منه من دون زواج، لم يعد الجنس نسلة
لذيفة، أصبح مكلفاً، كان المناضلون متعنين في موضوع الارتباط
الأبدي، لكن الحب سهّل الأمور، وبدأ الرفاق بالتساقط واحداً
بعد الآخر في أقطام الزوجية، فجرى التنازل عن الكثير من
القضايا المصرية، ما جعل النقاشات المتوترة تذكيراً بفقدانها،
العزاء أنها لم تفقد حرارتها، لولاها لما كان للعالم الذي نطمح

إليه أي رجاء إلا في خيالاتنا، وبالفعل لم يتعداها، بينما العالم الذي نحن ضده كان أعنفاً بالهيمنة.

غير أن ما حدث فاق مخاوفنا كلها، كان انقلابات جفرية، وعيانات مؤلمة أتت على رموز الاشتراكية القومية، حتى أن الدفاع عنها فات أوانه، لم يعد لنا سوى إنقاذ ما تبقى من قضيتنا المثالية: العدالة وتحرير الإنسان، وكانت هي الأخرى، لا مكان لها إلا على أنها تمسك بأنظمة شمولية بدأت بالاستسلام بلا حياة للأعداء الإسرائيلين. أعطتها سلسلة من الزلازل لن نشفى من آثارها. كانت المتغيرات الكبرى على الأرض قد أخذت سبيلها بقوة ودونما هولادة: انهيار جدار برلين، انقراض عقد دول الاشتراكية الأوروبية، تفكك الاتحاد السوفياتي... وانتصرت الثورة المضادة انتصاراً ساحقاً، بعدها لم نجسر حتى على أن نحلم.

في الحقيقة، لم تكن كلاتنا، أصحاب فعل تاريخي، كنا ذوي مزاج شامي يرمد التغيير بأي ثمن، اشتبهت تطلعاتنا بما راج من أفكار في تلك الأيام. كانت ثورتنا من دون دوافع عميقة. فلم نقاتل أو نعارض. كنا نعانى.

طالما عضنا جنالات عميقة وطويلة مع الرفاق داخل تنظيمات، لم تكن سوى مجموعات انشقت بعضها عن بعض. مناقشات دامت أحياناً أسابيع وأشهرات على أمور تحسنت قبل عقود. ولقد اكتشفنا أنه على الرغم من حتمية الثورة، لم يتوفر لها منظرون انتهازيون ومقدسون، ولا جماهير عمياء وهاتجة، بل عاكستها أفكار عابرة لم تكن حتمية، أحدها المصادفة التي لم تأخذها على

محمل الجد أنا والرفاق.

صار تعبير المصادفة يمنح لجهلنا تفسيراً غامضاً أكثر موثوقية من غيره.

لم يبق من الأفكار المنكوبة التي اعتنقناها سوى أهراء ثقافية غير عطرة، تحفل بعناوين عنيفة، لكن بالية ومشغولة تدور حول التغيير مع الزمن بالقوة أو بالتدرج.

في تلك الليلة، كنا عالدين من سهرة كلبية، لم نرفع خلالها أخطاب النصر، وإن بحث أسواتنا دفاعاً عن الاشتراكية، كنا على ثقة بجولة قادمة تلوح في الأفق القريب. توقف حسان مترنحاً وسط الشارع، وقال لي، أتعرف من نحن؟! لنا سوى برجوازيين صفار لا يؤمن بجانبهم على بروليتاريا طيبة القلب، لن نتورع بعد النصر عن سرقة منجزاتها في المستقبل القادم الذي لن يأتي. نحن، ولنعترف، شبان التحقوا بثورة فاتها القطار.

كان توصيفه لأنفسنا أميناً.

فيما بعد كانت سخرهاتنا المريرة على الذين تنصلوا من ماضيهم وارتدوا عن مواقفهم، الرد على هزيمة لا يد لنا فيها، ولقد بالغنا، وأمسك لهواً جارحاً لم يخلُ من جدِّ مؤلم، دون التكر لأفكارنا.

لن تبلغ عيبتنا مداهم اللامعقول، إلا عندما رد علينا الواقع بسرالية، لم نحلنا إلى الواقع الذي نعرفه، بل إلى الواقع الذي لا نعرفه. كان السؤال اللبيني الشهير: ما العمل؟! قد أجاب عنه الشيوخ المحسمون. يا للمفاجأة، تبادلنا الأدوار على حين غرة،

أصبحنا نحن التقدميين عالقين في العصر الجاهلي، بينما القادسون الجدد عادوا من هجرتهم مظفرين، لياشروا نضالهم، بتحطيم أصنام المادة والإكحاد، وإعلان الإسلام هو الحل، والقرآن هو الدستور.

لم تُقلب صفحتنا من دون أضرار، أصابتنا مع الموجات المتلاحقة من الاعتقالات التي طالت التنظيمات اليسارية المتطرفة، كان نصيبنا منها قضائي مع حسان نحو ستة في السجن، أطلق سراحنا بعدما أثبت التحقيقات أننا لا ننتمي لتنظيم يريد الانقضاء على الدولة، ولم نمارس أي نشاط تخريبي ضد النظام، مجرد شيان مارقيين، هوة أفكار لا أفعال. وهكذا دفعنا ضريبة نضال بعد أن لم يعد هناك ما تناضل من أجله، لم يكن ثمة باعظاً بالمقارنة مع غيرنا، لكنه استدعى المراجعة.

بعد خروجنا من السجن، لم يقب المحقق الذي شهد مناقشاتنا الطموحة، عن مراجعاتنا الأنهزامية، وكانت مشرة وباتسة. قطع حسان صلته بالماركسية بنوبة عفوية:

«الثورة والتحرر لا مستقبل لهما في بلادنا».

ومن نيوته بُعداً تاريخياً وجغرافياً لا يقتصران على المنطقة:

«البشر منذ وجدوا على ظهر البسيطة، يستمدون بعضهم بعضاً لا فكك من الاستغلال، إنها الآلة الصماء لا استمرار الحياة».

أما أنا فبقي التردد عزائي الطويل واللامجدي. في تلك الفترة، وجدت عملاً على علاقة بالكتابة والسياسة اليومية.

بعثرتنا الحياة العملية، حسان لم يذهب بعيداً، أخذ يكتب في الصحف عن الصراعات السياسية الدولية والإقليمية، في مرحلة ما بعد انتصار الرأسمالية، وانطلاق عجلة العولمة. ولم يغب عن كتاباته الإحساس بعذالة مفتقدة، لعالم بوغل في المجهول على الرغم من دعاوى الحرية والديموقراطية والرفاهية، وعولمة علينا أن نجد لنا موقفاً فيها.

جهوده ذات الطابع الفكري، استلقت اهتمام دوائر المسؤولين، فطلبوا منه العمل لديهم، فتوظف في مركز للبحوث الاستراتيجية، يقدم معلوماته وثمرة دراساته لعدة جهات كان من بينها أجهزة المخابرات.

«ألا تعتقد أن صلتك بهم خطيرة؟»

«إنه مجرد عمل».

ملاحقة الأحداث السياسية نقلتني إلى مقاعد المتابعين اليوميين، انصرفت إلى الكتابة، من خلالها تركزت تساؤلاتي على هؤلاء الذين احتلوا محلنا، ما الذي يوسعهم قلبه؟ ولم تعلم تساؤلات كانت أكثر إلحاحاً، لماذا لا يكون للمؤمنين فرصتهم هم أيضاً؟ فانخرطت في مجال مفاير، ولم يكن من المفارقة أبداً أنني تخصصت في موضوعات ما كان أهدني عنها دراسات عن «الإسلام السياسي». شجعتني عليها الماركسية المتأخرة المنفتحة على التساؤل الديني، لا سيما وقد اتخذ الإسلام صيغة الفعل المضالي لا الزهد والاستسلام التبريري. لم يعد الدين عزاء للإنسان واحتجاجاً على الظلم، أو الإيمان بحياة في الآخرة أرفع مقاماً في السماء. وإنما برفع لواء الجهاد حتى النصر، ولم يكن النصر سوى الشهادة.

أنتجت بحثاً مطولاً، أصبح مرجعاً في تاريخ الجماعات الإسلامية، نشأتها وأفكارها، نشاطاتها وتنظيماتها. لم أرض عن عملي تماماً، دراساتي لا تهم سوى الذين يريدون أن يفتكروا بهذه الجماعات أو يُشهرُوا بها، أو يستغلُّوها. وقد استفيد منها أولئك الذين يريدون أن يجاهدوا أو يحلموا مجدداً بالانكال على الله والقرآن بهداية عالم كافر.

استغرب حسان إعجابي بهم، قلت له:

ربما لاستخدامهم قاموسنا القديم، مع بعض التحوير.

أصبحت الإمبرالية هي الطائفوت، والأنظمة الرجعية العميلة، أنظمة ملحدة ومرتدة، والحزب الثوري، الجيل القرآني الشاب، والكفاح المسلح هو الجهاد، أما العنف الثوري فهو الأستشهاد!!

كأن الروح ردت إلنا وعدنا إلى مواقعنا ملتحمين ومجلبين، وفي الطريق، إن لم يكن إلى أسلحة العالم فإلى قلبه رأساً على عقب، أو تفجيره بأسره، وإعادة تشكيله من جديد.

كانت الفكرة بعد ذاتها مشيرة ومحيرة، أن يكون هناك أناس يمتحنون الأفكار الكبيرة حياتهم، أناس مهتمون من جميع الطبقات، أترباء ولذكياء، متعلمون وأميون، فقراء ومعلمون... رجال ونساء، شبان وشابات، حظهم من الثقافة متواضع أو ضئيل، ليس لديهم من أسباب القوة سوى أجسادهم، لا تكنولوجيا جبارة ولا قتال هائلة الحجم ولا طائرات وبوارج تصيب أهدافها عن بعد، سلاحهم التضحية بالنفس، أما سلاحهم الأقوى فرواغم الكونية، وإرادتهم في تحويل البشر من الكفر إلى الإيمان.

لم يدع حسان هذه الفكرة تتغلب عليه:

وماذا سيكون شكل العالم عندما يسيطر عليه أتباع الله؟ أين نعود إلى عصور الظلام والتفتيش؟^{١٤}.

ما دفعني إلى الانحياز ضدهم، بعد أن كنت مجرد باحث مرابح أرصد تحول الدين إلى قوة تحرير ورفض وتغيير وثورة... هو قيام تنظيم القاعدة بإسقاط برجي التجارة العالمية في نيويورك. ضربة لم تستثن المدنيين العزل والأهرياء، بالعكس كانت تستهدفهم، أو لا تلقى بالألإهم بالتضحية بهم. وكان في تسارع الرد الأميركي بقصف أفغانستان، ثم امتداد الحرب إلى العراق، ما أوحى بالجحيم الذي سيعم البلدان العربية والإسلامية، وتحويل العالم إلى ساحات قتال مفتوحة للاستهاديين.

بعد مضي عدة أشهر، لم أر حسان عائلتها، كان عملي قد تطلب مني إجراء سلسلة من الأبحاث حول انتشار الأصولية الدينية في البلاد العربية، تواعدنا على اللقاء في مقهى الهالاندا. حدثني عن عيبته مما يجري، كان قد فقد لفته حتى بوعود الإصلاح الإداري. هونت عليه، وقلت له، إن مقالاته في الصحف تحمل رؤية تظهر فتراً معقولاً من التلالو الحقيقي، ولم أكن أكذب. قال إنه يمر بمرحلة من الإحباط ينفي الأبعكها في كتاباته. بالمقابل كان يتبع أبعالي، ومزعراً فتراً في مجلة «المستقبل العربي»، مقالة بعنوان «الإسلام السياسي... إلى أين؟». سألتني:

«هل هو الخطر الذي مستحذر منه؟»^{١٥}.

«ربما كان الهلاك الذي فات أوان الهجاة منه».

كان ما تذكره حسان والأخضر عجزاً معقولاً لاهتماماتهما ومسيرة حياتهما.

كل منهما، وبها للخرقة، أثر أن يكون متفقاً مبدئاً، يقدم خدماته إلى المجتمع الذي كان سيثور عليه.

هل ما زال هناك الكثير مما أجهله عن الآخر؟ لا، مجرد نظرة
سوداء صغيرة، تغطي الأشهر القليلة الأخيرة، كانت تبعث
عشيتي. لم أستبعد عطر ما أخذ يتذكرك بتؤدة، وتغالبه إلى
هجمة كاسحة تقوض حاضري البليد. غير أن ما كنت أتحاشه
أكثر، وإن بدا علاجاً ناجحاً، أنني لم أعد إزاء عملية استرجاع
صعبة أو معقدة، تتداعى أقرب ما يكون إلى ترميم ذاكرة
متصدعة، وإنما مواجهة إحساس كلني بأنني مهدد، أخذ يملكني،
وأنه لو نجح في استرداد ما أضاعه من ماضيه، لكان فيه تدمير
لكياني.

من حسن حظي، أو هكذا ظنت، كانت دفاعاته قوية.

اقترحت على حسان التحال شخصية الآخر، بدل أن يحرصها
على الظهور. مزحة، عقب عليها ضاحكاً، أنه لن يضع نفسه في

سكاني. حاولت أن أشرح له، متكلماً نياحة عن الآخر، بأن ما جرى في داخلي، هو بساطة عملية اصطفاء ذاتي، فلت بها عن غير وعي، الهدف منها التخلص من بعض الذكريات بسحوها والغائها من الذاكرة، عملية حتى لو كانت انتقالية ولا إرادية، تنطوي على بعد نظر، أليس فيها رغبة شديدة في الحفاظ على النفس؟

هل كنت أبلع لم أبلع؟

أعرف أنني رهين عاصفة، عندما تهب، قد تختار الزمن الأسوأ، زمن أكون فيه بلا مناعة ولا مقاومة. ومع هذا لم أتشجع على التفكير في استعادة ما مر بي، خطفاً ولا بتفاصيله، مجرد لمحة منه تصبني بالذعر، فكيف بالفورس فيه؟ أتوقع ما سوف يلم بي، صدمة إن لم تكن قاتلة، فشديدة الأذى، ستخلف وراءها أكثر مما يمكن تحمله، وإن استطعت تخيله، مزيج مبهم وفاس من الإحباط والقنوط والخذلان.

كانت أقل التفاتة متعمدة أو شاردة نحو تلك البقعة المعتمة، تغلفني إلى أتون خيالات تشكّل بلمح البصر، ساحة مترامية الأطراف، تمتد على مد النظر بالبشر العراء، ينهضون من الموت، ويخوضون في مستنقع من الوحل الأسود، كل منهم يخفي وجهه أو عورته، بينما في القاع، بقايا رجال ونساء مشخنين بالحراج، وأشلاء تظهر منها العيون باكية، والأفواه مفتوحة على وسعها تتوسل... وكأننا في يوم القيامة!!

قلت لحسان، تبدو أشبه بلوحة من القرون الوسطى على علاقة بالبحيم والعقاب، أليست هذه فكرة ذهبية؟ ربما كنت أوحى

لنفسى بالاستعداد ليوم الحساب!! علق، أن تستعيد ذاكرتك، عملية لا تقل عن امتحان؛ هذه التخيلات وغيرها مرتبطة بما عايشته في العراق... لم يخلُ يوم هناك، من حساب وعقاب وقتل.

لا، لم أتوقع تفسيراً مختلفاً.

أفكاري تتخبط في زحام بغض بالترقعات السبعة، كانت مجرد أحاسيس، الفراغ يكاد أن يقضي عليّ، وإن أطلع حسان في دفعي بضع خطوات إلى الأمام، بيت الثقة في نفسي، والتألف مع فكرة أنني شخص تماثل للشفاء وبمقدوره أن يكون قوياً، وليس مريضاً في دور النقاهة. غير أنني لم أتصور هنا الأمام سوى واد سحيق، تمنيت المسقوط فيه للأحرار لأتخلص من كوني شخصاً عديم الفائدة، لا عمل له إلا الاستعداد لفاجعة لا يدري ماذا تكون!!

لم يلمر حسان عن استحضار ما يحضني على التذكر. وكان لا مفر من فعل شيء، تحت تأثير تشجيعه ودعمه القائمين، في أصاقي تشتعل ثورتني على جهل ارتحت إليه، وألقيت أعباءه على الآخر، لكنه لم يمنحني السكينة، بل الترقب والخوف والريبة... شعوري بالتعب الشديد والإنهاك يفقدني التركيز، وكان أشد ما يؤلمني إحساسي بانتهاك لا يفارقني، لمجرد أن الذين حولي يعرفون عني أكثر مما أعرفه عن نفسي.

أليس هذا من فرط تسكبي بمجزئي؟

خامرني لحظتها، أن ما أشرف عليه من بعيد، كنت أنا في داخله، لا الآخر. وإذا تابعت هكذا، فلن يكون لي وجود على الإطلاق.

إحساسي لم يمسي وحدي، كان يمس العالم الذي أنا فيه، لا
أرهد أن أخلق وجوداً لي، بل أستعيد نفسي وعالمي، مهما كان
هذا العالم، طيباً أو مجنوناً أو شراً. وكان لا بد أن يحصل.

ولقد وفرت لي مخارفي بداية، أشبه بطرف عيط.

كان المنظر الخاطف الذي دهمني وتسمر أمام عيني، قد متحني
مدخلاً لما كنت ألوذ بالفرار منه، هيأة حسان، فلم أتوان عن
متابعة ما كان يقوله لي عما جرى بيننا عندما استقبلني في مطار
دمشق الدولي.

وكان هناك ما حدث وانتهى قبل وصولك إلى دمشق. حرصت على استقبالك لأعطف عنك الصدقة. تطاهرت أنني جئت لأصطحبك إلى البيت. بينما كان من المفترض أن يكون سائر ابنك في انتظارك.

القاعة خاصة بالمودعين والمستجيبين من الرجال والنساء، ضجيج، أولاد يتظارلون برؤوسهم عاليًا، بكاء خافت، دموع فرح، نداءات سفر، عربات محملة بالحقائب الكبيرة والصغيرة، أهدى لفرح. ظقت عدة مرات باحثاً عن... عم كنت أبحث؟

أكد لي سائر على الهاتف قبل أيام، أنه سوف يكون في انتظارني. كان مع أصدقائه في رحلة استجمام على شاطئ البحر في اللاذقية، وسعود إلى دمشق قبل عودتي من دبي، ليكون لي استقبالي في المطار.

عبرت قاعة الانتظار باتجاه بوابة الخروج، دخلت أحدهم بكفي
أو أنه دخلني. التفت نحوه معترفاً، فباتني الاعتذار. في الخارج،
وقفت ساهماً على الرصيف أبحث عن سيارة. كان الجو
الدمشي صلياً ولا مبالياً.

من بين الواقفين، ظهر حسان على الرصيف، فوجت به، لم أكن
أنتظره ولا أبحث عنه!! اعترضني معانقاً، أمسك بيدي سحني
وانحرف بي جانباً. استغربت ظهوره المباغت. سألته عن سائر.
لم يجب.

لم أدر بعدها، وحسان لا يتوقف عن الكلام، إلى أين
سأخذني!!

... انحنى سار قبل وصولك بأسرع. عندما عزمت على ملاقاتك
في المطار، كان في حياي أن أعلمك بشكوكي خلال الطريق،
وأشهد لك ما سوف تعلم به بعد قليل، ولم يكن ساراً على
الإطلاق.

طلب حسان من السائق حمل حقابي وأن يبقنا بها إلى السيارة.
أعدت عليه السؤال.

استكلم فيما بعده. قال.

هل الأنه.

ولم أهد إلى السيارة.

... صارحتك بعد إصرارك، أن تنهي اتصلت بي منذ أيام،
وأعلمتني بانقطاع أخباره عنها، ولم تكن لتلتفت إلى هذا الأمر
لولا أن رجال المخابرات دهموا البيت، يبحثون عنه، ورجعتني

الاستفسار عما يردونه منه. اتصلت بالفرع، كانت لديهم قضية كبيرة ضده، أما هو فمختلف.

أطلق جوابه في رأسي احتمالات شائكة بدأ بالاعتقال ولا تنتهي بالسجن. أحست بأنني قد أنهت بين لحظة وأخرى. وبالتعب بقاتي في دمشق وعودتي إلى دبي مرهوتين بما سيربه اعتقاله علي من تسائلات، وظهوره من أجه.

... كان ضابط المخابرات واحداً من معارفي في العمل. طلبت منه عدم اعتراضك في المطار، ووعدته بأن آتي بك إلى الفرع. كان ذلك أخف وطأة عليك، حاولت إعدادك، لما سوف تسمعه، وأعطيتك فرصة للتفكير لتسوعب شيئاً لا يمكن أن يخطر لك. كنت واثقاً بوجودي إلى جانبك، أنني سأساعدك. كان من الضروري مراجعة الضابط المسؤول.

«هل أنا مطلوب؟»

«لا، ليس لديهم شيء ضلك.»

أذرت لحظتها أن حسان يحكم معرفه بعض ضباط المخابرات، تبرع بمواقفي ثلثا مضايفني أحد هناك.

...أكدت لك، المقابلة لن تطول، بضعة أسئلة لا أكثر. لن نتجم عنها شيء، ولن تعيقك عن العودة إلى عملك في الوقت الذي تريد.

أنهت صباح أول البارحة في دبي، جميع الإجراءات اللازمة لعلي الجديد، إثر الموافقة على تصني مستشاراً للبرامج السياسية.

في وفاة للفيزيوية معولة من جهات لم أهتم بمعرفتها. فأت أوان التحري عن تعامل معهم. لم أجهل من خلال الأشخاص الذين وشقوني للعمل أن الجهات المشبوهة لم تعد مشبوهة في مقياس هذه الأيام. سابقاً، كان توافر المال يساهم كافيّاً ليضع عشرات إشارات الاستهزام، فتلحق بها اتهامات بالعصاة والتخوين. اليوم يسارع الكثيرون ليشيخ كميات هائلة من الأموال القذرة، أخذت ترد علينا بفرص عمل ليضع سنوات، أو أشهر.

في اجتماعي مع مدير القناة، كان الحديث صريحاً، فقد سبقتي إليه بعض المعلومات عنى. قلت له إن أعني شيئاً، لقد مررت بأكثر من مرحلة مسارية، وطمعت إلى المشاركة في تغير العالم، ولم أفلح مثل غوري في المشاركة ولا في التطوير. صراع خرجت منه بخسائر فكرية، حصيلة حتى الشباب، أما الجسدية فبضع كدمات جراء مشاغبات طلابية، وأصبحت مدة تقارب السنة في السجن.

بان على وجهه السؤال، ثم قال محاولاً إعطاء فضوله:

هل لي بأنك لم تعد تهتم بهذه الأمور.

ولا بفرها، أهتم بعملى فقط.

لكننا قليلاً، فأكدت له:

هست متباً إلى حزب، ولا معاطفاً مع أية جهة.

ولا تعرض على اتجاهاتك، لكننا نريد أن نكون على يئنه.

لم أجد بأساً في المزيد من التوضيح:

إن أمتح حياتي لأية فكرة، مهما كانت عظيمة.

خرجت من قاعة الاجتماعات إلى الفندق، الوقت ظهراً، تناولت طعام الغداء، بعض المقبلات الباردة، ووجبة جورجون بلو لا طعم لها، وعصير برتقال. على غير عادتي لم أشعر بالنعاس، أشعلت سيجارة وطلبت كأساً من الشاي. أحسنت أنني أنتظر شيئاً ما، أو شخصاً اعتقدت أنه سيدخل من الباب، يتوجه نحوي مباشرة ويخبرني بأمر مزعج. تمنيت أن استغل الظائفة قبل موعدتي وأعود فوراً إلى دمشق. لكن ما زال هناك ما أنجزه، على الأكل انتظار نتيجة المقابلة، وإن كانت معروفة، وبعض الإجراءات الأخيرة اللازمة. قالوا إن موسى إنجازها فيما بعد.

راودني خاطر، تكلمت مع سناء بالهاتف. وقلت لها إنني حجزت تذكرة العودة، وطلبت منها أن تسعد لكي تنجز أمورنا خلال الليل من أسبوعين. لم اتصلت بسامر وأخبرته عن عودتي بعد يومين، لأنهي بعض الأمور العالقة في دمشق، قبل أن أباشر عملي الجديد. علمت منه أن رحلته إلى اللاذقية قاربت على الانتهاء، وسيكون يوم الثلاثاء بانتظاري في المطار. بينما كان يخطط لاصطافه عن الأبطال.

... لم يكن اللقاء شيئاً في الفرع، وإن كان مفرداً في التشاؤم. كان الضابط واثقاً أن ليس لديك معلومات عن سامر. لكنه أراد استفزازك قليلاً ربما ظفر ببعض المعلومات، لم يظهر بشيء، لكنه نجح باستفزازك.

جلستنا لم نحل من مجاملات بسيطة. زعم الضابط الذي كان لطيفاً ومنهماً أنه يتابع ما أكبه من دراسات قبضة، لكنني لم أروح

له. كان قصر القامة، ولم يكن تصدده الجلوس وراء طاولة على كرسي دوار مرتفع، إلا ليخفي طوله الحليفي، دون أن تعرض أكتافه المتينة وصدرة العريض طوله المتواضع. هذا ما دار في خلدي حوله من انطباع سيئ، ربما لكي أخفف من تأثيره في. مجرد أنني في مركز تابع للمخابرات جعلني أيقن أنني لن أشر بالارتياح، بينما جعلني سيكون في منتهى الهدوء وممارسة حدي لعبة لن تكون متكافئة.

بعد أن أبدى تقديره لكلماتي، بانزني دون عذبات:

«أنتك سامر، أين هو الآن؟»

«وما الذي تريد منه؟»

«لم أسطع كبح جماحي، كان في تسالفي اتزعاج.

«لا تعرف؟»

«لا تقل لي بأنكم تتحجرون.»

«أجيني، الأمر بهمك.»

«سامر في رحلة مع أصدقائه إلى الساحل، وقد تأخر هناك.»

«ولمّا أنت واتق، هل استأذنتك؟»

«استأذن زوجتي.»

«أنت وزوجك مفصلان، أليس كذلك؟»

«هل أنا في تحقيق؟»

«أريد التأكد مما لدي من معلومات.»

«صارحتي، ما الذي يجري؟»

«نحن نبحث عنه. تبعناه من بيروت إلى دمشق، ثم فقدناه في حلب. أعتقد أنه توجه إلى قرية حدودية.»

«أنت تعرف أكثر مني.»

«إنك على علاقة بجماعة إسلامية متطرفة.»

«كان ما يتوك صاعقاً، لكنني استجده.»

«أنت مخطئ.»

«لم أتصور على الإطلاق أن يكون سامر على صلة بأي تنظيم مهما يكن كنهه. تبادلنا إلى ذهني أن الضابط يريد مني شيئاً، فأخذ يتزني بتلميحات، مصداً لتهديدي بأنني»

«سجود سامر اليوم، وربما كان الآن في البيت. هل لي أن أعرف ما الذي تريده مني؟»

«عندما أقول إنك، فأنا أعبه تماماً. نحن نلاحق هذه القضية منذ زمن، وما أعرفه الآن عنه، هو أنه مختبئ في قرية الدواسر، وربما...»

«ربما... ماذا؟»

وحلال الأيام القادمة سيقلد إلى العراق.

«لا تؤذني أكثر، لقد ارتكبتم خطأ جسيماً. سامر ليس في وارد معارضة أمركا، ولا يفكر بهذا مجرد شكوه».

«ما سأقوله لك سيكون خيراً فاسأ عليك، لقد انضمي إلى تنظيم إرهابي إسلامي خلال السنة الماضية من فراسة في بيروت. لن أصدقك، ولا أريد أن أبلغ، ربما كان علي علاقة بمنظمة القاعدة على وجه التحديد، وهو الأرجح».

لم يختم حسان حديثه، كان قد افتتحه:

«... لم تكن هناك خديعة، بل قضية بالفعل. هل تريد معرفة المزيد؟»

كنت أريد أن أعرف.

لم يسترح سامر انتباه رجال الأمن طوال مدة دراسته الجامعية في بيروت، كان مثل أي طالب سوري يدرس في لبنان، يخرج مع شلته من الشبان والفتيات، يرتاد مفاهي شارع الحمراء والسكنات والكافتريات ومطاعم الوجبات السريعة، لا شيء يثير الشكوك أو التكهنات في تصرفاته. في السنة قبل الماضية، أخذ يتردد على المساجد القريبة من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. فلفت أنظار المخابرات اللبنانية والسورية، وفسروا تواجدك فيها على أن صداقاتك المتنوعة التي لا تخلو من أصناف فلسطينيين، قادتك إلى هناك.

بعدها بشهرين، التقطت له عدة صور ظهر فيها ملتجئاً، طول شعر لحته يتجاوز قبضة الكف، يرتدي لباساً شرعياً قصيراً، حسب النمط الإسلامي الأصولي، وعندما يرجع إلى دمشق في العطلة الصيفية، يرتد حلق اللحية مرتدياً ستره وينظلاً من الجينز. بأيهما

كان يتكرر؟! فأذركوا أنهم وقعوا على صيد ثمين. لكنه لم يكن ثميناً، كان كما تبين مجرد طالب استهواه التدين فقاده إلى المسجد.

في أوائل السنة العاضية، شوهد في مخيمات شاتيلا والبارد والبيدوي، يسمي إلى التعرف على الأفكار الجهادية في أكثر أماكنها انتشاراً. لم تبدأ علاقاته تبحث على الرية، إلا بعد تركها على أشخاص متشددين من المعروفين بالتكفيريين في المخيمات التي اتخذوها ملجأ لهم. وكانت تحضن تنظيمات إسلامية معروفة وجماعات صغيرة لم تختص اسماً لها بعد، بأوي إليها المطاردون والمطلوبون في بلدانهم، يأتون إلى لبنان بجوازات سفر مزيفة بحجة السياحة، ثم يختفون في زواربها. الواضح أن سائر كان في تلك الفترة، يبحث عن عباراته، لم يكن قد اتخذ قراره بعد.

هذه التنظيمات والجماعات لم ترضه، عموماً لم تكن تشكل خطراً كبيراً، أعداد كل تنظيم لا تزيد على بضع عشرات من المقاتلين، سمعتهم غير نظيفة، بعضهم على علاقة بسيايين لبنانيين، وأجهزة مخابرات عربية متنوعة، سورية وأردنية وسعودية... كانوا على خلافات فيما بينهم، يخوضون حروباً كلامية، تصل أحياناً إلى إقامة حواجز وتبادل إطلاق رصاص، تنهم كل جماعة الأخرى بأنها باعت دينها لقاء تلقى الأموال من مصادر مشبوهة، وفي الوقت نفسه يدعون أنهم يعملون لكسب عيشهم. يمكن مصادفتهم في أزقة المخيم، باعة فول وفلافل وعضار وحرفيون، عمال باطون وتمديدات صحية وكهربائية... يعيشون من عرق جيبتهم، يزعمون أنهم يشترون الأسلحة من

أموال الزكاة. كانوا مخترفين من عدة جهات عربية لا تبخل عليهم بالسرعات، وتشجعهم على فتح الطريق إلى العراق، لإشغال الأميركيين عن الضغط على الحكومات، بينما تجاهلت أجهزة الأمن تجنيدهم للشبان وإرسالهم متطوعين إلى هناك، بغية التخلص منهم، أو لمحاربة الشيعة، بهدف إحداث توازن طائفي داخلي... كان سامر يبحث عما هو أدهى وأصله وصل مع تنظيم القاعدة، أو مؤيدين من جماعة أبي مصعب الزرقاوي.

لا نفري إذا ما وصل مبعوث من القاعدة كُلف بالإشراف على توجهه عملاً قائمًا، أو تشكيل عملاً لحسابها. لا يمكن تحديد ما جرى بالضغط، كانت بعض الجماعات الأصولية تنزع إلى التنسيق مع القاعدة، ومبايعة ابن لادن، كان العمل تحت قيادته يرضي طموحات الشبان ويؤمن الدعم والتمويل.

تمكن سامر من الاتصال بأحد رجالاتهم، وكالمعتاد اتخذوا احتياطاتهم، وضموه تحت المراقبة والاعتبار، وعاضوا معه عدداً من المناقشات الشرعية، أثبت فيها انحيازه للجهاد، واستطاع إقناعهم بسرعة فياسية بمثانة عقيدته. أجمعت المعلومات حوله على أن لديه شخصية إيمانية جذابة، سرعان ما جرى إخراج اسمه في قائمة المجاهدين، وأصبح على اتصال مباشر بالشبكة التي ستولى تهريبه وتؤمن وصوله إلى العراق.

عملاء المخابرات السورية في بيروت لم يغفلوا عنه، سجلوا تحركاته الأخيرة:

حدد له المسؤول عن الشبكة موعداً في محلة كورنيش المزرعة

قرب مسجد جمال عبد الناصر. أرسل إليه مبعوثاً، أخذه إلى مسجد الأوزاعي، صلوا صلاة الظهر، ثم تناولوا طعام الغداء في مطعم قريب. بعد صلاة العصر، سلمه لشخص آخر، وجرى نقله إلى شقة في البسطة بقي فيها لمدة يومين. تلقى تعليمات التحرك، ثم تم تهريره إلى سورية عن غير الطريق النظامي.

تابعت المخابرات السورية مراقبته منذ دخل إلى دمشق:

التقى بشخص في ساحة المرجة انتظره على ناصية فندق سميراميس، ثم سلمه إلى شخص آخر اصطحبه إلى مضافة في حي ركن الدين. أمضى فيها عدة أيام، قبل أن يغادرها حليق اللحية، لابساً ملابسه العادية.

بعد ذلك، زار أمه وقال لها إنه سيلعب مع أصدقائه في رحلة لمدة أسبوع، لكنه انطلق إلى حلب، وخضع لدورة أمنية سريعة، تعلم فيها أساليب التزام السرية التامة، وكيفية التعامل مع المحققين وتضليلهم في حالات التوقيف. ولم يغادرها قبل مبايعة أمير الجماعة على الطاعة، فيها اشترط ماذا سيكون دوره، مقاتلاً أو استهدافاً.

«ماذا كان شرطه؟»

سأله كي أظن على ما مر

الم يعرفه.

عندما حاول رجال الأمن ضبطهم، اعتفوا جميعاً، ولم يتركوا

وراهم أثراً. ظن رجال المخابرات أنهم في قبضتهم، بينما كان الأمر على العكس تماماً.

«لماذا تأخروا في اعتقالهم؟».

«لقد تم أنه طالما كانوا تحت الرقابة، فيوسمهم القبض عليه ساعة يشاءون، وكان الأمر متروكاً للحظة المناسبة. الأجلب عندما وعدك أنه سيكون بانتظارك في المطار، كان في طريقه إلى منطقة الجزيرة».

كانت تلك هي الخطوات التي تسبب الأضرار نحو العراق.

لقد تم الزمن المخيف الذي كنت اقرأ عنه حينما دفعة واحدة بكل أهواله وجنونه ومأساه. تمنيت لو أن كل ما سمعته ليس أكثر من عبارات مغلقة. ضبطت أعصابي ورجوت الضابط تكلبيها:

«ترفق بي. أنا مجرد أب».

حق إلى وصفين قليلاً، ثم قال بتؤدة:

«لنأتمل إلا يكون اجتاز الحدود. لا تضع الوقت. اذهب إلى قرية النواصير. إذا كنت محفوظاً فاستشر عليه. أنت أفضل من يقوم بالمهمة».

تسألت بصعوبة. لم يكن يتلاعب بي، كان يلقي أمراً بالتحرك. تساءلت بقلق:

«كيف أُنجح بما فشتم فيه أنتم؟».

«هذا العمل يستحسن أن تقوم به أنت، لو قمنا به نحن، فسبقونا، حتى الرمي الأخير».

«هل أسلمك ابني؟».

«هذا الفضل من أن أسلمه لك جنة بلا حراك. فيما يمكنك أن تعود به حياً. أنصحك، لا ترفض، لا توبد منه سوى بعض المعلومات».

«لم أرفض، فزرت اللحاق بأسر. ما كنت أرجوه فعلاً هو أن يكون الضابط على خطأ. فيما كان يستحي:

«إن لم يكن اليوم ليلاً، فلداً صباحاً».

«ما الذي يوسعك لتقديمه إلي؟».

«وانهب إلى المختار فور وصولك، ستكون لديه تعليمات بشأنك».

«كان لدى الضابط ملاحظة قبل أن ينتهي اجتماعك معه، سألك، أليس أنت الذي تكذب عن الجماعات الإسلامية؟ لم يكن يسخر منك، وإنما يعلن عن استغرابه لهذا التناقض الحاصل بين الأب والابن. أتذكر أنك فكرت ظهلاً، ثم قلت له شيئاً وافقت فيه على ما قاله».

«نعم ، إنها مفارقة».



هل كان السام أم اليأس؟ كلاهما.

بلغ بي اليأس حفاً عطل ما كبحت ونجعت في السيطرة عليه
 طوال الأيام الماضية، بينما ورطني السأم بعدم مقاومة فضولي،
 الشفرة السوداء اختزقت، لم أجد في المجال الآمن أنخط مطمئناً
 إلى جهلي.

كان ينبغي ألا أعرف، لكنني عرفت، وبات عليّ أن أعرف أنا لا
 الآخر، ما الذي جرى بعثد. لن أتلقى ورايد. لعني أو لعبة الآخر
 انتهت، ولم يبق سواي.

سلسلة بات من المستحيل إيقافها، أو تفاديها. لم أستلم لفاكرة
 بدت شهيدة الظلمة، وإن تركت الوقائع تنساب منها، جهدت في
 تلقيها بحذر شديد، لكن ما نفع الحذر؟!

حمسي كان أقوى من أي يقين، أترك، بل وأكاد أتلمس ما
 سوف تحببه لي الذاكرة من آلام، آلام لا تطاق.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

لم أجد في ما قاله الضابط مبالغة، كانت لدي أنا أيضاً معلومات عن القاعدة، لا تتناقض مع ما سمعته. لكن ما أثار عدم تصديقي وتساؤلاتي، أن يتمكن سامر من الانساب إليها. كان أغلب الذين قبلهم بين صفوفها من الشبان القادمين من السعودية والمغرب والجزائر، لبنان بالنسبة إليهم نقطة عبور إلى العراق، يأتون إليها فراراً من ملاحقات سلطات بلادهم وللحصول على تدريبات عسكرية تساعد على إكمال مشوارهم الجهادي. كانوا يترعون بكل ما يحملونه أو ما جمعوه من مال، لقبول تطوعهم لتنفيذ عملية استشهادية، دون الاضطرار إلى الانتظار في لوائح الاستشهاديين العادية، فحالا يتأخر دورهم عدة أشهر.

قبل أن تصل إلى أوتوستراد المزة، اقترح حسان الذهاب إلى بيت زوجتي نهى في منطقة الميسات، حيث كانت مقبلة مع الأولاد بكه طلاقاً. لم أوافق، الأفضل ألا تعلم حالاً.

ولا تنسى أنها أمه، أمرٌ حسان.

تذكرت ما دار بيني وبينها بواسطة البريد الإلكتروني قبل عام مضى. كنت متزعجاً من سامر بعد توقفه عن مراسلتي، وتجنبه الرد على رسائلي. أحسست أن هناك ما يخفيه عني. كتبت لها أسألها، أين يقضي أوقاته، فتهربت من الجواب. لم ترغب في إخباري لئلا تشاجر، كما زعمت. فألححت عليها، كان جوابها: سامر يتجنب الكتابة إليك كي لا يكذب عليك. لقد التزم دينياً، ترك شلة أصدقاءه القديمة، وصار يصوم ويؤدي الصلاة بأوقاتها، ويفكر بأداء العمرة. أنسى ألا يرعجك تدبته.

لم أستبعد أن تكون هي أيضاً قد التزمت دينياً. هنا ما تراهي لي وقتها، ولم أكن وافقاً تماماً. حسب اعتقاداتها المتجددة، بشأن تربية الأولاد، صار الدين برأيها يشكل حماية للشبان من الفساد. هنا ليس ضد اعتقادي، لكنني لم أكن متحمساً له.

نهت نهي أفكارها التقدمية عن الوازع الأخلاقي الذاتي، وخالفت دعواتها التحررية الناعمة إلى حرية المرأة، لتضمن عدم فقدان ابنتها مع وفاة متحررة من اللواتي كانت تدافع عنهن، وكانت في زمن مضى واحدة منهن، وتشهد الندوات وتوقيعها العرائض الموازية للنساء المظلومات ومشاكساتها للرفاق في المناسبات جرأتها في الدفاع عن بنات جنسها.

مخاتلتها الأخيرة هذه، كانت عينة لما تردت إليه علاقتنا في مراحلها الأخيرة، وأدت إلى انفصالنا. عشنا المرحلة نفسها، وأصابنا الهزيمة ذاتها، ففيما تجاوزتها وأعدت بناء نظرتي إلى العالم بكثير من اللامبالاة والتساهل، عاندت هي، وحافظت على

بعض الثوابت التي سرعان ما تنكرت لها، ثم حورت بعض الأفكار عن التفاليد والتحرر، أضاعت إليها نسخة محسنة من إيمان ميتكر لا يمكن فهمه إلا على أنه مزيج من النموذج التلقيني الدارج للعبادات، من دون تمحيص ولا تعقل، مع مقدر لا بأس به من الانفتاح السخي على الغيبات بتلام مع طوابع الأبراج والحفظ وتفسير الأحلام، ولمسة روحانية تنسجم مع الشعرات الشائعة عن الجن والعمارة، من دون التحلي عن ذلك الشطط النسوي لحقوق المرأة، والذي كان في حقيقته رغبة عارمة في التسلط على الرجل والسيطرة عليه، بدعوى إعادته إلى حجمه الطبيعي. كانت النقطة هائلة، والخطر في مجمله خطياً متافراً، ومع هنا تمكثت من التوفيق بين عناصره على أنه الأسلم، من ناحية أنه لا يهمل شيئاً على الرغم من الإكواء الرجعي المحلي المنفوخ والفتح، لإيمان اعتدائه بعناية، وأنها متأسراً، لم يتناقض مع تنوعات تقلباتها العروعة. ومثلما لم أفهم تحررها من قبل، هالتي تزمتهما من بعد. كلاهما كانا طوع مزاجيتهما كمتاخلة، ثم كزوجة، وبعده كام.

استعدت سؤالاً طرحه عليّ سامر قبل أكثر من سنتين، عندما كنا ننشئ في الحقيقة المجاورة لمتزنا عندما سألتني:

«أي، هل تزامن بالله؟».

بالخشي سؤالي. لم يكن الله وارداً في أحداثنا على الإطلاق. ألتصني وجهه المضرج بحمرة الخجل أنه كان ويكل برابطة عاتفاً عليّ من عذاب النار. تلمست هنا بطرافة في وقتها، ولم أرد إغضابه. لم يكن لدي تساؤل حول الله، سواء كان موجوداً أم لا. مع أنه في

المفترسة الثابتة، شكل أكبر مأساة واجهتها في مطلع حياتي، كانت مسألة عالم بلا إله، حيرني الشاقة وعفاني المرير، كادت أن تدمر كياني الهش ومراهقتي المضطربة، لولا أن انتهت فصولها في العظلة الصينية قبل دخولي الجامعة، بعدما استولت عليّ فكرة موت الله، المقولة التي اكتشفتها متأخراً عن الإعلان عنها قبل قرن من الزمن. أذهلني أن الله كان قد شُح إلى شواه الأعمى عدة مرات، كفكرة بالية عديمة الجدوى، تجاوزها عالم تحكمه الحتمية وتتلاعب به المصادفات. لم يكن العلم سوى محاولة ذؤوب لتفسير ما لا تفسير له، ربما يساعدنا على الالتحاق بالمستقبل. سيطرت على عقولنا فكرة أننا نعيش في عالم متخلف، ولا وجود لله إلا في عقول بشر يؤمنون بالغيبيات، وربما يراجهون هذه الحقيقة، لا بد من مضي بضع سنوات. بعدها لا مكان له إلا في المناطق النائية من الريف، هناك يتخذ شكل شعرة ما تضاف إلى ما سبقها من شعرات مشابهة.

لم تكن مسألة تعميم موت الله سوى مسألة وقت.

سؤال سائر كان مرتبطاً بما كنت أعمل عليه من دراسات حول الصحوة الإسلامية والجماعات المتطرفة، وغفلتُ عن سهو لا عن سوء تقدير، أن الله سدد لنا ضربة قاصمة قبل سنوات، لم يهزنا فحسب، بل وطردنا من الحاضر والمستقبل، وأصبحنا جزءاً من الماضي غير المجيد.

لم يدهشني سؤاله ولا أبقظ في داخلي شيئاً، مشاكلتي كانت من نوع مختلف، أكثر من أن أتوقف عند غيرها، أو أنكر فيها. قلت له:

وأنا لا أؤمن بشيء.

لاحظت أنه انجرح من صراحتي الزائفة، فقلت مازحاً كي لا يزعل:

«مارس تأيوك في، لا مانع لدي.»

«لا غنى عن قدر من الإيمان ولو ضئيلاً، غير متوافر لديك.»

«ليس الإيمان بل الخوف.»

اتخذ سائر موقفاً مني، وأصبح يستاء مما يعرفه عني، سواء عن عدم تديني أو استخفائي بالدعاة والمشايخ مطلقي الفتاوى في القنوات الفضائية. فلم يشأ [إعلامي] بتحويله إلا بعد تمهيد للفلا بهيظم بي.

اعتبرت تديني اعتباراً شخصياً لا تصح مؤاخفته عليه. ولا يجوز فتح نقاش حوله. فيما بعد أردت توضيح موقفني على أنه اختلاف لا خلاف بيننا، وليس بالشيء الذي يفرقنا، لكنه بقي أحد الأمور العالقة التي لا تنني تبرز بين أونة وأخرى، والتي رغبت في حلها خلال وجودي في دمشق، كي أصلح أموري معه، وأقول له ما أعتقد من أن تديناً متشوراً لا يضر الشبان في هذه السن. ولا اعتراض لي عليه على ألا يتيب العقل عنه.



فتحت نهى الباب داسة العينين. تراءى لي فوراً أن ليكاتها علاقة بما سمعته، مع معرفتي بأن أصغر الأمور تجعلها تعرف الدعوى

على الرغم من نزوعها نحو حل مشاكلها بالتصادم مع الآخرين. فاجأني بأنها كانت تبحث عني، اتصلت بي عدة مرات حتى ظنت أنني أجيء قديمي إلى دمشق. كانت قلقة، سامر لم يعد البارحة من اللاذقية، لكنه اتصل صباحاً وسأل عني، أصر على عدم قول شيء، إلا بحضوري، يردد الكلام معنا جميعاً، ثم اتصل قبل قليل ثانية ووعد بمعاودة الاتصال. انشغل بالها، تلمحت في لهجة نبرة غريبة لم نطمئنها؛ قلب الأم دليلها.

هنا ما كانت تزعمه دائماً، هذه المرة لم تخطئ.

طلبْتُ منها أن تهدأ، ثم التفتُ إلى ابنتي ندى وتمسدت معانقتها لأهس في أذنها ألا تقادرنَا، وكانت مستعجلة على الذهاب إلى الجامعة. استغلت زوجتي انتظارتنا للمكالمة لتلومني على إهمال سامر الذي تمرد علينا احتجاجاً على انفصالنا. تمنيت أن يكون حزرها في محله. لم أقل لها إنه كذب علينا بشأن الرحلة، وأن الأمر لو صح كلام الضابط، أسوأ مما تتصوره بكثير. انشغلت عنها بما سوف أقوله له، على الأقل معرفة مكانه بالضبط، والطلب منه والعودة فوراً إلى دمشق. لم يطل الوقت عندما رن الهاتف، تكلم سامر مع أمه، ويبدو أنه قال لها إنه سيسافر لفترة طويلة، فاستغربت تصرفه من دون فائدة. ثم تناولت السماعة لندی وكانت مضطربة.

تكلمت ندى معي، ثم أعطتني السماعة ولم تكن أقل من أنها اضطرراً ولا استفزاً.

«أين أنت؟» بادرته.

جانني صوته رصيناً:

أمي، سأصارعك، خلال فترة وجيزة سأكون في العراق، مجاهداً مع إخواني المسلمين ضد الاحتلال الأمريكي، أتمنى أن أموت شهيداً. كن إلى جانب أمي، وعسى الله أن يهديك سواء السبيل. اعتنيا بندي وتلرعا بالصبر.

لم تكن المفاجأة كاملة، ومع هذا كانت الصدمة مروعة، أدركت أن سائر اشترط الشهادة في المباينة. دهمني الدوخة، وكادت الساعة أن تسقط من يدي. تماسكت بصعوبة وأصررت على سؤالي:

«سائر، اصغني القول، أين أنت؟»

تابع كلامه بسرعة وبالتصميم نفسه:

«إنا وصلكم عبر موتي فلا تيكوا علي، ولا تقيموا لي عزاء، هنا من البدع.»

وأغلق الهاتف. تفصفت فدماي. استندت إلى الحائط، ونهالكت فوق الكتبة، وقبل أن تأخذني الأفكار، خرج صوتي متحسراً:

«سائر سينهب إلى العراق.»

لم نشأ أن نفهم ولا أن تصدق ما سمعته مني، وكان عقلها اختلّ. أعادت وهي تشرق بدموعها ما قاله لها قبل قليل. رجاءها أن تتحجب هي وأختة ندى وألا تصافحا الرجال، ثم طلب منها أن تمنحه رضاها، وأن تدعو له بالتوفيق. وعندما استفسرته

مستغربة طلبه دعواتها التي لم تمنعها عنه، قال لها، احتصمي بالله،
 إليك والبكاء، رضاك طريقتي إلى الجنة.

نظرت إلي متسائلة. قلت لها:

«لقد اختار طريقاً آخر إلى الجنة».

صباحاً كنت في طريقني إلى الجزيرة عن طريق ندمر، الطريق أطول مما قدرت، واللباس تمطل، توقفتنا ما يزيد على ساعة نترقب، بينما كان السائق ومعاونيه يحاولان بشتى الطرق إصلاح العبرد، أو استبدال نشاط المحروحة، وربما أعطال أخرى. دخلنا مدينة دير الزور بعد العصر، تناولت شيئاً يشبه الخبز واللحم في مطعم مفتوح للذهاب. تاهت بعدها إلى مدينة البوكمال القريبة من الحدود. تناهيتني عشرات الاحتمالات، تراوحت بين السهول والأسوأ، جهدت مستغلاً الوقت الضائع في ترتيب أفكارتي، لكن الساعات الطويلة من الإرهاق والملل على وقع الهدير الخافت والرتيب لللباس على مدى مئات الكيلومترات، كانت كفيلة بنشيت ذهني أكثر مما هو مشتت على طريق كان قاحلاً وسقيماً. في كراج البوكمال، لم أنتظر الميكروباس المخصص للنقل إلى قرية الدواسة، استقلت سيارة أجرة. بعد مضي نحو ثلث من نصف ساعة وصلت إليها.

كانت الدواية المتاخمة للحدود السورية العراقية، أحد المراكز السرية لتجمع المتطوعين الراغبين في الجهاد، يقوم المهربون بنقلهم ليلاً في مجموعات لا تزيد الواحدة على أربعة أو خمسة أشخاص بعد تأمين مسالك موعدة إلى الطرف الثاني من الحدود، أحياناً لا يطول انتظارهم أكثر من ليلة أو ليلتين، وأحياناً أخرى يزيد على أسبوع، ذلك يعتمد على رقابة دوريات الجيش وتغير الأحوال السياسية الإقليمية والدولية. وهنا ما زود الضيعة بسعة وطنية عروبية كانت جديدة بها خلال الانتداب الفرنسي عندما أوت رجالا الحكم الوطني وسهلت تهريبهم إلى العراق. أما اليوم فبالإضافة إلى النخوة والشهامة، كان التهريب مورداً لعدد متواضع من المال، يُستغنى عنه بعض الأحيان لوجه الله.

من بعيد لا تتميز قرية الدواية بعلامة فارقة عن بقية القرى التي مررت بها، وإن كانت تمتد على رقعة واسعة بدأت تتضائل مع تسلل العنفة. دخلتها مع غروب الشمس. في ساحتها الصغيرة أقام نصب تذكاري بسيط، بنا مهجوراً، ملامحه غير واضحة، ولا معننى به، بضعة أحجار على شكل ماء، ربما كانت رمزاً للفلاحين، أيام كانوا مع العمال بشكلان عماد تحالف قوى الشعب، أو لشهيد من حروب ١٩٦٧ أو ١٩٧٣. تتفرع عن الساحة بيوت واطلة تمتد محاذاة بعضها بشكل غير منتظم على طول دروب مفتوحة على حقول القمح وملفات متعرجة تؤدي إلى مفيى صغير أو مضافة، ودكاكين معنة فارغة لا تبغ شيئاً، الباعة على قارعة الطريق يجلسون على كراسي منخفضة، ألقبت عليهم السلام، فردوا عليّ بهيمية، تبعوني بأعين نصف مفتوحة، ونساء رغم ما يبدو عليهن من انشغال كنّ يرفقن بحدة، برصدن وجهتي لئلا يفتنهن الياب الذي سأطرقه.

بضعة صبية يلعبون في فسحة خالية، سألتهم عن بيت المختار، دلوني عليه. كان واقفاً أمام الباب بانتظاري. رحب بي بشكل زائد ومنفر:

«جئت في وقتك».

كانت الغرفة المنقشفة الأثاث، الأشبه بديكان لا مكتب، مقر المختار، في الزاوية طاولة صغيرة من الصاج، عليها أوراق وعدة أبحاث، وكريسيان من القش، وإلى الجدار بضعة منكآت وحشاشيا رفيعة، قمر فخاري للماء، وسماور للشاي، دلة قهوة وفاجين فوق صينية نحاسية. دعاني إلى الغداء، اعتذرت بتناولي الطعام في استراحة بمطعم بندر الزور.

في الظروف العادية، لم أكن لأرتاح إلى المختار. بدأ رجلاً مرهقاً وثقيل الدم، غير أن وضعه الحرج يخفف من قسوة تفهيمي له كجاسوس مسكين غير محترف، يجهد في إعفاء أمره، لو عرف أهالي الضبعة بحقيقة تعاونه مع المخابرات في هذه الظروف القاسية، لبيذ هو وعائلته إن لم يُقتل ككلب أجرب. هذا إن لم يكن وهو الأغلب، عميلاً للجميع، للدولة والمهربين والمقاتلين. أراد لرضائي بالإكثار من الشاي والقهوة وتأمين مكان لائق للنامة، حل عندها تنهي احتياجاتي. ظن أنه بإظهار حفاوته الصالح بها سأنتقل صورة حسنة عنه إلى العاصمة، نقيه شراً المخابرات وفرعها في المحافظة.

نصحتي حرصاً على حياتي بعدم التجول ليلاً في القرية، الأمن غير مستتب، أهراق كثير ينشطون في الظلام، تحركاتي ستثير شكوكهم، وتستفز أهل القرية أيضاً. الأفضل البقاء في المضافة،

ولن يدخل عليّ بكل ما أريد، وسوف يدعروني وجهاء القرية الليلة للمسامرة، ويؤذونني بما يجري على الحدود.

قلت له، لا يهمني ما يجري خارج القرية على الإطلاق، جئت باحثاً عن شاب عمره ثلاثة وعشرون عاماً، اسمه سامر، لا بد أن أجده اليوم وفي أقرب وقت ممكن، قبل أن يجتاز الحدود.

انخطف لونه، نهض وقال بخط مكتوم، الأمر ليس بهذه البساطة. بنا محطراً بأمره:

«أنتم لا تعرفون ما يجري، الوضع صعب جداً، نسمع القصف الأميركي بأننا عبر الحدود، لدينا أولاد عمومة هناك. الحرب تلوح داهل بيوتنا، النفوس مهتاجة، صباح اليوم وصلنا خبر عن استشهاد شاب من الضيعة غاضبنا قبل أقل من شهر».

«تصرف لماذا أبحث عنه، بل ومصرّ على العودة به معي؟».

«ما أفتراني؟ أنا لا أتحمل، ولا أريد أن أعرف؟».

«سأقول لك، أنا غير مكلف بالقبض عليه، هذا الولد ابني».

فانفجرت أساريره:

«إذا كان هنا، فستجده. حسب علمي، لم تخرج أي دفعة من المقاتلين البارحة، الدروب غير سالكة حالياً، ولا في اليومين التاليين».

سمعت نقرأ عاقلاً على النافذة، انسحب من جواربي، أمام الباب

تهامس مع شخص أعشى وجهه. ورجع مضطرب الملامح، قال:
 «لا بد من ذهبي إلى العزاء، يريدون الاستفسار مني عن تكونه».
 «سأرافقك».

لم يبد اعتراضاً، ونبهني ألا أشير لمن أرسلني، وأن أتحوط في الكلام.

اتخذنا طريقنا في العتمة، أشباح تمرق بسرعة على مبعدة منا،
 وخيالات تحلق إلينا وتلطف في الظلال. بعد خمس دقائق من
 المشي المتحرر وصلنا إلى زقاق لا يلفت النظر، لا عزاء ولا مشايخ
 أو تلاوة قرآن. أمامنا باب موارب والغر عاثت بمور في الظلام.
 دفع المختار الباب ودخلنا، فوجدت بفسحة واسعة مشرابة
 الأطراف تملج بالبشر، عثم عليهم السكون. ألقينا السلام على
 الجمع، أفسحوا لنا مسراً ومكاناً، جلسنا صامتين. الإنارة خافتة
 جداً، شموع صغيرة مبعثرة على الأرض في الأرجاء القريبة
 والقريبة، يترجرج لهاها الضئيل وتكاد أن تنطفئ، وبهيمس سجاثر
 نضيء رؤوساً مطرفة ووجوهاً حزينة تلفها سحب الدخان. تذكرت
 أن الكهبرياء لم تكن معطلة في بيت المختار، والبيوت كانت
 مضاءة في طريقنا! سألت المختار، فقال لي إن أهل الشهيد
 يتحاشون جلب أنظار رجال الأمن إلى عزائهم.

بعد أن اطمانوا إلينا، أخذ المشهد بالتبدل، تنامي من المعنى
 المرتعش بالظلال صوت المفرد يملو بصوت هاس: «كُلْ نَفْسٍ
 ذَاتِ لِقَاءِ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تَرْتَلُونَ أَمْجُورًا كَمَ نَوْمِ الْبَهَائِمَةِ لَمَنِ زُجِرَ عَنْ
 الذَّارِ وَأُذْجِلَ الْجَنَّةَ فَغَدَّ فَازًا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُودِ».

على أطراف الغناء انتصبت الأشجار، وتسللت مع النسيمات الحارة من خلفنا أصوات نشيج ونواح وبكاء مكتوم لثناء وصية، يخالطها لطم ورتاء، يتعالى تارة وينخفض تارة أخرى، كان قادماً من الأسطحة المحيطة للبيوت المجاورة.

لم يطل الوقت عندما برز من بين الأشجار ملثمون مسلحون، تبعثروا على الأطراف، أحاطوا بالمكان وخرهبوا طوقاً حول المعزين. بعضهم برزت لحاهم الطويلة من تحت اللثام، يرتدون الجلابيات البيضاء الطويلة وقرنفها معاطف قصيرة كاكبة أو سوداء اللون.

اننان من الملثمين أصبحا على مقربة مني، وقف الأول إلى جواربي، وتابع الثاني من خلفي واقترب من المختار وهمس في أذنه، فقام من كرسبه وذهب معه، وقفا بعيداً، انضم إليهم رجل آخر، واحتدم نقاش. أدركت أن الأخير كان قائدهم. الحديث يدور عني، المختار يشير إلي، القائد يستمع ويهز رأسه، ثم تركهم وتوجه نحوني وجلس إلى جانبي. أرغى اللثام عن وجهه. كان شاباً في العقد الثالث من عمره. تأملني:

«من أين الأخ قادم؟».

«من دمشق».

«ما الذي جاء بك إلينا؟».

تلكأت قليلاً، بدت فرصة تهبأت بسرعة لم أتوقعها، لم أتردد في التناطح. فسارعت إليه:

«ابني لديكم، جئت...».

لم أتابع، لمعت عيناها باستغراب، فقلت:

«جئت كي أودعها».

«من يكون ابنك؟»

«سامر...».

«لا تكمل، نحن لا نستعمل هذه الأسماء».

أخرجت من جيبي صورة سامر. دفعتها إليه، أخذها، تناول الشمعة المشتعلة القريبة منه، وتأنى تحت لهبها. نرس مدعوشاً:

«أخوتنا سامر ابنك!!».

احتضن كفتي بيديه، ثم ربت على كفتي واحتضن:

«سامحني يا عمي، نحن لا نعرفه بهذا الاسم، لا تذكره أمام أحد. الحرص واجب».

أسعن النظر إليّ منقأً في وجهي، فخيلت للحظات أنه سينقل إليّ عبراً سبياً، لكن تبدى الحبور البريء في عينه:

«أكرمك به الله، مثلما أكرمتنا. ابنك شاب تقي عظيم الإيمان قلّ مثله».

وأشار من بعد إلى رفاقه الواقفين متابعين، كانت إشارة بالهدوء لم

يطل الوقت عندما اشتعلت الأضواء، وأتبر المكان وبان الحضور
واجسين.

تقدم من بين الملتصقين رجل يدين معتدل القامة، أسقط اللثام عن
وجهه الممتلئ، وبان بلحية قصيرة وشعر أبيض، هتف بصوت
عال كي يصل صوته إلى البيوت المجاورة:

نحن لسنا في مأثم، نحن في عرس الشهيد.. كفكفوا
دموعكم.

فخفت صوت البكاء وانقطع.

من يستشهد في سبيل الله يقام له عرس لا عزاء. أخفوا الحزن
وأظهروا الفرح. إذا كنا نقيم الأعراس لمن يرف إلى نساء الطين،
فالأولى أن نقيم العرس لمن سيكون مأواه الجنة، والحدود العين
نصيه.

يا أم الشهيد، اسمي عبرتك، الله حقق أمنية ولدك بالشهادة.

سكت قليلاً، ثم أخذ نفساً، وعلا بصوته منشداً، رفاقه خلفه
يرددون وراءه:

ليك إسلام البطولة كنا نفدي الحمى، كنا نفدي الحمى..

ليك واجل من جماننا لعزك سلماً.. سلماً.. سلماً..

ليك إن عطش القوا مكب الشباب له الدعا، ليك ليك ليك..

أعدت أتأمل الوجوه، لم ألمح سمر بينهم، قلت للشاب:

«أريد رؤية أبي».

«اجتاز الحدود قبل يومين».

«اتصل بي البارحة، قال إنه لم يقاتر بعد».

«قالها للتضليل، عشي أن يكون الاتصال مراقباً».

«أصدقني القول».

«أقسم أنني لم أكذب عليك».

كانت الحساسة قد أعدت المشددين:

حنا شباب التوحيد ما نخشى من التهديد، حنا شباب التوحيد ما
نخشى من التهديد..

بن لادن صفر الجهاد، جيك بلقي مو عادي، بن لادن صفر
الجهاد، جيك بلقي مو عادي..

بو مصعب ولد النشمية، سمحي صوت... بو مصعب ولد
النشمية، سمحي صوت....

بو مصعب نازرو رجالك والبحرا العظيمة مالك.. حنا شباب
التوحيد ما نخشى من التهديد

أتمتت بضيق كبير، كنت غصبي. قلت له:

وإذا لن أراه أبداً.

وعلم هذا عند ربك.

وبعد أيام سيهلني خير موته.

والأعمار بيد الله.

أسامة بن لادن يا مرعب أميركا.. بقوة الإيمان وسلاح أميركا

دعونا أميركا.. دعونا أميركا..

طيارة مدنية، برج التجارة صار كومة ترابية، برج التجارة صار
كومة ترابية

ولا تزعل، انظر إليهم، هؤلاء أموت، أموت في الإيمان والإسلام،
هذا الذي بنشد أردني جازنا من عمان، والباقون بينهم ليس
وسعوديان وجزائري ومغربيان ولبناني، سيقتلون الليلة بعد ساعتين
إلى العراق. كم هم مسرورون، أتتني لو أغادر معهم، لأنهم لن
يعردوا، هذه حفلتهم أيضاً، وعرسهم، عرس الشهيد.

إن قالوا إرهابي، قلت الشرف لي، إرهابنا محمود.. دعوة إلهية،
إرهابنا محمود..

أميرنا الملا عن دينه ما تخلى، كل الجود ياها أرواحهم لله.

الله أكبر

مينا.. مينا.. الجهاد.. الجهاد.. الجهاد..

أردت أن أضجر باليكاه، لكنني حبت دموعي، تركتها ليوم قادم،
لن يطول موعده، عندما سأبكي كثيراً.

«عسي، افخر بابنك».

«ابني ذهب ليتحر».

«ابنك ذهب لئال الشهادة. افرح ولا تحزن. اصبر، إن الله مع
الصابرين».

«عندما تصبح أباً، واسني بهذا الكلام».

«سأقول لك شيئاً، لكي أطمعك فقط، لن يقوم بعمل
استشهادي».

«ما أتراك؟».

«اليوم وصلنا خير عنه، الله أعده لمسؤولية أكبر».

يا قاعدي سحقنا المدفع والأريجه. يا قاعدي يا قاعدي..

سبنا الدم فبخرنا الموقع على الأمن، على الأمن، على الأمن..

حرقوا الأبار حلوني استشهادي، استشهادي..

يا قاعدي سحقنا المدفع والأريجه، يا قاعدي يا قاعدي..

أدركت أنه يقرون علي مصيبي، ويحاول التخفيف عني، ماذا
تكون تلك المسؤولية سوى أنه سيفجر بجسده حاجزاً أميركياً، أو

مبنى لحزب عميل، أو مخفراً للشرطة... كنت بالأساء، لم أنه بكلمة.

والأميركي لا ترحموا، الأميركي لا ترحموا..

بالله لا ترحموا.. وبالله لا ترحموا وبالله لا ترحموا..

الأميركي لا ترحموا.. الأميركي لا ترحموا.. أرجوكم لا ترحموا.. بالله لا ترحموا.

نهض، الحفل انتهى، ارتدّ الجمع صامتاً، اتخذ الشبان طريقهم نحو الباب المفتوح على الخلاء وسواد الليل.

أغصان الأشجار تتمايل خلف السور، المعزّون ينصرفون متفرقين، وأهل الشهيد يتقبلون العزاء وهم يحسون دموعهم، المقرئ يختم تلاوته بالدعاء للشهيد.

استمررت بعد لحظات، كنت مع أمير الجماعة!! حاولت اللحاق به، كان قد انغضى مع رفاته في الظلام.

لا تكشف معنى بعض الأشياء الصعبة بنا إلا بعد كارثة، تخلف الفجعة في دماغنا والدمار من حولنا. لم يشكل سائر بالنسبة إليّ الابن الذي يحمل اسمي، أو الابن الذي أنا مسؤول عن رعايته. إنما هو قطعة لا تنفصل عن روحي. كانت أمني أن أراه يتفتح وينمو ويمضي في الحياة حاملاً معه قدراً من المبادئ لا معنى للحياة من دونها. هنا ما نعتبه في مرحلة التوقعات الكبيرة، حينها كانت الآمال بالحجم نفسه، بل وأكبر. أمني لم تتحقق، وكانت من جملة إحباطاتي السعيدة.

كنت واحداً من الذين عاشوا عددة التوقعات الكبيرة، وكانت في نهاياتها التي امتدت دون طائل. أثمرت تمنيات حسنت فيها الخسائر على أنها خسارة عارضة. لم أعلم أن مشروع حياتي أعيق، أو شارف على الانتهاء، اعتقدت أنه تعثر أو انقطع مؤقتاً، وما تحدث ليس أكثر من ارتكاسة ستنهض لا محالة من بعدها أوفر

عزيمة، وأن للجماهير عودة قريبة إلى الساحات والشوارع، ربما تشرذم الطليعة دورها وتميد تجميع صفوفها، لتفرد المسحوقين من جديد إلى هجوم معاكس، أو شيء ما على سؤال ما حقتنا به الكتب المتفائلة الحمراء. كان من المستحيل أن نُقيم ما حدث إلا على أن طهرانية الثورة قد تعرضت للخيانة.

وكان لا بد من مضي بعض الوقت لتتروعب أن الجماهير مسيرة وغير مخيرة، وأن التاريخ يعاكسنا إن لم يكن ضدنا. كانت هزمتنا شاملة وعالمية.

ثلاثة زمن، كان هروباً من ثوابت راسخة إلى ارتدادات انقلابية عشوائية، كانت درساً متأخراً أتروكت بعده أن الحرية أثنى من الخبز والعدالة، وأن التفاوت بين البشر حقيقة نهائية، ينبغي أخذها على محمل الحقيقة، لكي تحافظ الحياة على سيرها بطريقة مجحفة لللا نسط في الأحلام السعيدة والطموحات المسعورة. وأنا ما دمتنا من القطيع، علينا ألا نستفوي بالمساواة، وأن نعيد الاعتبار للاستغلال، بل وأن نؤمن به، وحنه يمنح العالم عصوته الفاسدة وحيوته الرعناء، لا سبيل أمام المغلوبين سوى التحسر والحسد، أو الجريمة والانتقام.

لم أكن مستاء، بل راضياً عن فكرة أن سائر لن يتكذب عناء ارتداد طريقي، ولن يعيد الكرة. كان علي وشك التخرج من كلية إدارة الأعمال وعلى عتبة ممارسة مهنة تعد بحياة عملية ناجحة. حتى أنني عندما علمت بأنه كان علي علاقة عاطفية بفتاة تصفوه بأربع سنوات لم أعترض، المهم ألا يقتضي أثري في السياسة، وأن يختار مستقبله دونما أفكار مسبقة. وعدته بعقد خطبته عليها

عقب التخرج، أما الزواج فيعده بستينين، وربما نجهز له بيت الزوجية. بعدئذٍ لم يفتحتني بالأمر. كان يفكر على نحو يختلف عني، أراحتني عدم طموحه إلى أن يكون نسخة مني، وطمأنني أكثر توفقه إلى الانطلاق بعيداً، لكنه ألزط فيه إلى حيث لا يمكن تخيل أين شط به الهواد. المفارقة أنه تابع مشواري المشووم نحو الهدف نفسه: إنقاذ العالم؛ لكن على نحو آخر: إنقاذه من الجاهلية!!

كان ينبغي ألا أدعه للأعرجين.

إثر سقوط قضيتنا، لم يخطر لي أن ما جمعتني بنهي سيرفتي عنها. أمنت نهي بحاجة إلى خصم، فكنت أنا رقيبها السابق خصمها الجديد. الهزيمة نكأت أسوأ ما لديها من طباخ، فضخم إحساسها بفتاتها، وبالفيت بقدراتها. باتت استقلاليتها لا تمس، وعلى حساب استقلاليتي، كانت تعرض على كل ما أقوم به، وترفض مشاركتي بأي شيء. كانت رغبها في الهزيمة بلا حدود. لم أصطدم بها إلا بفعل تغاقم ترهاتها، ما أسهم بتحويل حياتي إلى مجموعة سخافات، وكانني أنا المسؤول عن نكساتها، عرضت عنها يوساوس نائية... بالتشكيك في تصرفاتي، واتهامي بأنني غير أهل لممارسة دوري كزوج وفاضل كآب، ورجل بلا مستقبل، في حين كان كلانا بلا مستقبل. كنت مطالباً بتفسير ما أفعله وتبريره، بينما كان ما تفعله لا ينطرق إليه الشك، ولا تجوز مناقشته.

بداية، لم أهتم كثيراً للتفاهم معها حول هذه الأمور، كان ممكناً تأجيلها، واعتبرتها مشكلة بالوسع تذليلها. لم أعتقد أن إعادة النظر

في حياتنا الزوجية قضية عاجلة، فأعملتها، وكان من الممكن التظلم على تغلباتها بمسيرة تغيرات بدت أسيرة ظروف عابرة، ولا عنية في الاستمرار معاً بفعل ما كنا نحمله من أفكار مشتركة وإن أصبحت سابقة، تحول دون انفصالنا، كما لم يعد سامر وحيقاً، كانت أخته ندى قد جاءت إلى عالمتنا، وبعتت فيه رغم الاضطراب، الكثير من الرقة.

كنا بحاجة إلى ترميم ما أصابنا من وهن في داخلنا. لكن خلافاتنا الشخصية استفحلت مع الزمن، وتعمرت حتى لم يعد هناك مشاكل غيرها، ولا حل لها، هل هناك حل لأمر مختلفة لا قيمة لها ينتج من جرائها شجار صاحب لا تنورخ فيه عن تمزيق بعضنا بعضاً؟ لم أعد أنا، وإنما شخص غيري، رجل مستلب يعاني ليل نهار من مشاكل نائمة صارت مستحكمة وتهددني على الدوام، مشاكل باتت أقوى من السياسة والأيدولوجيات والديمقراطيات والليبرليات... والتحويلات بأنواعها، حتى وصلنا إلى طريق مسدود، وتفوق صراعنا المستعصم والسخيف على صراع الطبقات. لا يعني هذا أنني لم أحس بالخطر فيما بعد، وأبذل جهداً لإصلاحها، لكنني كالمعتاد أخفقت، لم يتنازل الواحد منا للآخر ولو قليلاً. من قبل لم أتمكن من إقناعها بأن تكون زوجة عادية، مثلما من بعد لم أحاول مناقشتها باعتباريات باتت مصيرية. وإذا كانت قد تغلبت علي، فلأنها تاجرت بمشاعرها الأمومية واستطاعت أن تنتزع مني سامر وندى، وبسحق لإرادتهما، كنت الطرف الخاسر.

في فرارة نفسيها، كنا قانعين بما وصلت إليه حياتنا من عدم وفاق. فلم تفاهم على شيء، قدر تفاهمتنا على هذه الخطورة. لم نطلب

الطلاق عموماً من كلام الناس، مع أننا كثيراً ما سخرنا من هذا التعبير. لم تتوقف خلافاتنا، رغم أننا حافظنا على علاقة مطبوعة، كانت خارج العقل أحياناً. لكن بعد مضي الوقت نزلت هي على العائق الاجتماعي، وأنا على العائق النفسي، ولجأنا إلى المحكمة الشرعية، واعتدنا أسرع السبل انفصلاً، ولفظنا كلمات المخالعة، أبرأتها وأبرأتني من جميع المقابيل العادية، لكننا لم نبرأ من المقابيل الأخرى، وما كان أكثرها.

بعد انفصالنا رسمياً، كثرت نهي حياتها لولديها، مع أنها أصبحت في سن الرشد، ولم يعرفنا بحاجة ماسة إليها. ولقد أحس سامر وتدي بالارتياح لوضع حد بالطلاق أخيراً لخلاف لا نهاية له يدور بين شخصين عزيزين عليهما يتشاجران حول أفضه الأمور لساعات طويلة وبلا جدوى.

المصيبة بعد عودتي من الدواسة، كانت في إبلاغ نهي، أن سامر غادر إلى العراق فعلاً وهو الآن موجود هناك، وأنا الأب لم بعد لدي ما أفعله. أما هي الأم، فحالها أفضل مني، نستطيع أن نضع رجايعنا في الله، طبعاً لن أقول لها إنه لا جدوى من دعواتها، لأن الله هو الذي اصطفاه للجهاد.

كان وقع الخبر عليها سيقاً جنناً، قلب شكوكها إلى يقين. لم أرها بهذه الحالة السريعة من قبل، تنصرف بهيئة مغبنة. فحينئذ كانت كبيرة، أكبر من أن تتحملها، لامست الجنون وهي تلوم نفسها. لم أشتت بها مع أنني كنت راغباً في ذلك، سامر كان تحت رعايتها وتقواه تحت إشرافها. خشيت أن تفقد رشدها خلال نوبات ثوراتها، أو ترتكب حماقة وتؤدي نفسها، اضطرتُّ

إلى البقاء إلى جوارها طوال النهار، رثما عادت ندى من الجامعة
وشاركت أمها البكاء.

بات من العبث أن أعتبر للضابط مدير الفرع عن مكثوناتي. لم يكن ابني بالنسبة إليه سوى أحد المطلوبين الفارين. لن يتحسس مشاعري بانعدام أي أمل لدي برؤيته، ربما إلى الأبد. أو يتفهم مأساتي بفقدانه بالموت، وهو ما يزال حياً!!

قلت له باختصار، بأنني وصلت متأخراً إلى الدواسة، وعدت عائباً، وأنهيت كلماتي القليلة بكلمات أقل:

«لن أتهدكم، أو أتهد نفسي».

كان كل ما يوسعي فعله هو ألا أحرك ساكناً في انتظار هاتف قادم من وراء الحدود، يقول لي استشهد ابنك في عملية جهادية.

تضح الضابط وتغمغم يريد أن يقترح شيئاً. لكنني قاطعته باتزعاج، وحاولت أن أعتبر له عما يعنيه ألا يكون لولدي وجود في هذا العالم.

ولن أظفر برفات له، أو فئات منه، ولا رماده.

هل كان الضابط معتاداً على احتفاء الناس من دون أن يتركوا وراهم أترأ على وجودهم؟ ربما، لكنه وجد كلمة عزاء مناسبة.

«للأسف، مخرج الأمر من أيدينا جميعاً».

لكن كان لديه الكثير مما يخبرني به، وقد اعتقد أنه على الرغم من أعباءه المروعة سأكون أكثر لرتاحاً عندما أسمعها، كانت لي أحد وجوهها بشارة سعيدة؛ سائر لن يقوم بعملية انتحارية.

«كن مطمئناً من هنا الناحية فقط، وهذا لا يجنبه المخاطر الأخرى، ما نحن متأكدون منه، أن أولوياته البقاء حياً لا مواجهة الموت».

السبب في تغير الضابط لتقييمه السابق، اكتشافه أن الإخباريات التي تعاملوا معها كانت مضللة عن عمد، بعدما وصفت البارحة إخبارية متأخرة جداً، حصلوا عليها من أحد المعتقلين حديثاً، كان كل ما يخص سائر من تحركات عبارة عن تمويه، أعدت كي تبدو وكأنها إجراءات تجنيد شاب للجهاد وإرساله إلى العراق، قد ينجح في اجتياز الحدود أو لا ينجح، وربما قتل على الطريق. هنا ما دار على السطح، أما ما دار تحت السطح فغفلت عنه أجهزة الأمن كلية.

المحتفل الذي انهار في التحقيق، باح لهم بأكثر مما يتوقعون:

بُديء بالتحضير قبل نحو ستة أشهر لبناء شبكة لوجيستية تعمل انطلاقاً من لبنان، تتخذ من سورية مقراً لها، تتوزع فيها الأدوار بين أمير للجماعة تتم مياهمته والالتزام بأوامره، ومُؤَزَّد للمال

والسلاح، وجهاز تزوير يلزم المستندات اللازمة، بطاقات هوية وجوازات سفر تغطي مختلف الجنسيات لضمان تنقلات الأفراد.

في هذه الفترة تمكن سامر من الاتصال بالقاعدة والذهاب إلى العراق والبقاء هناك لمدة تزيد على شهر، اجتمع بأكثر مسؤول عن القاعدة هناك الزرقاوي على الأغلب، وناقض معه مناقشات عقائدية وشرعية وتنظيمية، وجرى الاتفاق خلالها على تقسيم سورية إلى إمارات عمس لكل منها أمرها وهيكلها التنظيمي، ويُعتقد أنه اتخذ قرار بأن توكل إليه إمارة قاعدة الجهاد العامة في سورية.

لم تكن بشار، كانت صدمة أخرى لطاحت بصوامي، اعترافات المعتقل لم ترغني، زلزلتني على القور، سامر ضالع بشيء لا يمكن تصوره، التنطع للعب دور فهادي... إمارة سورية!! القصة غير مفعمة، سواء بتضخيم دوره، أو اتصاله بالزرقاوي القوة الضاربة لمنظمة القاعدة في العراق، من يستطيع الوصول إليه؟! هنا إذا افترضنا أن له وجوداً.

اهل تعتقد أن الزرقاوي ما زال حياً؟.

كانت التقارير الأميركية قد أكدت قبل سنوات أنه قُتل في جبال السليمانية شمال العراق عندما قصفت طائراتهم مواقع أنصار الإسلام، ومنذ ذلك الوقت أصبح وجوده موضع شك كبير.

والأباء حوله متضاربة، إن لم يكن الزرقاوي فأحد أعمامه.

بنا وكأنه لا يريد الاعتراف بأن العراقيين أكلوا أنه نجا، كي ينفي ما أشيع حول إصابته ومعالجته في سورية، لم يشف تماماً، عاد إلى العراق بعامة في مقدمه.

لم أرتب في الخوض عسوقاً بأسر الزرقاوي، كان اسمه وحده يشير الهلع. لم يُدع بالأمير الذئح عن عبث، كان المسلم الذي يقطع رؤوس المختطفين العملاء أمام الكاميرات ثبت على السلا. فكثرت أسامره، عبرته محدودة جداً، لا تؤهله ليكون خلال فترة وجيزة عضواً ناشطاً وقاعلاً في منظمة القاعدة المنتشرة في أرجاء الكرة الأرضية، لا أحد بات يجهل أن القاعدة أصبحت قاعدات: قاعدة في أفغانستان، قاعدة في العراق، قاعدة في السعودية، وأكثر من قاعدة في أوروبا، أعلنوا جميعهم الحرب على اليهود والمسلمين وتعهدوا بالانتقام من المصالح الأميركية أينما وجدت. كان البحث جارياً عنهم في أرجاء العالم. قلت للضابط سائراً:

«لا تقل لي إن سائر أصبح مطارداً من العالم كله».

ربما أصبح لابتك دور كبير في ما صار يدعى بقاعدة الجهاد في بلاد الشام».

«هبدو أنك تتكلم عن شخص آخر، ليس هو ابني وإن كان يحمل الاسم نفسه، من هو حتى يتصل بالقاعدة، وينهب إلى العراق خفية، ويقضي هناك شهراً، على أمل أن يتسلم منصباً كبيراً لا يحفل إسناده إلى ولد جامعي صخر السن».

«يظن الآباء مها كبر أولادهم، أنهم ما زالوا مراهقين».

ومع هذا كان ثمة عخل واضح في ما أخبرني به، وهو الزرقاوي نفسه، كنت أعتقد جازماً ألا وجود له. وإذا كان الكثيرون يلوّحون به، فلاستغلاله واتهامه بأشد العمليات دموية، حتى أن الأميركيين كان أنفسهم تراجعوا وأعادوه إلى الحياة، وربطوه

بمجموعات متشعبة في بفاع مختلفة في العالم مع إرهابين عرب ناشطين في الشيشان وجورجيا، أو غلبة في بريطانيا، وأخرى في فرنسا، وثالثة في إسبانيا، ورابعة في إيطاليا، وأكثروا ضلوعه في التخطيط لهجوم كيباوي، ما دعاني في العام الماضي إلى الكتابة عن حاجة أميركا وأوروبا إلى من يحل محل صدام المعتقل، ولهذا نشرنا أخباراً عن الزرقاوي الوحش المرعب الذي تهدد أوروبا بأسلحة التدمير الشامل، وليس طرفياً بساق واحدة يفر من دولة إلى أخرى لتفادي اعتقاله، إن كان ما يزال حياً.

هل كان الشخص المفترض أنه الزرقاوي بحاجة إلى سامر، فطلب منه القدوم إلى العراق؟ تشبّهة لن تجوز على الضابط، لكنه أشفق عليّ كي يخفف عني فقدان ابني، وإذا كان قد هول من أسره وقدراته، فلكني بمنحني أملاً ضئيلاً.

سامر ذهب ليقتل ويُقتل، هل هناك أسوأ من مهمة كهذه يتطوع للقيام بها شاب غريب، طيب وساذج، الإيمان قسّى قلبه، بدل أن يلبسه، أيّ إيمان هذا!



بلا تعقيدات تأجل مشروع زواجي بسناه، كان من المستحيل أن أتزوج قبل معرفة ما حلّ بسامر. هل كان موضوع لياقة اجتماعية؟ لا، كان الأمر عائداً إليّ، الزواج ولو كان بخصني وحدي، لا أريد إنهاء مشاعر أولادي، كما لن أسمح لنفسي بترتيب أموري المستقبلية بمعزل عنهما، أردت إخبارهما بما أنا مقدم عليه، وهذا ليّ أنني لو تزوجت في غياب سامر، أقطع رجائي من عودته.

عزمت على قطع إجازتي والعودة من حيث أتيت، بعد حصولي على وعد من ندى بتغطية عطفتها الجامعية نصف السنوية معي في دبي. حزمت حقائبي، مع أنني لم أقردها إلا لتوزيع الهدايا، إحنها كانت لسار، تركتها لدى ندى، كنت واثقاً أن بعصره لن يقع عليها، كانت عبارة عن ثلاثة مجلدات عن الفن المصري القديم، ماذا تكون الحضارة الفرعونية بالنسبة إليه سوى أنها حضارة وثنية!!

حاول حسان مواساتي. قلت له، لا شيء يفتح.

سناه وفتت إلى جانبي، فكرت في الطلب منها اللحاق بي بعد أشهر، على أن نعقد زواجنا عقب وصولها، لكن متى!! ليس بمفطورتي تحين الوقت المناسب. لم أقل لها هذا، كنت متردداً، وغير واثق من شيء، فقدر تقني بأني لأوجل كل شيء، بانتظار أمر ما، تميت ألا يكون خير مقتل سار.

وكأنّ نداه خائفاً يهيب بي عدم التسرع بالعودة، لكنني لم أكن لأصدق أي نداه، إلا على أنه من فعل رجائاتي، وكانت مستحيلة، ومع هذا طارعتها. وفررت البقاء على مضض إلى نهاية إجازتي. استغللت الأيام المتبقية في إنهاء بعض الأمور المالية العالقة في دوائر الدولة، تسديد ضرائب، إنجاز معاملة فراخ، الحصول على راحة ذمة مالية...

ما جعلني مصحماً على إنهاؤها، اعتقادي أنني لن أعود إلى دمشق لبضع سنوات، ما دام الخير الذي سيصلني منها لا يحتاج إلى جنازة.

عندما لم يبق سوى يوم واحد على مغادرتي دمشق، اتصل بي حسان، وأبلغني أن الضابط يريد رؤيتي اليوم مساءً.

«هل لديه أخبار؟»

«شيء أكثر من عشاء».

رائعتي حسان، كان الضابط قد طلب منه أن يكون موجوداً.

لم يكن الضابط وحده، كان في انتظاري أيضاً، ضابط أميركي برتبة ميجور يلبس ملابس مدنية، فمهياً نصف كتم أزرق اللون، سترة خفيفة وينطال جينز، أقرب إلى الطول، تجاوز الأربعين من عمره، رياضي القوام، أبيض البشرة، أشقر الشعر، عينا زرقاوان، النموذج الشائع للأميركي الكلاسيكي. يتكلم الإنكليزية بسرعة لكن بوضوح شديد، فاجأني من فرط ما كان عملياً، ودخل في

الموضوع مباشرة:

وأفتر وضعت كتاب فقد ابته في ظروف سيئة، لا تظن أنني أحمل لك أو لابنتك أية ضغينة، أفهم أنه أمر حدث بالرغم منك.

بعد أن انتهى من إنشاء مشاعره، انتقل بسرعة إلى الموضوع الآخر:

ولا أجهل سير الأمور في المنطقية، إنه ليس لصالحنا ولا لصالحكم. أنا أسف لما ترقّت إليه الأحوال بالنسبة لكلينا، علينا أن نعمل معاً ونفعل شيئاً، أرجو أن يكون جيداً، هل أنت معي حتى الآن؟.

أضمت إليه باستغراب، وكأنني أمثل الطرف الآخر. قلت يهود:

«إني أسمعك جيداً».

وأترك وجهة نظركم، لكن دعني أنظر إلى الأمور من وجهة نظري. إنها حرب عاسرة للجميع. لن نتوقف عند من هو المسؤول عن هذا الخراب. نحن نشارك في ورطة، لن أبحث نصب كل منا فيها. أعتقد أن الانسحاب يحل مشكلتنا، بصراحة هنا ليس رأيي إيلزتي، إنه رأيي. وأنا أشاركهم في نقطة واحدة: ترى من سيكون المستفيد؟ لا نحن ولا أئتم.

هذا وكأنه يتلو كلاماً محفوظاً عن ظهر قلب، لكنه ارتكب خطأ، هذا الكلام كان ينبغي أن يواجهه لمدبر الفزع وليس لي. لكنه استطاع شد اهتمامي في اللحظات الأخيرة:

وأقول لك، حسب الصلاحيات المخولة لي، باستطاعتي مساعدتك، على أن تساعدني بالمقابل، هل أكمل؟^{١٢}.

كان المدخل المتأخر مفعلاً في إنقاصه السريع، فأومات بالإيجاب، السؤال بشر بأمر ما، وكأنني مدعو إلى تفاهم، دون أن أعلم على ماذا سوف تفاهم. تسامت:

«هل لهذا علاقة بابني؟»^{١٣}.

«سمعت أن ابنك لن يكون انتحارياً ولا مقاتلاً. هل لديك تفسير؟»^{١٤}.

عطر لي ويلمح البرق، مسامحته واعتبار أن المبالغات التي أحاطت بسامر شبه صحيحة، بل ومن المستحسن إعطاؤها أبعاداً أكثر واقعية، بخصوص أن القاعدة تعتمد على الدعاية، وبما أن سامر تخصص في إدارة الأعمال - قسم التسويق، فلا بد أنهم يريدون من بروج أفكارهم وعملياتهم.

«أعتقد بسبب تخصصه في التسويق».

«هنا لا يكفي، إنهم لا يفكرون مثلنا، كما لا يكفي عدم قيامه بدورات تدريبية على إعداد المتفجرات أو تفخيخ السيارات، أو استعمال الحزام الناسف. الأمر أهم من هذا».

«سامر في الثالثة والعشرين من عمره، مؤهلاته للأسف لا ترقى إلا لما استحدثته».

«العصر غير مهم، المؤهلات المطلوبة مختلفة عما ذكرته».

«أنت تبالغ».

«حسناً، سأصارعك بماذا أفكر... أعتقد أنهم سيوكلون إلي مسؤولية كبيرة، لها علاقة فعلاً بما درسه في الجامعة، إدارة الأعمال، لكن أية أعمال؟! نحن نعرف أنهم يفتخرون إلى عقدة اتصال قوية وموثوقة تربط بين تنظيم القاعدة في العراق وسورية، منصب يحتاج إلى مقبرة على اتخاذ مبادرات فورية، وجرأة إلى حد التهور، عنا إيمان كبير بأفكار القاعدة. شاب متعلم، ذكي وصغير السن مثل ابنك كفء جداً لهذه المهمة».

«كان يتكلم على نحو مشابه لما تكلم به الضابط مدير الفرع، فاعترضت:

«لكن بلا تجربة».

«سيكسب التجربة خلال العمل، وهي لا نهم كثيراً، سيضحي به إذا احتاج الأمر، تعرفهم ليسوا حريصين على الحياة. هذا العمل يلزمه نوع متشدد من التدين، مع قدرة على الإدارة والتخطيط، أعتقد أنهم اقتنعوا به... عسوماً لا نعرف بالضبط كيف يفكرون، لكنها مجرد نقطة انطلاق».

«وما المطلوب مني».

«نحن نريده».

«صدقت لأنني أدركت أن ابني أصبح مستهدفاً من الأمر كان».

«الستم وحدكم، أكثر من جهة تريده».

أجته كي أتصف الصلعة عن نفسي، وأنا أنظر إلى مدير الفرع، كانت كناية للضابط الأميركي كي يفهم أنهم ليسوا سوى طرف من عدة أطراف.

«نحن المنعنين أكثر من غيرنا، ولا خلاف مع الآخرين».

«هل هو في خطر؟».

«إنه بوضعه الحالي، بعيد عن نقاط الاشتباك، في وضع آمن أكثر من غيره».

لاحظ صحتي فتابع:

«سأعرض عليك صفقة، سنؤمن لك السفر إلى العراق والإقامة هناك، ونبحث عنه معاً، نريدك أن تعود به سالماً إلى سورية. إنها عملية تحتاج إلى جهدك كأب».

«وما الضمانة؟».

«نريد الحصول منه على معلومات، التحقيق الرئيسي سيجري هنا في دمشق، ويقوم به محققون سوريون».

«لكنه لم يطمئني، إذا كان التحقيق هنا، فلا يستبعد أن يكون الأسوأ».

«لا تتصور لحظة أن يخون أب ابنه ويستدرجه لكي يسلمه للتصويب والموت، بصراحة: أفضل أن يُقتل».

«لن يصيبه أذى، إذا قدم معلوماته كاملة».

«ماذا لو حكم عليه بالإعدام؟».

«ستعقد معك اتفاقاً ملزماً للجميع دون استثناء، لقد حصلنا على موافقة الطرف السوري».

تدخل مدير الفرع قائلاً:

«على أن تتم العملية حسبما عخطط لها. أنت ترهب ابنك، ونحن نرهب معلومات، الحقو أمر لن نتكر له».

كان لديه تعليمات بهذا الخصوص من مصادر عليا، وهو يعمل طبقاً لها.

انتهزتها فرصة وصارحت الأمر كي:

«أنا على خلاف معكما، أعتقد أننا لنا بصدد الشخص نفسه، لدي شكوك في أن يكون ابني. ومهما كانت النتيجة، فهل يبقى قرار الحقو سارها؟».

وافق مدير الفرع والضابط الأميركي على أن الاتفاق يشملهما مهما كانت صفة سامر، مقاتلاً أو انتحارياً، وربما أميراً، وسواء كان لديه معلومات، أم غالي الوفاض منها.

«حسناً، سأفكر بالأمر».

«ليس طويلاً».

حفرني حسان، القرار ليس سهلاً، والخطر الذي سيقع عليك أكثر مما ستعرض إليه ابنك، العملية غير مضمونة تماماً، أشبه بتجربة سيقع عليك لو أخفقت دفع تكاليفها الباهظة، ثمة أمل ضئيل إذا خدمتك المصادفة. يعتقد الأمير كان أنهم قادرون على كل شيء»
 لكن إعفائهم الفروع في العراق، أظهر أنهم يتخطون وغير قادرين على شيء».

كنت أفكر بأنها فرصة لي لا تقدر بشئ، قلت لحسان:

«هل أستطيع الثقة بالأمير كان؟».

«عادة يتشيدون بما يعتقدونه من صفات».

«لكن علاقات سورية بأميركا خاضعة للمد والجزء».

«على الرغم من الخلافات السياسية، التعاون الأمني قائم بينهما وإن كان في حده الأدنى، لا تنس في هذا الاتجاه لديهما عدو مشترك. أميركا تخشى الإسلاميين، يريدون تفجيرها، ونحن نخشى من تحول نشاطاتهم إلى الداعل السوري».

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

للوهلة الأولى بدت مهمة العمر، لن أنقذ ابني فقط، بل سأنقذ غيره أيضاً، وربما بشراً لا حصر لهم، عرباً وأجانب، أغلبهم أبرياء.

عندما كتبت عن الإسلام السياسي، نُحِيل إليّ أنتي اضطلعت بمهمة إسعافية، أو عميرية... بالتحذير من خطر قادم، أو الاحتياط من حماقة مهلكة. أمنية تغالط الذين يظنون أنهم مكلفون بأمانة عليهم تأديتها قبل فوات العمر والفرصة، وهي فكرة من رواسب مرحلتي الاشتراكية المثالية، غدت في هذا الظرف مواتية لأساسي الشخصية، فبدأ لي ما أردت القيام به عملاً ذا طبيعة إنسانية تتجاوز جنسيات الأشخاص، ما دام بينهم عرب وأسر كان ولطالون وإنكليز وأتراك ونيباليون وكوريون... لن أكمل، الغطاء الإنساني ليس كافيًا.

ما الدافع الذي دار في أعصابي؟

لا، لم يخطر لي الإقدام على فعل مثالي، ولا السعي وراء مقاومة. ليس في العمر منيع لهذه الرغاية النضالية، ولا العقل يسمح بهذه الانتهازية البطولية. أردت إنقاذ شخص، كنتُ السبب، ليس في ذهابه إلى هناك فقط، بل وفي وجوده في الحياة أصلاً. ألا ينهي التكفير عن خطيئتين؟ وإذا كنت سأذهب إلى الجحيم من أجله، فغزالي أنني سأكون السبب في عودته منه.

أنا لم أقدم شيئاً لسامر، تركته فريسة لأفكار مميعة، وألا فمادام تدعى مقاومة عشوائية بهذا الهول، سيارات مفخخة، عمليات انتحارية، قتل عائلات أمة... نستمع على هذه الشاكلة الهمجية، وأصبحت تعني كل شيء لشباب في مطلع حياتهم، والتمت بعالم استخرج إليه، عالم غيبي يفتح في تمنيات الوهم. أين تقع الجنة سوى في عيالات المؤمنين؟! عندما ناضلنا ضد الإمبريالية، جاء من وعدنا بعالم أفضل. وكانت النتيجة عالماً أسوأ. لم نحصل على جنة فوق الأرض بل نحتها، في القبر، جنة العدم.



فلأخوتف، كفى.. الشرود وحده يسوّغ لي ما لا يسوّغ.

هذه الفكرة قد تطلق شياطينها.

.... كانت التفاعلات قد سحبتني من الحاضر البارد الخالي من الأحداث، وارتدت بي من جديد إلى زمن أعتاشه، وفتحت على أبوابه، زلة واحدة وأنزلتني إلى داخله، وأزجج في أتون عالم انطوى،

لماذا أسترده من الماضي؟ وهل بإمكانني التحكم بنفسي وألا أتابع الشرود نحو ما لن أفلت منه. أقول قبل أن أغلقه على ما فيه: هنا الشقاء، ولست أتكهن، انتقام من الخذلان لا من النسيان. لا أجهل مخاوفي مما أحاول تجنبه، لبت الحيلة تسعني لو خاتني الجراءة. قلت لحيان:

«ليس يوسعي الاستمرار، لا فقرة لي على تحمل خيابا الفاكرة».

«لا أفرك على الهروب. يرمدون معرفة ما حدث تماماً، تقرير الأبركان عما حدث معك في بئساد، لم يكن كافياً».

كنت قد فقدت صلة الوصل مع المشهد الذي يليه، ومع هذا حاولت:

«من كان الضابط الأميركي الذي اجتمعت به».

«الميجور ريتشارد ميلر».

«بدو أن علاقتنا أصبحت وثيقة».

«لا أتري إن كانت وثيقة، لكنها لم تكن سيرة».

«حدثني عنها قليلاً».

... زودك الميجور بجواز سفر أجنبي يحمل اسمك تحت صفا رجل أعمال أمريكي من أصل عربي، مجهز بتأشيرة دخول إلى الأراضي العراقية، كواحد من معطي الشركات الأجنبية، جاء إلى بئساد لاسترجار عقود توريد مواد غذائية للجيش الأمريكي.

أما عمل الميجور حسب علمنا، فكان التأكيد من حسن تنفيذ شركات المقاولين المدنيين للأعمال المتعاقد عليها، ومطابقتها المواصفات المطلوبة. طبعاً هنا لم يقتنعنا بسبب تنقلاته بين بيروت ودمشق وطلبه منا معلومات لا علاقة لها بهمه.

وأنت تعرف الكثير.

«لا. ليس كثيراً، لكننا لم نعلم عن مهمته الأخرى سوى نزر يسير، وكانت سرية، وهي قيادة وحدة من المرتزقة والجنود الأميركيين المدربين على العمليات الخاصة، لمواجهة عمليات الخطف واحتجاز الرهائن. أتبع لنا معرفتها مع غيرها، بسبب ما أثير حول نشاطاته من لغط، وما أحيطت به من تكتم، حتى أصبحت هناك قضية عرفت بقضية ريتشارد ميلر».

«هل لي علاقة بها؟».

«لا أظن. لكن الاتفاق معك كان مرتبطاً بهذه المهمة السرية».

لم أقل له إنني أريد أن أنسى. قلت له، أنا متعب.

ترى ما الذي تعبه التفاصيل، سوى الإنهاك العقلي لا الإرهاق الجسدي، والعذاب المقيم لا الألم العابر؟

«كانت عبارتك الأخيرة، قد لا أعود».

«لا تقل لي إنني كنت انتحارياً».

«ولم لا؟ ذهبت إلى بلد، الموت لا يحيي فيه أحداً».

«يدو أنني جازفت».

«جازفت كثيراً، كان العراق في ذلك الوقت يجاز أحلك أيامه».

عراق بلا ديكتاتور، الرئيس المخلوع صدام حسين رهن الاعتقال والمحاکمة، مهدد بحكم لا يبدل عنه؛ الإعلام، وحزب البعث الحاكم أسى مطلقاً. حرية مطلقة تحت سيطرة قوات التحالف الأمريكية البريطانية في بلد أصبح الأشد خطراً في العالم.

المقاومة التي بدأت ضد قوات الاحتلال باتت على الهامش، بعد أن أثمرت حروباً أهلية دموية يومية، السكّة ضد الشيعة، العرب ضد الأكراد، والأكراد ضد التركمان... الجميع ضد الجميع! يتدخل فيها الأميركيون والإنكليز والإيرانيون والأتراك ودول الجوار من العرب... ورجال استخبارات دول غربية لا يفتب عنهم الموساد الإسرائيلي. وبغداد العاصمة أمت تحت رحمة عصافيت السلب والنهب والخطف، بينما الميليشيات المتقاتلة المسلحة بالأحقاد والكراهية والارتباطات المشبوهة حولت البلد بالتأزر مع فرق الموت إلى ساحة صراع طائفي، يذرعون الشوارع ليلاً ونهاراً، يتبادلون النيران والكمائن وقذائف الهاون والاعتقالات. الدولة مشلولة، لا حكومة قائمة، لا مؤسسات أمنية فاعلة، الجيش مسرح، مئات آلاف المسكرين والموظفين ورجال الأمن بلا عمل. أحزاب تنمو كالفطر، بلغ تعدادها مائة وخمسين حزبا! يرغب كل منهم في التنازع الحصة الأكبر من الوليمة الثمينة، أطراف الحكومة يتبادلون الاتهامات وتدمير المكائد.

«لا، لم تكن تجهل ما أنت مقدم عليه».

.... من جانب امرء، أحسنت التصرف مع زوجتك بإحسانك الحقيقية عنها، لكي لا تأمل كثيراً، وتحدد فجيعتها. قلت لها، سأعود إلى دبي ولن أطلب غيابي. بينما صارت انتك بحصولك على تسهيلات تسمح لك بدخول العراق، ربما نجحت بالعثور على سار، وهو أمر لا ينبغي لأحد أن يعلم به. تأثرت وتعت لو تمنعت، كانت لا ترمد أن تفقدك أيضاً، فوعدها ألا تعرض نفسك للأخطار. كذلك أعلمت سناء بحقيقة سفرك.

قلت لسناء، لا تفهمي الأمر على أنني أثرت ابني عليك.

قلت، لا يحق لي الاعتراض على مشاعرك الأبوية.

فكرت إحساسي بالمسؤولية نحو ابني، ولم تكن عما اعتزمه.

هل كانت عاقبة علي؟

والذهاب إلى العراق لم يكن نزعة، حتى بالنسبة إلى جيش مدجج بالصواريخ والطائرات.

لم أنهم تماماً كنه العلاقة التي ربطتني بسناء. هل نشأت عن حب، أم عن حسابات؟ الحب عاطفة ليست منقطة ولا دائمة لمن هو في عمره، بعد تجربة زواج طويلة، أثبتت أنه إحساس مخادع لا يعول عليه، ولا الركوز إليه. وإذا كان عن حسابات، فلا أسف عليها، الحسابات نفسها اليوم تبعثني عنها، هل هذا نوع من التواطؤ مع ذاكرة مخلقة، أم أنا رجل حلوا، وتناضح على نحو
سنى؟

كانت، كما أحييت أن أتخيل، علاقة عقلانية عادلة بين شخصين يحتاج كل واحد منهما إلى رفيق، يساعده على الوصول إلى نهاية الطريق بأقل قدر ممكن من المعناء. ماذا تكون الحياة بالنسبة إليّ سوى أنها على وشك الانتهاء، وهذه السنوات الأخيرة مهما طالّت واستدّت، فلا تسمح إلا للقيام بأعمال غير مجهدّة مع فسحة من الهدوء والتأمل، تساعد على تجرّع مفاهيم ضئيلة من النكد، وعدم الاكتراث ببعض العادات السيئة التي لا غلاص منها.

كنت في منتصف عشرينياتي، في سن لا ضماناً أكيدة فيها ضد موت مفاجئ، أو مرض مهلوس منه. وما حاولت ليس إلا الإعداد لنهاية مقبولة، لا تضربها بضع تطافات لا تشغل البال، وأحزان في الحد الأدنى، وفجائع أكيدة لا بد منها، حتى لو زادت على هذه العبارات، مصاتي السابقة منجملي أكثر احتمالاً لها.

أول، وهنا لا ينبغي استبعاده، ارتبطت معها بعلاقة جنسية، أحالتها كما تقرض معظم النساء إلى علاقة عاطفية، ما دام الجنس يمرر ادعائيات العاطفة. هل كانت هذه لعبتنا، أم تقيضها؟ وإذا كنت الآن أحاول تصحيح ما سلف مني من دون تحديد، فلأنني أريد أن أشعرها بأنني لا أكره لها مشاعر سائلة، أو على الأقل أكره لها مشاعر أجهلها ولا أقدرني عنها شيئاً. سناء بدت غريبة عني، لأنني كنت غريباً عنها، ولم يكن عجباً أنها أعفقت في التقرب مني، وألمها هنا الجفاء والتجاهل، إلا إذا كان عزلها حباً بلا ألم، ليس حباً. كان صمتي حاجزاً بيننا، بل وأميتها به. لا أحس نحوها بأي نفور، مجرد أنني لا أرغب في أن تحتل مكاناً في ماضي، كي لا تشدني إليه.

لم أستطع مقاومة نظراتها الحادة، ترمقني من بعيد، وترثي لي، ما الذي فيك يستوجب الرثاء؟

«هل أنت متأكدة أننا كنا في سبيلنا إلى الزواج؟»

«لا تدفعني إلى الشفقة عليك.»

«وما الذي يجمع بيننا؟»

«كل شيء، ولا شيء.»

وتركت الخيار لي.



لم أكن مخيرة، كنت كما أحسست لحظتها، مكبلاً بذاكرة مستنعة عني، وتحامل عليّ، تُخفي وتُظهر ما ترغب فيه، وأنا أسير ما تسبح به، أو تمنعه عني.. سغبة بالنموه، وبهيلة بالوقائع. وفي الحقيقة، كنت لها بالمرصاد، وتصدت لها بكل قواي، لم أرغب في إيجاد مكان لأحد في حياتي، رغبتني الأكبر إخراج الجميع منها. دونما أي إحساس بتأنيب الضمير.

هم أيضاً كانوا لي بالمرصاد، صديق بلغ به الإلحاح حد الحق وهو يستحني على الماضي فلدماً نحو الخلف، وزوجة بحاجة إلى من يسري عنها ويكفكف دموعها، وابنة تراقيني بحيرة، وإلى جولوي امرأة تأتي كي ينفذ صبرها. انتظارهم يرهقني، أعرف لا يجوز أن يطول صمتي، عليّ أن أبذل جهداً، لا أطيع بذلك، وفي الوقت نفسه، أرغب في اختراق ما يحجب ذاكرتي عني، وأنتهي

ألا أنجح، صورتي غير مشجعة في عيوني، وإذا أتأملها... كانت ملاحظة لماسة رديئة ورعيصة، ماذا تكون غير مأساة غامضة لرجل بليد ورعديد، أصيب بفقدان الذاكرة، ولا يجرؤ على استعادتها. إلى أين تأخذني هذه الميوعة؟

لا أستطيع تحديد ما الترفته بحققهم، هل فقدت ذاكرتي رغماً عني، أم أنني اتخذت موقفاً منها، وقمت بإجراء عطلها من العسل؟ ماذا تدعى هذه الحالة: فقدان الذاكرة الإرادي! إذا كان هنا ما حدث، فلنكون دقيقاً، ليس عن سابق تصور، بل عن تصميم. لا أقول إنني سأغلب عليها، أو سأخلص منها. ليس هنا هدفي، ولن يكون. وإنما أريد معرفة ما الذي يعنيه هؤلاء الأشخاص القلقين من أجلي، لا يحلون عليّ بالرعاية، ويحملون سخافاتي. لاسيما هذه المرة التي يشق عليّ انتظارها.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الستائر مفتوحة على سماء قاتمة؛ أقبل الخريف، فصل الغيوم العابرة والأمطار المتفرقة. الإضاءة خافتة تساعد على الكتابة، لا النوم. المال هنا هو، مضطجع على السرير، نصف مريض، نصف جريح، نصف ملثات... وحيد ترعاني في وحدتي امرأة حزينة، كادت أن تكون زوجتي الثانية، لولا، لولا ماذا؟!

سعت الفراخ والوحل، والقطا مشاهد سواء جرت أو لم تجر، لا تهني، إنما التساؤل، لماذا أنا فيها؟ قلت لها:

وأنا على شفا الاعتناق. أريد أن أعرف، مهما كلفني هذه المعرفة.

«ما تحاول الهرب منه لا يستحق كل هذا التشنج، ما دم سجدت لا محالة في يوم ما قادم، ليس بعد.»

«أدرك أنني مدين لك بالكثير، رغم أنني أجهله».

قال حسان، هل تريد أن تساعدك، إذن تعاون معنا قليلاً.

«لا لأدري، لكنني سأحاول».

«قبل مغادرتك دمشق، وعدت سناء أن ترسل لها رسائل بالبريد الإلكتروني. الرسائل كانت موجزة، لم تشر إلى أشياء تلفت الانتباه، فقط لتطمئنها عنك، لم تخلف وعيدك، رسائلك احتوت على بعض الأمور الواضحة وغير الواضحة».

شجني حسان على قرائتها، ربما ساعدتني على التذكر.

جاءتني سناء برسائل إلكترونية مطبوعة على الورق، مرتبة بالتسلسل حسب زمن ورودها إليها. وضعتها أمامي، وكأنها تقدم إجابات على شخصيتها وماضينا المشترك وثقتي الكاملة بها. وهي تقول عاتبة:

«كبت رسائلك إليّ أنا وحدي».

قلبت الرسائل، وكانت مرتبة حسب ورودها، موجزة جداً، تبدأ عادة بـ«عزيزتي سناء»، وتختتم بتحياتي إلى معارفنا المشتركين، أحياناً مع تيلاتي الحارة، وأحياناً أخرى أنهيتها بجملة تعبر عن انقراضي إليها.

وكان شياً أنهى، وشياً آخر سيلاً، مهما كان نوعه، محتملاً أو غير محتمل، مؤسفاً أو غير مؤسف، لا بد أن أكتفت نحو الماضي، ولو كان مؤلماً، وأسجد تلك الذكريات، مهما بلغت مرارتها.

لن أتعب، سأضي قدماً. وإن اتفاني الضعف، ربما لأنني واجهت
شخصي الآخر، وكان متحرراً وعينياً، مصعباً وهائماً، فقررت أن
أعرف، مع أنني لم أكن بهذا العزم ولا الإرادة. عزمت على
تجاوز كل ما ظننت أنه ممنوع أو محرم، وما اتخذته مخاوف!!

لا، لم تكن لدي هذه الحسابات. ماذا كانت إذن؟

شعرت بشيء يتفجر في رأسي، كان صدقي لانفجارات أخرى،
الغام مزروعة في الفكرة، كانت موقوتة، وحلّ زمنها، تنوّلي من
حولي دون صوت ونصم أذني، ترسل الدخان، ولا تخفي الأشياء،
تخلف مشاهد ليّتي لم أرها.

لكنها لم تقادرنني حتى تحرد. إننا لماذا غفلتني الرؤية؟

الجزء الثاني

اليوم تقذف في الزمن عما جرى، وبات ما يفصلني عنه، مسافة لا تقاس بالأيام ولا بمئات الكيلومترات. عدا أنني أشحت بعصري بعيداً عنه، وظننت أنني تخلصت منه.

لم أتوقع الكثير مما تضمنه رسالتي؛ لكنني شعرت عندما قرأت سطورها الأولى، أنني هوجمت على حين غرة، وحوصرت وحيداً مع هواجس لا أدري عنها شيئاً، سوى أنها متشائمة. لحظتها تهكت دفاعاتي.

تري ما السبب المنطقي الذي تحكم بي وحرصتي على استعادة ما علي حتى عني؟ سأفترض أنه الرسائل، هذا أقرب ما يمكن الاستناد إليه، وإن كان ليس أكثر من ادعاء أدعيه، لا شيء يجعلني متيقناً، سوى أنني مضطر لاعتماد أمر يورث تورطني فيها.

المنفل، ما نجم عن فرايتها من تعلق هائل للذكريات دون
 بذل جهد في استرجاعها، لم تظفر إلى هموم قليلة، ليها كانت
 ممتدة، أحياناً بعض الأوهام، وكانت أكثر من أوهام.

رسائل من بغداد

الرسالة الأولى

(وصلت بعد الظهر إلى بغداد. استغرقت الرحلة ساعتين بالطائرة.

الرحلة مريحة، لم أصادف ما يزعجني.

نزلت في فندق الرشيد الواقع داخل المنطقة الخضراء، وهي منطقة
أمنة تماماً.

لن أطلب عليك، ليس كل ما يُشاهد ويُسمع عن الوضع في العراق
صحيحاً، لا يخلو من مبالغات إعلامية، أكثرها أقاويل وشائعات.

بغداد على الرغم مما أصابها من دمار، ستعافى قريباً.

ليلاً، عكر الهدوء دوي انفجار بعيد.

لكن لا شيء يحدث على القلق.

لم أكن صادقاً في رسالتي الأولى، المبالغات والشائعات أقل من الحقائق التي تسمى قوات الاحتلال لإغفالها.

أما بغداد فربما لن تعاني أبداً، وإذا حدث فبعد سنوات طويلة، لم تعد حاضرة الدنيا، التي قرأنا عنها، ولا كعبة المسجد والخلود، أو قلعة الأسود كما في الأغاني وبلاغات حكومات الانقلابات العسكرية، وبانات الانتصارات المنظرية، على وقع الهزائم الدورية. كانت مجرد مدينة منكوبة، والأسوأ أنها ما زالت تزرع تحت وطأة الذعر.

اضطرت للكذب، كي لا أحرك غنون سناء في الاتجاه السيئ، وكان هذا ولداً، أنا في ساحة معركة، والموت مصادفة شائعة، وأيضاً لنواع أمنية. الاحتراس مطلوب، ربما وضعت تحت الرقابة، لا ينبغي استشارة شكوك أية جهة في المنطقة الخضراء، سلطة التحالف، الحكومة المؤقتة، أجهزة الأمن، الأحزاب المتعاونة مع الأمريكان، وكانت بالعشرات، ولديها رجالها وأجهزتها السرية، وجواسيسها، لا تدري من يراقبك أو ما قد يعتقد عنك.

هذه المخاوف ثلاث سرعباً، وحلت محلها أخرى لا تقل عنها الفوضى والخوف لا يتبحران لأي من تلك الجهات المراقبة الصورية ولا الثأني، كان ما يشغلهم، اتخاذ المزيد من الاحتياطات والمبالغة في الحذر.

ولا يمكنك توقع ما قد يصيبك من جراء خطأ غير مقصود، أو ارتباك بسيط.

نهيتي المبحور ميللر، منذ عشرة أيام، قُتل شاب عند حاجز

الدخول، كان يتجادل مع الجنود، حاول إخراج هاتفه الجوال من جيبه، ظن القناص أنه سيرمي بمقنبلة، فأطلق عليه النار. قال ذلك معلقاً على منظر القناصين المنتشرين أعلى الأبنية وأرذف، أي شيء تافه قد يثير شكوكهم، ولن تكون ردة فعلهم سوى الضغط على الزناد.

كان منظرهم مشيراً، وهم يسندون فوهات بنادقهم السريعة الإطلاق، وأعينهم مشدودة إلى المناظر الدقيقة ترصد كل حركة، كت في الهدف تماماً.

كان لا بد من طمأنة سناء.



ولا بد أيضاً، وقد تذكرتها، أن أستبدعها!!

هل يوسع المرأة التي أعادتني إلى الحياة مرة، أن تعيدني ثانية؟

دهمني إحساس ثقيل بالذنب. ما الذي انتابني بعد عودتي إلى دمشق حتى نسبتها كلية؟! كان ينبغي استئازها من دوامة عاتية وفاتمة، طحتني وكادت ألا تبقي علي. هل وجدت طريقي إليها، أم تسللت خلسة إلى مواقعها في حياتي؟ لا، عثرت عليها في مكانها الذي لم ترحبه، كما تبدو الآن، جالسة على الصوفا وقد طوت ساقيها تحتها، تلمس بلوزتها الخفيفة التي اشترتها معاً من شارع الحمراء في أوائل الصيف، منهكة بوضع الطلاء الأحمر على أطراف أصابع يديها، ترفع رأسها، وتتأمل بعينين شاردتين زرقة السماء من خلال النافذة.

هذه هي المرأة التي أحبها.

تكامل حضورها في وجودها الصامت وأشياءها المحثرة في الشفة، معطفها معلق على المشجب، حقيبتها فوق الترابيزة، وإلى جوارها زجاجة المانيكور والأسيتون، وكتب وأوراق وقلم حبر جانف، وبجانب الباب حفاؤها الأسود ذو الكعب الواطي.

نهضت من مكانها، اقتربت من النافذة، ثم ارتدت إلى الصوفاء، جلست شاردة، تناولت ورقة أسندتها إلى كتاب، وأخذت تكتب. رفعت بصرها صوب النافذة، تقرأ شيئاً شَطْرَ على صفحة السماء، ثم التفتت نحوي، وتابعت قراءته على وجهي، كانت تكتب الشعر. هل ألهمتها مأساتي بشيء؟

لا أرى أشياها فقط، وإنما هي بأوضاعها المختلفة؛ في المطبخ حول عصرها المريلة، في الشرفة تروي أصبغ أزهار البنفسج، وفي السرير تشد اللحاف إليها وتتأهب.

ها هي تفت وتأهب للذهاب، المسافة تنقلص بيننا، تصبح قريبة مني، أمسكت بيدها وقلت:

«لماذا مشاعر تنقلب على النسيان».

كانت رغبتي فيها شديدة، ولم تكن رغبتي أقل.

طوال سنتين، لم يتعد أحدنا عن الآخر طويلاً، كنا على موعد دائم. أطول مدة فارقتها فيها، الأيام العشرة التي قضيتها في دبي، وكنت أتصل بها من هناك يوماً.

قبل سفري إلى بغداد بأهلي، باعنتها الوسوس، أيقنت أنها ستفقدني، كانت قد وقعت تحت تسلط فكرة أنها لم تخلق لتعيش بهناء، وأن حياتها على تضاد مع السعادة. راودها أنني مهدد بالأخطار، وأن علاقتنا ستتهي نهاية مؤلمة. لم أكن مرتاحاً لهذه التصورات ولا لهذا التعلق، كنت على وشك أن أصبح مرضياً المستعصي.

أعبرتني أنني سأرافق الميجور ميلر إلى بيروت، كي أنضم من السفارة الأميركية جواز سفر أميركياً يحمل اسمي، ضمن عملية تمت بترتيب مع واشنطن، ستوفر لي حماية أكيدة في بغداد، والإقامة في فندق مريح من دون التعرض لأي مشاعب. وتم تحديد وقت السفارة بعد نحو أسبوع، اتفقنا على ألا نفرق طوال هذه الفترة.

لكن في السفارة فوجئ الميجور باضطرابه للسفارة حالاً، إن لم يكن اليوم فغداً، إثر تلقفه خبراً عاجلاً يحثه على العودة إلى بغداد فوراً. كان يوسعي اللحاق به فيما بعد. لكنه نصحتني بمراقبته، الظروف تتغير من يوم لآخر، وقد يصبح دخولي إلى العراق مستحيلاً. فطلبت منه إنهالي إلى صباح الغد. رجعت في اليوم نفسه إلى دمشق، لملت حوالجي الشخصية في حفية صغيرة، وأعبرت حسان بما حصل، واتفقنا على ألا نعلم أحداً عن مكاني، بينما تسارعت شكوك سناء من جراء سفري العاجل، أقمعتها بأنني لم أكن أعلم به ولا مستعداً له، ومغادرتي اليوم أفضل من بعد أسبوع. ولكي أخفف من مخاوفها، وعدتها بالكتابة إليها من بغداد، رسالتي ستكون دليلاً على أنني في صحة جيدة، كي لا أقول لها، البرهان على أنني ما زلت على قيد الحياة.

في السادسة صباحاً انطلقنا من مطار بيروت على متن طائرة نقل صغيرة، بعد نحو ساعتين كانت نحلّق عالياً فوق مطار بغداد. من وراء زجاج الطائرة، رأيت نهر دجلة يشعّج شاطئاً المدينة. أحصيت ثلاثة أعمدة من الدخان، كان سببها حرائق أصابت بعض الأمكنة بفعل صواريخ أو متفجرات.

دارت الطائرة في الجو عدة دورات بشكل حلزوني استعداداً للهبوط، لم تكتملها، برج المراقبة أبلغ الریان عن تعرض مهبط المطار لهجوم بمدافع الهاون من المتمردين. فاضطر إلى تحويل طريقه والهبوط في مطار عمان بالأردن. عدنا بعد أن تم إصلاح المهبط. استغرقت رحلتنا ما يزيد على ثماني ساعات.

لم يفلح الوقت الذي أمضيناه مع ميلر بين دمشق وبيروت، في أحداث تقارب بيننا، غير أن الساعات الثماني التي قضيناها معاً في الطائرة نجحت في كسر الجليد بيننا وأحدثت تقارباً لا يمكن توقعه. كان المسجور أكثر مني إقبالاً على الكلام والإفضاء بما في دخليته. ولقد جاريته مع أنني كنت متحرزاً. انتهت رحلتنا ونحن أسدقاء، لم أتوصل إلى هنا وحدي، كان هنا رأيه أيضاً، فسره بأنه يشتر إلى صديق، جميع هؤلاء الذين يعمل معهم، اقتصر على علاقته بهم على العمل فقط، فاستغربت أكثر.

لم يُخف تقديره لجرأتي. عندما رأني في باحة مطار بيروت، اعتقد أنني سوف أرجع قبل صعود سلم الطائرة، لم يظن أنني بهذا التصميم. وإن كان إعجاباه لم يخل من تلميح، إلى كوني أجهل حقيقة ما يجري في بغداد، مطلقاً على الأوضاع فيها بأنها

أسوأ مما تُعرض في نشرات الأخبار، أو حتى مما يشرح عن التفارير السرية.

قلت له، مهما سابت الأحوال، فلن أراجع.

عقب بأننا نتشارك في بعض الأشياء، مثلاً تقديمنا للأسرة والحفاظ على تماسكها، وهذا واضح من سفري بحثاً عن إنسي. لم أقل له إنسي كي أحافظ على أسرني، لم يكن هناك مقر من تمزيقها.

ترك ميللر زوجته وأولاده في بيتهم بكاليفورنيا، كان يرسلهم يوماً ويطلبهم إلى أحواله، يعرف أنهم قلقون عليه، فيحاول ألا يأتي على ذكر ما يفعله في هذا البلد البعيد، يكفي ما يسمعون عن الحرب في القنوات التلفزيونية. أما ما يرسله إليهم من أخبار، فشكواه من أوجاع المعدة ومشاعبه مع الطقس الحار... لا يستطيع أن يروح لهم بأكثر، يؤكد لهم أنه يمارس القسم الأكبر من عمله الإداري خارج العراق، في الأردن وبيروت وموعداً رحلته إلى سورية.

أظهر ميللر تعلقه بأولاده، لم يخف عني اشتياقه الجارف إليهم. تحورت من أنا حتى يشي أشواقه الخاصة نحو عائلته!! برز السؤال من نظراتي. ولقد لاحظته:

ومتاب الأباء متشابهة.

قالها كأنه ينفي أننا من بلدان مختلفين، وأنه ضابط في جيش احتلال، وأنا قادم من بلد مهذب من جيشه بالذات! وإنما جيران في شارع واحد، يعانون المصاعب ذاتها.

عدم اهتمامه بالفوارق الشخصية يتنا، كانت تمهيداً لإزالة بقية الحواجز، ومع هذا فاجأني عندما تحدثت عن المشاكل التي يواجهها الجيش الأميركي في العراق، لم يكن سرّاً أن القوات ثلاثي الكثير من الصعوبات على الأرض.

«نحن لا نحقق تقدماً، العراق كعمكة كبيرة، كل منهم يريد أن يأخذ نهشة منها، عقبات الملايين من الدولارات تبخرت في السجلات. على ماذا أنفقت؟ المبالغ تسلم من دون تسجيل، لماذا؟ لأن الإجراءات المحاسبية الأصولية ليست واردة في زمن الحرب. وهكذا لا يُعرف من قبض عشرة آلاف أو من قبض خمسمائة ألف».

ما علاقي بمشاكل الاحتلال اللوجيستية والإدارية؟

«نحن نتعامل مع شركات أصحابها محتالون، ينتفعون من نظام أجور سخيف، ويتباطأون في التنفيذ، ويجنون أرباحاً هائلة من دون مقابل مقبول».

تخيلت أنه لم يكن يتكلم معي، وإنما يتكلم مع نفسه، لكنه عندما أخذ يشهدني على التجاوزات المرتكبة عن قصد، كالتلاعب بأسلوب منح العقود، وتلقيق فوائدهم صرف مزيفة لمقاولين لا وجود لهم، والتعاقد على أعمال وهمية، هذا محبطاً تماماً، أدركت أنه يعاني منها فعلاً. كان يرغب في أن تكون القوات أكثر كفاءة، وأقل تكلفة مادية.

لم أستطع مجارته، هل أوافقه على حرب أشد تدميراً، بتكلفة بخسة، ولا تخطئ ضحاياها؟ مشكلته كانت مع الأشخاص

الأمنيين المستأجرين، أو ما يُطلق عليهم من تسميات مختلفة كموظفي الشركات العسكرية الخاصة، أو شركات الحماية الأمنية، والمتعاقدين المدنيين، والمقاولين الأمنيين. كل هذه لا تزيح عنهم صفتهم الحقيقية: مرتزقة، ما الذي تربطه بهم سوى علاقات آنية، وإن عبر عنها بحدة:

«هدفنا كسب الحرب، بينما هدفهم زيادة أرباحهم».

كان عمل الميجور الرئيسي كما قال لي، تشمل الجيش الأمريكي في مراقبة تنفيذ العقود الخاصة بشركة «ميترا كورب»، وهي تدريب وحدات تضم نخبة من الجنود العراقيين على شن الغارات على مخابئ المتطرفين في العنث السني، ومداهمة المناطق المشبوهة، عمليات من فرط خطورتها، قد تستجر الانتقام من عائلاتهم، لذلك سيقوم الجنود بعملهم مفتعين. لكن لم يحتاجوا إلى أذعة، تدريبهم بالفعل اقتصر على استخدام الأسلحة الخفيفة، وعمليات لا تتعدى معالجة الحوادث الناشئة عن الاشتباكات المفاجئة، وربما تصل نجدات من قوات الجيش الأمريكي. كان هنا أحد أسباب علاقه مع الشركة.

لم يكن لدي أي سبب لأخذ جانب طرف ضد طرف في خلاف استعماري، كنت ضدهما معاً، لكنه عندما تمنى أن يكون إلى جوار ولديه التوأم في عيد ميلادهما، عبق وجهه بالأحمرار وكاد أن يخلق من حنيه إليهم:

«هل فهمتي؟».

لم أفهمه، بل أحسست أن الآباء متشابهون..

كانت علامته قد ازدادت احتقاناً، وبرت عيناه، فهذا كأنه تذكر شيئاً. أدار وجهه عني. قلت أنه يخفي اضطراب مشاعره. غيرت فكرتي عنه، لم يعد ذلك الأميركي المتعجرف، أو الأميركي المتظاهر بالطيبة، كنت على خطأ عندما خطر لي أنه يحاول خداعي بالتظاهر بالمغالاة بمنحي ثقته، كان من العصف الذي يتعاطف مع الآخرين، والغرابة أنه لم يتأخر عن وضع نفسه في محلي، ليس بداعي الشفقة، بل بسبب تأثيره بموقفي، وأهدى مساندة لي بصرف النظر عن الظروف الحالية، حتى لو كانت غير ملائمة. لم ينظر لأبني إلا على أنه مرافق متجرد، أُحرر به، ينهي إعادته إلى صوابه.

لم يفتر ميلر عن إثارة استغرابي، ولم أتوقع أن يضيف جانباً آخر إلى شخصيته، يزيد على المعلن منها الذي كشف عنه في دمشق، أو رب الأسرة المتعاطف مع أمثاله، أو الإداري النزبه في عمله، وإنما في اعتزانه بالتفكير قائلاً بأنه لم يفعل شيئاً مؤثراً في حياته، في الحقيقة لم يتح له القيام بعمل طالما طمح إلى تحقيقه!!

لم أسأله عنه. خلال حديثه راودني أكثر من مرة، أن الميجور يشكو من شيء، لم أستطع تحديده، وإن توضح لي جانب مثالي في شخصيته، كان ضعيفاً وهشاً. وإذا كان قد بدا لي ضعيفاً، فلتناقضه مع صورة القوة الأميركية، أما هشاشته فلأنه عرضة لوساوس الكمال الأخلاقي في حرب لا تأبه بالبشر ولا تعترف بالأخلاق. كانت انتقاداته تدور حول جودة أداء العمل، لا الغايات والذوايق، وكان متفائلاً في رسمه للعراق صورة لما سيكون عليه في المستقبل، يستحيل إنجازها في عالم كان مؤهلاً للمزيد من الدمار، صورة بدت نموذجية في تمزيق العراق إلى

دول، لا سبيل إلى تحقيقها إلا بتسعر الحرب الطائفية.

وربما لأن الحديث تدرج بنا وتشعب واتخذ مناحي شتى، صارحني بأن استدعائه على عجل كان لإجراء تحقيق حول تدهور سيارة عسكرية ليل أول البارحة، قتل من جرأته رجلان، وأصيب اثنان آخران إصابات بالغة، لم يُعرف بعد إن كان بفعل عبوة ناسفة، أو كانوا مخطورين. هذا الحادث اضطره إلى العودة سريعاً، هناك أمر غير طبيعي حوله.

هذه المجموعة كانت ستعمل تحت إشرافه، بينما كانت في السابق تعمل تحت إشراف الشركة فقط، تبلغ بالأمر قبل سفره، ولم يتح له الوقت للتعرف إليهم، على أن يتسلم قيادتها بعد عودته. وهكذا بقيت المجموعة من دون قيادة لمدة لا تقل عن عشرة أيام.

كان هذا ما دعاه إلى الإنصاح عن طبيعة عمله الآخر غير العلني، فربطت بينه وبين سفره لبيروت ودمشق، لم يكن إلا بهدف جمع معلومات عن تسرب الإرهابيين من المخيمات الفلسطينية في لبنان إلى الأراضي السورية، وعبورهم الحدود العراقية. قالها في معرض تأكيده على أن قصتي من صميم مهمته وستأخذ مجراها عاجلاً. فبدت وكأنها مهمة واحدة، وإن كانت متشعبة.

لم يكمل، كان قائد الطائرة يملنا بأننا على وشك الهبوط.

مطار صدام، الذي أصبح مطار بغداد الدولي، لا يشبه أي مطار آخر، لا تنبأيات تخير عن مواعيد وصول الطائرات أو مغادرتها. الأوساخ في السمرات، والاضطراب يخيم على القاعة، مسافرون

غير عادين، لهفة الوصول على ملامحهم يخترقها الوجوم والتوتر، كأنه سيحصل عائق يهدد فرحة وصولهم سالمين، ما طمأنهم قليلاً، أن أغلب من كان في استقبالهم رجال مسلحون.

في نقطة الانتظار، لم تنهد بإجراءات التفتيش، توقفنا قليلاً عند الحاجز الجمركي، ثم تجاوزناه بسرعة بحكم صفة ميللر العسكرية. عشر لي ونحن نغادر القاعدة عن احتفاره للعاملين في الجمارك، لتقاضيهم الرشوة، متفرعين بمصاحب عملهم، ومهما كانت تبرواتهم، فلا تبوح لهم هذا الانحراف الأخلاقي.

بما مجرد ادعاء، ما دامت بلاده بخير فما الذي يهمه من سلوك احترفه رجال الجمارك في بلد أمسى فقيراً من جراء الحصار والاحتلال!؟

على رصيف المطار، كانت بانتظارنا سيارة عمر تراقفها مدرعتان. أقلعت بنا السيارة، اجتزنا الحواجز الرئيسة العسكرية المتمركزة عند مخرج المطار. لاحظت من بعيد بعض البقايا المعدنية الناجمة عن التفجيرات الانتحارية، بينما على الجانبين، تحولت الحدائق إلى مستنقعات تجم بالحشرات وقصب البردي، تفوح منها رائحة عفونة، وتناثرت محركات السيارات المحترقة، بين الحفر المختلفة عن القبائل.

لا يعد المطار عن بغداد أكثر من عشرين دقيقة بالسيارة. حلوني الميجور، قد نتعرض إلى حادث، الطريق مستهدف بشكل دائم بالألغام، ونادراً ما يمر يوم من دون تصفه بمناقع الهاون.

البارحة، قال السائق، نسبت قبيلة بقتل جندي وجرح عدة عناصر

من دورية أمريكية، واليوم، عنا إصابة المهبط، أدى انزعاج لضم إلى تعطيل السر عدة ساعات.

لم يكن عبثاً أن عُرف طريق المطار، بطريق الموت.

كان قد حجز لي غرفة في فندق الرشيد الواقع في المنطقة الخضراء الخاصة للحراسة المشددة، الدخول إليها يتطلب الكثير من الإجراءات الأمنية. يستحيل على أي شخص الإقامة فيها إن لم يكن من العاملين مع القوات الأمريكية، أو الحكومة والبرلمان، أو ساكناً فيها من قبل.

عند المدخل، حملت اللافة الحديدية ذات اللون الأسود تعليمات مشددة باللون الأبيض حول إجراءات الدخول: «قف أنت على مقربة من قوة سريعة الإطلاق». ولافتات أخرى تحتوي على تحذيرات بعضها باللون الأحمر.

تفقدنا بالتعليمات، أغلق المسجور هاتفه النقال، وأخرج البطارية منه، فيما اكتفيت بإبراز أوراقي الرسمية. خشوني بواسطة الأدوات الإلكترونية، ونشم كلب برلهسي ضخيم حفية ملاسي. كانت إجراءات دخولي برفقته قد أعدت مسبقاً بالتنسيق مع الأجهزة الأمنية المختلفة.

طلب مهلر من السائق أن يتجول بنا قليلاً، سارت بنا السيارة على مهل، الشوارع فسحة، حركة المرور منظمة. أعطاني فكرة عن المنطقة الخضراء، مساحتها واسعة جداً، تحتل ثلاثة أحياء، بالإضافة إلى جسر المعلق، وطريق القادسية السريع وفندق الرشيد وما يحيط به. مع جزء كبير من منتزه الزوراء، ومساحة الاحتفالات

الكبرى التي تضم قاعات سينما ومسارح وصالات عروض تشكيلية فارغة ومهجورة، بعضها تستعمله الإدارة في القوات الأمريكية.

وحيالاً هي العاصمة الفعلية للسياسيين من صناع القرار، والبقعة الأمنة الوحيدة في بحر من اللأمان المطلق.

غير أن الاحتياطات كلها، لم تمنع من وقوع عروقات أمنة بالغة الخطورة، كإدخال سيارات مفخخة، ووقوع عدة تفجيرات انتحارية أصابت عدداً كبيراً من الجنود الأميركيين وبعض المسؤولين العراقيين. وربما كي يخفف عني وطأة هذه القلعة الحصينة، أشار إلى وجهها الآخر:

إنها بغداد المستقبل، صورة مصغرة عنها، انظر إليها، إنها على وشك أن تصبح مدينة حقيقية.

بعد أيام، قلت له: ريتشارد، بغداد الحقيقية توجد خارج نطاق هذه الأسلاك الشائكة والأسوار الإستتية العالية.

توقفت بنا السيارة عند مقطورة بيضاء. كان الميجور يستعملها كمكتب يمارس فيه عمله، اختارها ليكون على مقربة من عناصره. كان معاونه الشاب الليفتنانت جوناثان واتسون، في انتظارنا والماء يقطر منه، كان قد أفرغ قبل أن ندخل ثلاث زجاجات فوق رأسه وصدوره. جفف شعره بالمنشفة، غلغ سترته المبللة ونشرها. كانت الشمس القوية كقيلة بتجفيفها خلال دقائق.

عزفه ميللر بي، صافحتني جوناثان بمودة كبيرة، أبدى سروره بالتحرف إلي، وتفهم بسرعة أسباب وجودي في العراق، كانت لديه فكرة عني سبقني إليه. لكنه أثار دهشتي، عندما أظهر أسفه من أجلي، وتعنى مساعدتي. وقال لي من دون مقدمات، وكأنه يريد التعرف بنفسه على نحو مختلف، إنه ضد للغزو الأميركي للعراق، ولا يريد أن يخدم هنا، طالب مراراً بإعادته إلى أمريكا، الإدارة لم ترفض، لكنهم يماطلون.

ضحك ميللر معلقاً على كلامه بأنه يؤوي لديه مشاغباً ناشطاً من النوع الأشد معارضة للحرب، والناقم الأكثر ضراوة على المخططين لها في البتاغون.

بدا اللفتات التحيل الذي لم تفارق وجهه الانسانية، عسكرياً إدارياً أكثر منه مقاتلاً محترفاً، وبالفعل كان مسؤولاً من الناحية الإدارية عن تدريب مجموعة من المتطوعين العراقيين في الشرطة المدنية على إدارة شبكة المرور في أجزاء حساسة من العاصمة. بالإضافة إلى ما يكلف به من مهمات، وهي مهمات إنسانية مختارة ترضي ضميره، ولا تؤذي مشاعره.

لم أفهم من الحديث المتبادل بين ميللر وجوناثان، سوى أن الأخير رفض التدخّل في قضية تدهور السيارة، الحادثة مشكوك بها، وأن الكولونيل ضابط الاتصال مع شركة «ميترا كورب» يريد الانتهاء منها بسرعة. ثم صمت لجاناً، وتغير مجرى الحديث، ربما تبه إلى أنه ينبغي ألا يستطرد في الكلام أماسي.

كان توقف ميللر في المقطورة، لكي يستعلم من معاونه عن مهمة أوكلها إليه قبل أن يخاض إلى سورية، وكانت عن تسرب أخبار

عن تسليم بعض الأهالي في مدينة الصدر لرسائل من تنظيم إسلامي مجهول تهديد باستهدافهم إن لم يتم تسليم أولادهم الشواذ جنساً إليهم بنضون أيام قليلة، التهديد كان جدياً لا سيما أن العشائر التي ينتمي إليها الشبان أعدت دمهم وأباحت قتلهم. جونتانان لم يحرز أي تقدم، عائلات الأولاد كانوا متحفظين وخائفين، أنكروا رسائل التهديد، ولم يطلبوا حماية أولادهم الشواذ. عقب مللر باختصار، سجل هنا في تقريرك. قال جونتانان إنه سيحاول معهم ثانية.

عند الباب، توقف الميجور وعاد إلى الداخل مدعياً أنه نسي شيئاً لم يبلغه لجونتانان، فيما تابعت طريقي إلى السيارة وانتظرته فيها، خرج بعد عشر دقائق واعتذر عن تأخره. بدأ مشوشاً، ولم يعد إلى طبيعته.

أوصلني إلى الفندق، تأكد من الحجز واطمأن إلى أن أسوري ستكون على ما يرام. في الردهة، قال إنه لن يستطيع رؤي اليوم، عليه مباشرة التحقيق فوراً، وسأخذ وقتك كله لهذا المساء. ولكيلا أشعر بالملل، نصحتني بزيارة السوق القريب، قال لي إنه سوق حديث أقيم بعد الاحتلال بغني الجنود والمقيمين الأجانب عن الذهاب إلى الأسواق المحلية. تركني بعد أن اتفقتا على اللقاء غداً صباحاً.

صعدت إلى غرفتي، رتبت أغراضني القليلة في الخزانة والأحراج، أخذت حماماً ساجناً. قبل أن أبارح الغرفة، ألقيت نظرة من الشرفة، كانت مظلة على حوض السباحة، رجال وشبان يسبحون، وآخرون يتشمسون بضعون على رؤوسهم قبعات قماشية ملونة

وقاية من الشمس. مدتت بصري، انبسطت أمامي المنطقة الخضراء تحت مناظر أبراج الحرافة، كانت ثكنة عسكرية واسعة الأرجاء.

تمشيت في الشوارع من دون وجهة محددة. لم أتفاجأ بنقاط التفشي المنتشرة بكثرة، ولا بالأحباطات المرعبة، وكانت تُراعى بدقة وعشوية. الحرارة لا نطاق ولا يمكن تحملها، بلغت نحو عشرين درجة. تناولت طعامي في مطعم يقدم البيتزا. ثم تاهت إلى السوق الذي دلتني مهللر عليه. تسكعت بين الدكاكين، الباعة عراقيون من سكان المنطقة. يحتوي السوق على محلات للحلي التقليدية والمنسجات، قطع أثريّة، عطور عربية، وهواتف محمولة وأقراص مدمجة، والعلم العراقي مع عبارة «الله أكبر»، كان معروضاً للبيع، وبدلات عسكرية قديمة، وسجل تصوير فوتوغرافي يخفي الزمان بالتقاط صور تذكارية لهم بالملابس العربية. جنود أسير كيون يتمشون، توقفوا واشتروا تذكارات من العملات النقدية العراقية عليها صورة صدام، ثم اصطفوا من أجل صورة جماعية.

عدت إلى الفندق، لم يواتني النوم، فكرت بسناه، لم أكن صريحاً معها، وإن كنت لم أعقب عنها أمر سفرني وما كنت أقوم به من استعدادات. في الأيام الأخيرة، لم أرد توريطها بمعرفة أمور قد تشغل بالها، فجنبت الحديث معها، وأصبح الوقت الذي نضبه معاً مجرد زمن ينفرد الواحد منا بنفسه. كانت مثلي تخفي شيئاً، لم أحاول معرفته. كنت في حالة لا تساعدني على التنازل عما تشكو منه، لديّ همومي ولست بحاجة إلى هموم إضافية، فضيلت أنها مهسومة من أجلي. وكان من الأفضل، قبل مغادرتي، أن أكشف لها عما يقلقني، كانت بالمقابل صارحتني، لكن لم

يشن لي التفكير في شأننا.

ضبطتها في الفراش صاحبة، تعلقت أنها لم تستطع النوم بسبب شربها كمية كبيرة من القهوة، لم تكن القهوة، كانت قلقة من أجلي. لم يكن تلاصقنا سوى لِرضاء لتلك التوازع التي يوغرها الفرار من الأرق إلى الجنس، لكنه لم يشغلنا عما في داخلنا، فلم ننس كلانا أسراً لا ينسى، هل كان الشيء نفسه؟ في ذلك العصمت والشروود، تشاركنا الهواجس من دون البوح بها. قلت لها، أنا غير قادر على التفكير بأي شيء، ثمة ما يفثك بي، ولا شيء يُسوي عني. كان عريها بين فراعني مجرد بياض ألدفن فيه عواطري السواد، وفسحة أريح رأسي على كتفها وأنشج. احضنتني بقوة ونشجت هي الأخرى.

لا، لم تكن تشج على الشيء نفسه، ولم أسألها. كان صمتنا من أمراض الكتمان، ولقد تابعت المراوغة. وتأجل سؤالي إلى بغداد.

الآن، ما نفع الأسئلة؟

الرسالة الثانية

(الحياة في المنطقة الخضراء مختلفة تماماً، أحياء وأسواق متنوعة ونوادٍ رياضية ومساح، محلات تحتوي على كل شيء، مطاعم فيها ما يلزم من الشراب والطعام بأنواعه خاصة الغربي، أمكنة هادئة وموسيقى، شوارع عريضة، جميلة ونظيفة، تتجول فيها السيارات وحافلات النقل المكيفة، تتقيد بحدود السرعة المسموح بها.

تحتاز الأبنية بشهوية كاملة ونهر يد متواصل. مستلزمات الراحة متوافرة، خدمات تنظيف وغسيل جاف. وسائل الرفاهية والتسلية متوفرة، فنون فضائية، أفلام سينمائية، محلات لبيع البيرة والويسكي والبيذ الفرنسي وغيرها من المشروبات الكحولية.

مدينة كاملة ومتكاملة، داخل بنفلا لكنها خارجها، قطعة من الغرب، مدججة بالجنود والأسلحة... (بالإضافة إلى بهارات سياحية).

كأنني انتزعت معلوماتي من كتيب سياحي، ومع هذا كانت المنطقة الخضراء تحتوي على هذه الامتيازات دونما مبالغة وأكثر، هنا دون أن أتني على ذكر أصناف البهارات السياحية، لفلا تظن سناء أنني في رحلة استجمام في بانكوك، لا سيما أن أحد المطاعم الصينية يعرض المساج مع وجبات الطعام. قرب موقف السيارات، صادفت أطفالاً يهيمون الأقراص المدمجة، أحدهم عن أنني أجنبي، هتف لي: «ستر، هل ترهد أفلاماً أو صوراً جنسية؟».

وتعمدت طبعاً ألا أذكر لها شيئاً عن المخاطر المحتملة في داخل هذا التعميم المحصن بجدران ضد الانفجارات، والحوادث الإلكترونية المسلحة، والأسلاك الشائكة ودهابات أبراج والطائرات المروحية.

صباحاً في بهو الفندق، انتظرت قدوم الميجور، الصالدة تبيع رجال من القوات الخاصة من أنواع مختلفة، مفتولي العضلات يتحركون مثل الرجال الآكيبين، بعضهم يرتدي سترات واقية من الرصاص، يحملون جهاز اتصال نوكي - ووكي مرهوطاً بأسلاك حول خصورهم، تسريحة شعرهم قصيرة، أو صلعان حسب الموضة، يخفون عيونهم بنظارات شمسية سوداء، وموظفون من السفارة الأمريكية يهيمون في هواتفهم الخلوية، دبلوماسيون يلبسون بدلات أنيقة، خبراء أمن، مقالون ومتعهدون، ومراسلون صحافيون يشربون القهوة ويتابعون، وربما بعض الشخصيات المهمة... على وشك الانطلاق كل إلى مهنته. فيما كان عمال الفندق يتقلون بصمت بنا، ويستجيبون لمجرد الإشارة إليهم.

من بعيد في الشارع، لمحت المنظر الأكثر مدعاة للاطمئنان،

عداداً من المجنذات والمستخدمات في القوات الأمريكية، بلبس
بلوزات مكشوفة، يمارسن رياضة الهوكي بالراجل القصيرة.

كان صباحاً عادياً في المنطقة الخضراء.

على شاشة التلفزيون، المذيع يتلو موجزاً سريعاً للأخبار: انفجار
سيارتين مفخختين، الانفجار الأول لدى مرور دورية مشتركة
للجيشين الأمريكي والعراقي أدى إلى مقتل ثمانية وإصابة ١٥ آخرين
من المارين بينهم عدد من جنود الدورية. الانفجار الثاني وقع بعد
عشر دقائق وأدى إلى مقتل شخص وإصابة خمسة آخرين، جميعهم
من المدنيين. الهجوم الانتحاري البارحة في دهلي حصد ٢٤ قتيلاً
وأكثر من مئة جريح. استهداف مركز للشرطة في مدينة الصدر نجم
عنه تسعة قتلى و٢٨ جريحاً في عملية انتحارية. مقتل ستة أشخاص
وجرح ثلاثة إثر إطلاق مسلحين النار على حافلة تقل عائلة في
بغوبة. مصدر أسني يؤكد العثور اليوم في أنحاء متفرقة من بغداد على
٤٤ جثة مشوهة مجهولة الهوية. كل الجثث كانت موثقة الهدين مع
رصاصة في الرأس، ثمان منها عشر عليها في محاولات القمامة.

كان صباحاً عادياً في العراق.



جاء الميجور بعد أقل من ساعة، متعباً ومحتار العينين، لم يأخذ
قسطه من النوم. اعتذر عن تأخره، هناك ما تعسر في التحقيق
الذي امتد حتى ساعة متأخرة من الليل من دون نتائج ملموسة.
وطلب مني إمهاله مزيداً من الوقت لاضطراره إلى مقابلة عدد آخر
من الشهود.

كان الاتفاق قد جرى بيننا في دمشق على أن يباشر العمل على قضيتي فور وصولنا. بدأ من الإحباط الذي ظهر على ملامحي، أنني أتهمه بنكث اتفاقنا، بقائي بلا سبب بعدما أصبح بدء العمل مرهوناً بانتهاء التحقيق.

دنا برأسه مني، وبصوت منخفض، أكد لي أن قضية سامر من أولوياته. لاحظت تطلعي، كان إقناعي يحتاج إلى أكثر من الهمس، فلم يجد مناً من التعرّيج على مهمة السرية التي لمح لي عنها ونحن في الطائفة، تطرق إليها، وإن بشكل محدود، بالنسبة إلى الوحدة الجديدة التي تضم بعض المستخدمين المدنيين والجنود المدربين كان مكلفاً بأن يسند إليها عمليات خاصة لا يستطيع الدخول في تفصيلاتها، لكن وبإيجاز شديد، ملاحقة أفراد من منظمة القاعدة الإرهابية واعتقالهم، أفراد يظنون أنفسهم غير معروفين ولا مطلوبين، أدوارهم تبدو هامشية، لكنهم صلة الوصل مع جماعات المتمردين الأخرى، مما يساعد على ضرب أي تعاون بينهما. العملية ترمي إلى عزل القاعدة. قال:

«إذا كان هدفي الوصول إلى القاعدة فهو هدفك أيضاً».

كانت قضيتي على صلة وثيقة وانتهاء التحقيق.

الجانب الذي استرعى قلقة في الحادث؛ أن القتل جميعهم كانوا من أفراد هذه الوحدة بالذات!! ما جعل مخاوفه تتركز حول مهمة، هل انكشفت، وتبدى بتصلية عناصره!! وعبر عن وساوسه بحارة شرة:

«أعشى من وجود جاسوس للقاعدة هنا داخل المنطقة الخضراء».

وإذا شرد في أفكاره، تخيلت أنه سينشغل بقية اليوم بالبحث عن الجاسوس!! وربما يتفرغ لي غداً أو بعد غد، سيحتجزني في الفندق. لكنه كذب تخيلاتي، وشجعتني على الخروج من المنطقة الخضراء، والقيام بجولات إطلاعية في الشوارع القريبة، بشرط ألا أغامر بمغادرة إلى السदन والقرى الأخرى تحت أي ظرف من الظروف، وأن أتصل به في حال حدوث طارئ، أو تعرضت لأي مشكلة، ولكي لا أتجول وحيداً طلب من السلطات العراقية تكليف موظف عراقي يرافقني نهاراً. فرشحوا له موظفاً شاباً، يعمل في وزارة الثقافة. لكن... ونصحتني ألا أثق بأي عراقي.

«من يضمن ألا يكون عميلاً للمتمردين؟»

لم أعف ارتعاجي مما قاله:

«يبدو أنكم موسوسون حتى من العراقيين الذين تتعاملون معهم».

أردف برقة، يهلع ما قاله:

«احتياطاً، لا بأس أن تكون على حذر منه».

أسكت ورقة وقرأ منها:

«الموظف اسمه فاضل عبادي، وسوف يتصل بك بعد قليل».

واعترض عن عدم إرسال قوة حماية ترافقتي كي لا أُلقت الأنظار، وشدد على أن أكون حريصاً جداً، الأوضاع في العاصمة معقدة ومتشابكة جداً. المجرهات على الأرض غير سارة على الإطلاق، كانت سيفة جداً، هناك أحياء باتت تحت سيطرة الميليشيات

التي، وأحياء تحت سيطرة الميليشيات الشيعية.

زودني ميلر قبل أن يذهب ببطاقة تسمح لي بالدخول والخروج من المنطقة الخضراء، ومن بوابة محددة، هي مدخل فندق الرشيد من دون اصطحاب زعيمين أو ضيوف معي. وبالنسبة للجولة التي سأقوم بها، جرى إعلام مرافقي العراقي بالمناطق التي لا يصح الاقتراب منها.

أعطاني هاتفاً لكي أستعمله طوال مدة وجودي في بغداد.



بعد أقل من ساعة، اتصل بي فاضل مرافقي العراقي، تكلم معي بالإنكليزية، طلب مني أن أنتظره على الجانب المقابل الوحيد للحاجز الإسمنتي الخارجي. وتابع قائلاً:

«لا تبحث عني، سأعرف أنا إليك».

لم أكن قد وصلت إلى الجانب المقابل حتى توقفت أمامي سيارة تويوتا بيضاء اللون، أطل منها ودعاني للركوب إلى جولره، لم أستغرب، كانوا قد أرسلوا إليه صورتي.

رحب بي وهو يسوق بهدوء ويرمق المارين بإسعاد. تفحصته، كان فاضل شامخاً وسيماً في منتصف الثلاثينات من عمره، وجه أسمر معتق، عينان سوداوان، شاربان كثيفان، عيناه لا تثبتان في اتجاه، يبدآن بكثرة. يبدو لطيفاً مع أنه تعمد أن تكون ملامحه باردة لا تسيء عن شيء. ظن أنه يرافقني كترجم، قلت له:

«تكلم معي بالعربية، أنا سوري».

فانفردت أساري، وعقدة لسان، وأطلق ضحكة:

«أرجو ألا يظن أحد أنني مترجم أو سائق، المترجمون والسائقون، لا ثمن لهم في سوق الخطف، يُقتلون على الفور».

خطر لي لأنه موظف أن أؤمن جهده معي، لا سيما أنه لن يتقاضى من وزارته أجراً عن مرافقته لي، فعرضت عليه عشرين دولاراً عن كل يوم يرافقني فيه، بموضه عن هذا العناء، وربما الموت، قد يُقتل لسبب أن بصحة غريب.

«هل البلغ مقبول؟».

انفض قائلاً بأنه لا يقبل رشوة وغير مستاد على الإكراميات من أي نوع. كان موظفاً في وزارة الإعلام، بعد الاحتلال جرى نقله إلى وزارة الثقافة، إنه من جيل الموظفين الصغار الذين تربوا في زمن صدام، كانت أي شبهة من هذا النوع توردهم التهلكة.

أم هذا ما يدعي بالحساسية العراقية؟

عندما تُكلف بهذا العمل، كاد أن يرفض بسبب الأمر كين، لكنه وافق عندما علم أنه سيرافق باحثاً أميركياً قيل له إنه من أصل عربي، فلم يستبعد كوني أُنشر باستعمال لغتي الأم، وربما نستجها. دفعه للقبول أيضاً أنني، حسبما أبلغوه، سأجمع معلومات من أجل كتاب يتحدث عن واقع العراق تحت الاحتلال.

«هل هذا صحيح؟».

«انقل إني بحاجة إلى معلومات».

قال وعينه لا تفارقان الطريق:

«وما المعلومات التي تريدان؟ ذلك يعتمد...».

لم يكمل، تردد قليلاً، ثم أعلنني بشكوكه:

«لا تس أنك تقيم في فندق الرشيد بحماية قوات الاحتلال».

«كان قد وضع الحدود التي تفصل بيننا، بإظهاره عدم ثقته بي».

نظر إلي وقد اخفت ابتسامته. ينتظر جواباً. قلت له:

«علمني كساح».

انتصرت جولتنا على الأماكن القريبة من المنطقة الخضراء. هنا بموجب التعليمات التي تلقاها بخصوصي، كان من المستحسن برأيي أنا أيضاً عدم تجاوزها.

حركة السير بطيئة، الطرقات تجمّع بالبشر والسيارات، الأزدحام سبب اختناقات المرور، وكانت قد ازدادت مع تقدم النهار، بغداد مغلقة بسواتر ترابية وخرسانية، المتاريس تحيط بالمواقع العسكرية الأمريكية، تحصينات من الباطون اخترقت الشوارع لشفادي الهجمات المحتملة بالسيارات المفخخة. القنادق التي يقيم فيها النزلاء الأجانب، وهي كثيرة، بحق لوحات الحراسة فيها تحويل شبكة الطرق المحيطة بها إلى اتجاه واحد، كذلك منازل المسؤولين الجدد المنتشرة في أنحاء المدينة، والمراكز الحزبية

على أنواعها، ومكاتب الشركات الأجنبية.

من خلال زجاج السيارة، الهواء رمادي بحجب زرقة السماء الكالحة بمزيج قائم من غبار وأبخرة ودخان وغازات ومخلفات سائل الوقود المحترقة، مزروجة براوح النفايات المتعفة.

أليست أزمة مرور فحسب، بل وأزمة كهرباء، وأزمة بطالة، وأزمة ماء وهواء...!

... قبل سنة، كانت الأزمات مستفحلة، طواير الناس الطويلة تقف ساعات أمام محطات الوقود، أليست مهزلة... العراق يحتوي على أكبر احتياطي نفطي في العالم... وأيضاً بلا ماء، ويسى بلاد ما بين النهرين! ولا شرطة لتنظم حركة المرور. ولا رجال إطفاء في وقت تكثرت فيه الحرائق، وبلا عمال نظافة والنفايات تسد الشوارع.

الناس يمضون مسرعين، يتحرون بخطواتهم.

لم أتر، هل كان الخوف حقيقة والعمى، يتراعى لي مرتسماً على الوجود، خشية من رصاص طائش أو شظية جراء عبوة ناسفة، أو سيارة مفخخة؟ على الرغم من التنظير، ثمة استهانة، الحياة تجري بقوة، وآلاف البشر يتنافسون غير عابئين بصوت بات يومياً، مبدولاً ومبتذلاً، على الطرقات والحواجز، وقد يحدث في أية لحظة.

تعدت التحرش به.

لكن يحتمل العراق المزيد من الخراب، صلثم كان عامل أمان

ضد القوضى والحزاة.

كانت فصول محاكمة الرئيس المخلوع تنتقل على شاشة التلفزيون، وقد قاربت على الانتهاء، ربما كان منحيزاً له، تابعت قائلاً:

«ألا تريد عودته إلى الحكم؟».

«لن يرتد الزمن إلى الوراء، حتى الذين كانوا من أتباعه لا يقبلون به. وهات مرفوضاً من غالبية تنظيمات المقاومة، في الحقيقة لم يشارنا حتى يعود، الكهرون لم يصدقوا ما حدث حتى بعد مضي ثلاث سنوات، صديق لي أطلق سراحه، لم ير النور طيلة عشر سنوات، كان محتجزاً في سرداب معتم. خرج نصف ميت، ظهره سحني، وجهه لا يزيد على عظام، عيان غائزان، وأسنان منحورة، لا يتجرأ على الكلام، شبح صدام يرافقه، كابوس لم يتخلص منه بعد. المسكين يخشى من أن يخرج من السجن ليس إلا حليماً، قد يستيقظ منه ويجد نفسه ما زال في الظلام».

«ههنا يكن، هناك حرية».

«ما الذي فعله به؟ نحن لا نرغب في العودة إلى الوراء، وفي الوقت نفسه، إذا كانت على هذه الشاكلة، فلا نرهبها. إلى جوار بني يوجد حاجز أميركي، حين أغادر البيت أو أعود إليه، أحتاج لإذن جندي أميركي قادم من سان فرانسيسكو أو شيكاغو، يستطيع أن ينتزعي من الشارع أو من فراشي، يقيد يدي إلى الخلف، ويضع على رأسي كيساً أسود ويقودني إلى سجن أو مخيم، وبين كرامتي ينشئ الأساليب، من بعده؟».

نزلنا من السيارة وتمشينا وسط عجقة الناس، تقدمني بيضع
 خطوات في شارع الرشيد، يفسح لي الطريق المنصف بسواتر
 استتية، إلى الجانبين امتد روالان بأعمدة ضخمة من بداية الشارع
 إلى نهايته، تتوضع على أطرافه المحلات والمقاهي والبيوتات
 المؤدية إلى الأسواق.

طالعنا محلات لبيع الأجهزة الكهربائية. بينما احتلت عربات
 الباعة الثابتين والحوالين الأرصفة والطريق والساحات. صراخهم
 يختلط مع الأصوات العالية للمسجلات.

بالكاد من شدة الزحام، تميزت الشارع والرصيف، البطبات على
 مد النظر، وكان البائع أكثر من الشارن، بضائع صنية مستوردة
 من جميع الأنواع، أدوات كهربائية، موبايلات، أحذية، قمصان،
 بهيجامات... وأقراص مدمجة لأفلام عن حفلات التعلب في
 سجن أبو غريب، معارك الفلوجة، زرع عيون ناسفة وتفجيرها
 في دهابة أو رتل عسكري، تدريبات واستعراضات لميليشيات
 إسلامية...

«ألا تريد شراء تذكارات من بغداد؟».

«أرغب في تذكارات أخرى».

«لو جئت بعد الاحتلال مباشرة لرأيت العجب على الأرصفة».

شهادات ماجستير ودكتوراه حسب الطلب، جوازات سفر مزورة،
 هويات شخصية، سننات ملكية عقارية، بطاقات تموينية، ملابس
 الضباط الكبار مع أوسمتهم وسنناتهم المطلية بالذهب، علب

السيجار الكوبي عليها أسماء أولاد الرئيس، كلها معروضة في الطرقات لمن يدفع. مستندات الفواتر الرسمية وسجلاتها مكدسة على الأرض، أسرار الدولة العراقية الدبلوماسية والعسكرية والمخابراتية والداعلية والدولية مع الأسرار الشخصية لعائلات رؤوس النظام، برسم البيع لمراسلي الجرائد المحلية والعالمية والفضائيات العربية. باعة جواهرهم يحملون في حقائبهم رزماً من الملفات، وثائق مختومة ومصدقة، صور وأشرطة التسجيل، وأفلام فيديو لإعدام عملاء إيران، تقارير الوشاة عن المشكوك بأمرهم والهاربين من الجيش وعائلاتهم، لغايات حميمة بين أولاد المسؤولين وبنيات صغيرات في السن. كل شيء بشمن، والشمن بالدولار، وقد يصل إلى مئات الألوف... وكل ما يساعد على تصفية الحسابات، أو ما يهر القبول والفضائح والتكبل.

اللازمة نفسها التي تصاحب الانقلابات، عهد ينتقم من عهد.

نحن العراقيين لدينا توبعاتنا، شقنا بالعهد السابق على الأرصعة. الانتقام لم يقف عند هذا الحد، ولا على إسقاط تماثيل صدام، بل امتد إلى من سبقه، شرق نضال الرئيس السطون، وأزيل نضال الغريمي، واقتلع نضال الرئيس البكر، ونسف نضال أبي جعفر المنصور، وسوّى بالأرض قبر ميشيل عفلق فيلسوف حزب البعث.

الحاضر بعد كتابة الماضي وبأثر من.

نهاية شارع الرشيد لم تكن عظام سياحتنا، صوت انفجار قوي وضع النهاية لها. تخيلت قبلة انفجرت على مقربة منا، بحثت عن حائط قريب لكي أرنسي إلى جواره، لكنني رأيت فاضل

والناس الذين في الطريق يرفعون رؤوسهم إلى السماء، سحابة ضخمة من الدخان تتصاعد في الفضاء، عمت سوق الانفجار، كان على بعد عدة شوارع.

سيارات الشرطة العراقية تحرق من أمامنا، مسارعة إلى مكان الحريق، أعقبتها سيارات الإسعاف مطلقاً زعيقها، في السماء ظهرت مروحيات أميركية حلقت متوجهة نحو أعمدة الدخان.

في نشرة الأخبار، كان سبب الانفجار الذي سمعته سيارة مفخخة استهدفت ساحة الفردوس، حصيلة الضحايا ثلاثة قتلى مدنيين وإصابة ١٥ آخرين بينهم عدد من الحراس المسلحين. أما الانفجار الأكبر الذي لم أسمعه، فقد كان بعيداً، تفجير سيارة مفخخة في سوق للماشية أدى إلى مقتل ٢٤ مدنياً بينهم الانتحاري وأكثر من مئة جريح. عند المساء ارتفع عدد القتلى إلى الأربعين. هجوم على حاجز أميركي، لم تقع خسائر. العمليات التي سجلتها المناطق الأخرى، تسعة قتلى و٣٨ جريحاً في عملية انتحارية استهدفت مركزاً للتطوع في مدينة البصرة، مقتل سبعة أشخاص وجرح أربعين في الرمادي، مقتل ٢١ شخصاً وإصابة العشرات بجروح في كربلاء. وفي الموصل قتل جنديين أميركيين بانفجار عبوة يدوية الصنع لدى مرور دوريتهم. في تكريت إصابة سبعة بينهم مسؤول محلي في هجوم مسلح.

حصيلة ما بعد الظهر إلى المساء، شكلت مع حصيلة الصباح ضحايا يوم عادي آخر في العراق. هنا في الأنبار.

أما الحقيقة، نال غاصب، فأضعاف مضاعفة.

ليلاً، عمّ الظلام بغداد عدا بعض المناطق والشوارع، الحرائق
تضئها، وربما قاذفات اللهب، بعض المباني نوالفها مضيفة.
وميض أنوار السيارات العابرة يرسل عموماً متحركة وواحدة من
الضوء سرعان ما تذهب.

الرسالة الثالثة

أنا في سوق لا أحد عليه، تعرقت للمهمة قبل البدء.

الوقت طويل، أطول مما أحمل.

القلق بلازمي، لا أرغب في إضافة المزيد.

وفري ظنونك، ولا تشغلني بها.

أريد أن أقبل شيئاً، لكن كل شيء مؤجل.



رسائلها أصبحت أكثر إلحاحاً، يصلني منها يوماً ثلاث أو أربع رسائل على الوتيرة نفسها، ترجوني فيها عدم التجول في الشوارع، وأن أكون شديد الاحتراس. من قبل كانت حريصة على ألا تشغل بالي، وتحافظ التطرق إلى ما يخصنا. في رسائلها الأخيرة حددت

هدفها، وناشدتني العودة إلى دمشق، والأسباب كثيرة: مخالفة، بحاجة إلي، تحس بالذنب لأنها لم تمنعني من السفر، أعلامها المشوشة ترعبها. كانت أوامها قد عاودتها.

لا تنقصني الأوامر ما دام الميجور يملر قد اختلق جاسوساً وأخذ يبحث عنه. اليوم لم يتصل بي، فتواعدنا أنا وفاضل على متابعة جولتنا.

رواح الفلفل والقرفة واليانسون والكمون تهب من سوق البهارات، وأصوات الطرزق على النحاس تسلل من سوق الصغارين، واللغظ يتعالى من سوق الهرج، وفي شارع المتنبي كأنما أسمع حفيف الورق.. ما الذي يميزها عن أسواق البيزورية والمسكية والنحاسين في دمشق؟ عدنا أمواجنا إلى شارع المتنبي، لم يعد شارع الكتب، بل شارع القوطية. دعاني فاضل إلى شرب الشاي في مقهى الشاهيندر.

ألقينا السلام على الحضور، فاضل يعرف بعضهم، كانوا من رواد المقهى المتأوسين، صحافيون وشعراء وأدباء وموظفون متقاعدون، يدعونون المسائل وبعضهم التارجيلة، استرخوا على المقاعد الخشبية الطولانية، يتحدثون وقد أطلقوا النظر بين الغيبة والغبية من خلال الواجهات البللورية العريضة إلى شارع لا يبدأ عن الحركة. على الجدران علفت براويز تضم صوراً لشخصيات عراقية يعتمرون الطرايش والفيصليات والعمائم من الأدباء والسياسيين والضباط ورجال الدين، المراوح المتدلية من السقف العالي لا تكف عن الدوران، من دون أن تخلف من الحر.

تناثرت تعليقاتهم حول ما استجدّ اليوم من أحداث، وكان مثل

قبله. ما الذي تبدل؟ لا شيء، لم تختلف الأمور كثيراً عما كان سابقاً في زمن صدام، بل ازدادت سوءاً باستشراء الفساد، عمليات الدولارات المخصصة لإعادة إعمار العراق تذهب للشركات التي تربطها علاقات بالإدارة الأميركية، يستفيد منها أفراد النخبة العميلة، استولوا على أبنية المراكز الحزبية البعثية، وسيطروا على الفنادق والمفازس والمجمعات السكنية، وشقوا الإجراءات الأمنية، وأخفوا بنهبون الأموال ويحتكرون العمولات وفق نفقات تشغيل باعظة. أحاطوا أنفسهم برجال مسلحين موالين لهم. من يدفع تكاليف حمايتهم؟ فساد كامل، فساد بكل معنى الكلمة.

وفي الماضي كانت السرقات لا تتعدى بضعة ملايين، اليوم مئات الملايين.

دار النقاش بأصوات عالية، وبلهجة عراقية استفزازية، لم أفهم على أي شيء هم مختلفون ما داموا متفقين في الرأي على إدانة اللصوص الذين جاؤوا فوق ظهور الدبابات الأميركية II بين الحين والحين، ينسرب إلى سحبي أصوات طلقات رصاص وانفجارات بعيدة، أو أنني أتخيل سماعها، فتنتثر متابعني لهم. أما هم فلا يكثرثون، باتت في حكم المعتاد. مر وقت وربما استوعبت أنهم يتحدثون على هذا النحو العصبي والمتفزز، سواء كانوا ناقمين أو غير ناقمين. كعادتهم من فرط انفعاله أن يطيح بيده ما فوق الطاولة والشراييز الطويلة من أباريق ماء وكؤوس الشاي الأسود والمنافض المملوطة بأعقاب السجائر.

كان الفاصل الانتقادي الشديد اللهجة، عفيف الوطأة بالمقارنة مع ما تلاه من حديث حول تمركز قيادات القاعدة في قلب

بغداد، رداً على فيزق الموت الشيعة. وتيرة الفرز السكاني المنهني أخف بالانتعاش، ميليشيات السنة فرضت أحكامها على الأحياء التي احتلتها، وأصدرت بيانات باسم «مجلس شورى المجاهدين» معلنة عن تشكيل إمارتين إسلاميتين، الأولى في الدورة والثانية في العاصفة، ووزعت منشورات تمنع تجول النساء سافرات، وحلق ذقون الرجال، وحظرت على الشبان ارتداء الشورت وبناطيل الجينز. بينما كرس الميليشيات الشيعة وجودها في شرق بغداد، وانتشر مسلحوها المرتدون ملابس سوداء، ونظموا دوريات للتفتيش على مدارس البنات والمؤسسات الحكومية لمراقبة المخالفات وتقميها. وفرضوا على النساء ارتداء العباة السوداء، ومنعوا الشبان من حلق لحاهم، أو ارتداء ملابس ملونة في أيام العزاء الحسينية. الأحياء باتت مغلقة، وتطبيق الأحكام الشرعية بالقوة.

جرى التعقيب عليها بتساؤلات عابثة: متى سينقاسون شارع الرشيد؟ مفهى الشابندر سيكون حصة من؟

ما سوف يحدث لا يحتمل الكثير من المزاح. الشريعة لن تستني أحياناً.

بات كل شيء قابلاً للحدوث، حتى أكثرها وحشية، إذا كانوا قد بدأوا بتطبيق الأحكام؛ فالحد سيقام على السارق بقطع يده، ورجم الزاني والزانية حتى الموت... إذا ما العجيب في الدعوة إلى منع تعليم البنات وحجبهن في البيوت، أو إطلاق النار على محلات الحلقاتين. أليس من الطبيعي تفجير دور اللهب والسينات، وقتل باعة الخمور، وحرق محلات باعة

أفراص الغناء المنمجة الخليفة وغير الخليفة!

تفرحي يا بغداد... لا موسيقا، لا رقص، لا غناء.

وتداعى بهم الحديث إلى الأخبار والشائعات المستشرة: القتل عليّ وفي عز النهار، امرأة ذهبت لأنها تختلط مع الرجال وتعمل في التجارة. ثلاثة شبان يعملون مدرسين في المسبح قطعت سيقانهم لأرتدائهم السراويل القصيرة. خمس عاملات في البنك لا يلبس الحجاب، انزعن من الحافلة التي نقلهن إلى بيوتهن عند الظهيرة أمام أنظار زميلاتهن، أطلق عليهن المسلحون المسلحون نيران أسلحتهم الرشاشة، ثم عمدوا إلى قطع رؤوسهن وألقوا بها على الرصيف، نديراً لسواهن، وأمرن العاملات المحجبات إبلاغ ما رأته إلى غيرهن. ثم وللثرويع، سمرنا أهالي الحي من رفع جثثهن من على الأرض.

دونما اتفاق، اعتبر الطرفان قتل السافرات عملاً يجاب عليه صاحبه. المناطق المسيطر عليها انتقلت من زمن الجاهلية إلى زمن الحاكمة لله.

لا غرابة بعد اليوم، الأحياء تركت مسرحاً لزعران الشريعة.

لم أع سوى أن العراق بلد أعشى، ينلمس طريقه بالنار والسكين، وأن السياسة تضلل الدين وتقوده إلى العار في حياة أصبحت موعودة بالهلاك، صفحة بلد بكاملها قد نظوى بموت مديد وشع.

تابنا تجواننا على غير هدى، من حولي ضجيج لا يخفت وتزاحم

عائق، يعين الحركة في مسالك مغلقة، وجسور تحتها ركاب من الأوساخ، أكوام الزباله تحوم حولها الكلاب الضالة... السينات مغلقة، أسلاك شائكة تحجز الأبنية عن المارين. الشرطة بيدلاتهم الزرق يفوضون في بحر من القوضى العارمة ويزيدونها احتداماً، لتشر عليهم بضعة دولارات. كانوا يرتشون على الملأ، وما يحاولونه بلا جدوى!! كأننا التفت فاضل ما تردد في داخلي، فجاءني صوته منخفضاً، يفسر من غلاله مشهداً أكبر.

وهؤلاء الشرطة على شاكلتنا، مغلوبون على أمرهم، وتحت الخطر، يريدون أن يعيشوا من أجل أمهاتهم وأولادهم. لكن الأمر ليس لهم، ولا لنا، ولا للجماهير التي هتفت لصلام، أو التي تهتف اليوم لأحزاب سرعان ما تظهر وسرعان ما تختفي. رجال الحكومة عالقون على أرواحهم ومختبئون خلف الأسوار العازلة، والسلطة المحتلة تحت الحراسة المشددة، وهناك بعيداً فيما وراء البحار، المخططون في البيت الأبيض والتتافعون. هذا البلد يحكمه رجال غير مرتين! يتبعون في قارة بعيدة.

نظر بعيداً، واتسم ابتسامة خفيفة:

«كذلك المقاومون غير مرتين أيضاً، مع أنهم هنا حولنا، يقاتلون ويقتلون، يضرهون ويتلاشون، لا ينسبون عن وجودهم سوى ما يخلفونه من دمار».

تسائل: هل أنت مهتم بالمقاومة؟

قلت: ليس كثيراً.

لم أترسل، ظن أنني أتكنم على ما أسعى إليه. في تلك اللحظة، كان يريد معرفة غرضي من قدومي إلى بغداد، فتابع محاولته وكأنه لم يسمعي.

«من الصعب حصر أعداد جماعات المقاومة، خاصة ما بنت منها كل يوم تحت اسم جديد، بعضها زائف أو غير حقيقي، والأكثرية عصابات تعمل على الاختطاف والسلب».

أدركت أن لديه شكوكاً حولي، ربما كنت عميلاً لقوات التحالف، فقطعت عليه تلميحاته، وقلت له إنني غير مهتم بالمقاومة الإسلامية أو الوطنية، الشريفة منها، أو غير الشريفة. بصراحة، اهتمامي منصب على منظمة القاعدة بالذات، ابني لديهم، أريد استعادته.

«مختطف؟».

«لا، يعمل معهم».

«إن لم يكن نفذ عملية انتحارية، فهو في طريقه إلى القيام بها خلال أيام، أو ساعات. كيف جئت إلى العراق؟».

«ساعدتني المخبرات السورية».

«لكنك تسعين بالأمر كان».

«إذا كان الله مع القاعدة، فأنا سأتعامل مع الشيطان».

«لا تأمل كثيراً، فات الأوان على استعادته، هنا إذا استطعت

الوصول إليه. لمعلوماتك، الأخبار سجلت سبع عمليات انتحارية خلال اليومين الماضيين. إذا شئت نصبحني، اسأل عنه في المستشفيات والمشرحة، ربما رآه أحد المصابين وهو يفجر نفسه، أو أصيب في أحد الاشتباكات، قد تعثر عليه جريحاً، وعلى الأغلب ميتاً. إذا كنت محظوظاً تجد شيئاً منه، تأخذه تذكيراً تعود به إلى سورة مطمئناً إلى أنك لن تعيش بوهم أنه ما زال على قيد الحياة.

هل هذه هي التذكارات الأخرى؟ لم أتصوره بهذه الوقاحة والفظاظة، قلت له:

«عد بي إلى الفندق».

استدرت عاتقاً إلى حيث أوقف السيارة. لحق بي، سبني بهض عطلات، فتأخرت عنه، وتبعته على مهل. لم أتبه إلى الشخص الذي حلزاني واقترب مني، مال عليّ بكتفه، دفعني نحو الحائط، حاولت أن أبعد عني، بسرعة خاطفة لوى ساعدي، وأطلق نفي بيده، وهمس في أذني: (الرجع إلى سورة فوراً، دون تأخير). ثم أفلتني وعاد أنزاجه بخفة إلى الشارع. كان شاباً طويل القامة بليس حطة وعقالاً، ووجهه شديد السرة، هنا ما لاحته منه قبل أن يتلعه الزحام.

علق فاضل على الحادثة التي لم تستغرق سوى بضع ثوانٍ:

«لو كان يريد عطفك لما هدتك، الأميركان يريدونك أن ترحل من دون إبطاء».

في الفندق، كان الميجور قد ترك لي رسالة صغيرة، سهرج صباحاً باكراً على الفندق، وشرب القهوة معي قبل الذهاب إلى عمله.

أدركت أنه سيحضر للمرة الثالثة، عسى أن أهاج وأطلب العودة، وبذلك يكون التحذير قد أثمر. اتصلت بفاضل قبل أن أنام، قلت له أن يوافيني غداً. قال لي:

«ما الذي جرى؟».

«لن أضيع الوقت، سأسال عن ابني في المستشفيات».

وتفاديت التطرق إلى المشرحة.

الرسالة الرابعة

وأذكر فيك، لقد أعطأت بحميتك هموماً لا تعينك.
كان يجب ألا أطلعك عليها، وأن أسافر حاملاً همومي معي.
أعطاتي تخصصي وحدي، وأنا المسؤول عنها.
منى سأعود! ليس كما فندت، بقاتي سيطول.
لم أعطُ خطوة واحدة حتى الآن.
لا أستطيع التخلي عن سامر، إن فعلت فسوف أتدم طوال حياتي.
هذه فرصة لي كي أصلح بعض الأمور التي أهملتها،
وأيضاً شيئاً لا أندري ما هو.

ما هو الشيء الذي لم أدر ما هو؟

كانت رداً على عبارة وردت في رسالتها، استوقفتني لحظة قرأتها لها، أظففتني على الفور، تجاوزتها بسرعة، شيء ما عن أمر ينبغي إصلاحه أو استراكمه، تاه عني في اللحظة التالية. عندما فتحت باب الغرفة وخرجت، توجهت أنني نسيت، رغم أنه ترك في داخلي أثراً ممضاً، تعسر عليّ تحديده. فأردت الرجوع لأقرأ رسالتها ثانية! يد أنني كنت قد توجهت نحو المصعد.

ما أثارني، تجنبت من دون قصد، وكأني عن غير وعي مني أردت تخريبه لا إصلاحه. هذا ما عكّر مزاجي. أنا لا أجهل تصرفات سناء، نكتفي بالتلميح، ونخشى من التصريح. لم أدرك هذا إلا بعد مضي فترة طويلة على علاقتنا.

تعرفت إليها قبل ثلاث سنوات، صادف جلوسي إلى جوارها في باس البرلمان، كنا سائرين إلى حلب، هي لزيارة صديقة، وأنا لأجري مقابلة مع ناشط إسلامي سابق عرج حديثاً من السجن. كانت في الساعة والثلاثين من عمرها، بدت أصغر من عمرها، فيما بدت أكبر من عمري، وكان من الطبيعي ألا نظن أن إقائي التحية عليها بهدف التحرش بها.

تبادلنا أحاديث متنوعة ورصينة، تطرقنا فيها إلى الطقس والكتب، نداعت إلى تعليقات كانت بمعظمها حول الأحداث السياسية الدائرة آنفذاً، وما استجرت من تدخل عربي، كان الأميركان قد احتلوا العراق. استعدنا سقوط بغداد قبل أشهر، ولم نكن والتقين مما قبل عن بدايات المقاومة، ظننا أنها مجرد شائعات.

عسوماً لم تحقق أراؤنا، لكننا لم نخلف على شيء.

لم تمارس سناء أي عمل، تخرجت من كلية العلوم السياسية، تزوجت قبل أن تبحث عن وظيفة، وانشغلت بالزواج والقراءة والأحلام. ولم تتابع الأخبار السياسية لمشاكل المنطقة والعالم إلا تحت تأثير دراستها. قضينا وقتاً مستمتعاً، لم نحس بطوله مع أنه امتد عدة ساعات في الباص، يرافقنا على شاشة صغيرة مثبتة بالعالي في المقدمة، فيلم كوميدي مصري، نلتقط منه مصادفة بعض المشاهد المضحكة. لم نتوقع أن همونا الشخصية منقرب يتا على الرغم من عوائلنا المختلفة، غير السوية والمعقدة فعلاً.

خفف عني تبادل الحديث معها بعضاً مما عانيته مؤخراً من عبارات شائقة كنت قد اتخذت قراراً بالطلاق صارت به أولادي. وكان الموقف قاسياً بالنسبة لي ولهم. أهدمت بتشتيت شمل العائلة، ولم أشأ الدفاع عن نفسي.

عندما وصلنا إلى حلب، كان لدينا متسع من الوقت، فدعوتها إلى فنجان قهوة. قبلت ولم تخف سرورها بالتحرف إلي. أنا أيضاً لرتحت إليها. بدت قوية الشخصية لا تقبل وزناً للأقاويل، رغم أنها كانت تمتاز مرحلة سفة من حياتها، مرحلة التحرر مما قد يخلفه زواج فاشل ومقبت، لكنها في أعمالها، لم تستطع التخلص من المرأة الخائفة التي تربض في داخلها. امتد زواجها لسنوات عدة بفعل عتالة العيش اليومي. لم تجرؤ على طلب الطلاق رغم عيانات زوجها المتكررة، المرأة المطلقة لا ينظر إليها الناس باحترام، ويسمى كل من هب ودب إلى اقتناصها، بالإضافة إلى فكرة حفاء أخرى استولت عليها، وهي التثبت بزواج كان ثمرة

مأثرة غرامية، لا يصح التفريط بها، وكأنها إنجاز يُعَدُّ به. كان نطقها الشديد به قد أذاها كثيراً.

ولم تترك إلا بعد وقت طويل، أن هذه المأثرة كانت نتاج مراقبة مضطربة، لا تزيد عن امتنان ساذج وعاصف، لكن بعد أن كلفها الكثير من المنصات المهينة.

وفي ذلك الوقت، أو ذلك العصر، كان الحب مغامرة رائعة يستحق المرء أن يميش من أجلها، أو يموت من جرائها.

لم نذهب ضحية، كان مجرد عشق باطل.

ما تخوفت منه أجبرت عليه، كان زوجها قد بدأ يتعادي بتصرفاته اللامبالية، بقصد دفعها إلى طلب الطلاق، لم تستوعب إصراره على متأكدتها، غير أنه في النهاية وضعها أمام الأمر الواقع، وغيرها بين احتمالين، ولم يقبل أي نقاش حولهما.

كانت رحلتها هذه، رحلة ما قبل الطلاق، أو القبول بأن تكون الزوجة الأولى إلى جوار زوجة ثانية، كانت هناك امرأة في حياته، وعلى وشك الزواج منها.

كان أكثر ما استلقت اهتمامي بها، حياتها الجوانية، ولم تكن فارغة. كانت تكتب الشعر، لیس تنوعاً على تلك الأوجاع الرومانسية المستهلكة، أو مديحاً لمشاعر مبتلاة بالحساسية، وإنما في تصنيع حياة عيالية، يشكرها عفرها النزق الكئيب والمتوهج، مع نظرة حادة تخترق ذلك المزيج المعجب، المتخبط والكثيف والمتناقض لعقلها وروحها وأعصابها المتخلبة في أعمالها. كانت

قد دفعت بدوانها الأول إلى الشر. فرأت علي بعضه، لا أقول إنه كان جميلاً، كان مدهشاً. ربما في تلك اللسنة التي جرحني في أعصابي المتوحدة، وكانت لا تحتمل من فرط رقتها، امرأة لا تصاح للألم، بقدر ما تخضع للزمن، تلك كانت أعجوبة ونقطة ضعفه. لم أعتبر عن رأي، خشيت أن تعقد أنني أجمالها. شجعته فقط.

لا بد أن الشيء الذي استوفقتني في رسالتها وتجنبت أمر يخص علاقتنا. تردد الخاطر في رأسي وأنا أنتظر المصعد، أردت أن أرجع لأتأكد، غير أن المصعد انفتح باب، وصرت في داخله، الفضول غلبني، فكرت وكذبت أن أرتدّ صاعداً إلى غرفتي، لكن هذه المرة، انفتح باب مصعد الطابق الأرضي، لأرى الميجور حسب الموعد يتطرنني في بهو الفندق.

وربما لأنه لم يعد يوسعي المصعد، غضبت من الميجور الذي لم يكن يحمل جديداً، أبدت تبرمي من هذا التأجيل المتواصل بسخرية كانت في محلها:

«هل عثرت على الجاسوس؟».

«الأمر لا يتعلق بجاسوس، بل أسوأ».

«الأسوأ ما يحدث سي، التوت يضع في الضجرة».

«الضجرة!! نمة إثارة عاتلة في المنطقة الخضراء، البعض لم ينادرها منذ ستة أشهر، إلا مرة أو مرتين، يدبرون أعمالهم من داخلها. لماذا لا تتلى مثلهم بالشراء، هناك أسواق أخرى، تحتوي على

كل شيء، مع نزولات حقيقية؛ سجلات من نوع «تشرشلز» تجدها
 بربع المئتين المصروف في أي سوق حمرة أوروبية، وسجلات
 «كوهياس» بأقل من ثلث تكلفتها، وبضائع تبينة بأسعار زهيدة.
 «لست رائق المزاج لهذه الرفاهية».

«هناك نشاطات أخرى، لو اطلعت على لوحة الإعلانات لوجدت
 شيئاً يعجبك، هناك فس بروتستانتي يعطي دروساً في التوراة
 والإنجيل، لماذا لا نسمع إليه؟»
 «لا أحتاج إلى دروس، أنا مسلم».

«لقد نسيت، لا يبدو عليك أنك مسلم...».

«ربما لأنه ليس للمسلمين جمجمة تميزهم عن غيرهم».

لم أستطع إغفاء عدوانتي، وكان جوابه تعليقاً غير موفق عليها:
 «أفعد أنك مسلم جداً».

كان قد وقع في زلة أخرى، فاستفرك:

«خطر لي أنك غير مسلم، وأن ابنك اختار الإسلام عندما اختلط
 مع الإرهانيين. لا تلمني، في أفغانستان قبضوا على شاب أمريكي
 اعتنق الإسلام، كان يقاتل ضد قوات بلدنا».

لم أدعه يكمل، كان يمكن لهذا النقاش العارض أن يمتد إلى ما
 لانهاية دون فائدة، ما دام يعتقد أننا كأبناء متشابهون، أما كبشر
 فمختلفون.

«هل المطلوب مني مغادرة العراق؟».

فاجأته بسؤاله. ذهش، لم يعرف ما المقصود. فأعبرته بالتحذير الذي تبليغه البارحة في شارع الرشيد:

«ما الذي تريدونه... أن أعود من حيث أتيت؟».

«عندما لا أرغب في وجودك، فلن أُلجأ إلى هذه الأساليب البوليسية المظلمة».

أثرت لديه تخمينات غير مطمئنة، مبعثها أنني أصبحت مراقباً، ولم أعد مهمته السرية، وإنما مهمة مكشوفة، هناك من يرغب في إبعادي، لم يستبعد أن يكون هناك في الجانب الأمريكي، من يريد عرقلة مهمته، لكن من يعرف بأمره قلة من الضباط الكبار، والأكيد أن لا أحد من شركة «ميسرا كورب» الذي هو على خلاف معها، يعلم بوجودي، إلا إذا كان قد تسرب إليهم، وهو احتمال ضعيف.

قلت له، مهما كان المقصود، لن أتعذ أوامر من أحد، يهمني أمر واحد، أن نياشر العمل بالقرب وقت، كل دقيقة تأخير تعني إعطاء فرصة لآبتي كي يتحرر.

عندما لم يجب، لم أجد بداً من مصارحته:

«قد أستغني عن أية مساعدة من طرفكم، وأعمل منفرداً عنكم، ليس عسراً لإيجاد مكان آخر أتقل إليه في بغداد».

وجدتها خطوة جنونية، هتف متسائلاً:

المانا لا تتق بي عطفاً أنتي بك. ١٢.

كان متأثراً أكثر من غاضباً مني، علل ثقته بي بأنها طبيعية وفي محلها، ومثلما لا يداخله الشك في، فعلي أنا بالمقابل ألا أجعل من عرويتي أو إسلامي عائقاً بيننا. والآن لن يخفي عني، لقد استخرجني إلى بغداد كي يستظني لتحقيق تقدم في مطاردة تنظيم القاعدة. وبحق لي الاعتقاد بعدم أعتابية تصرفه. لكنه لن يمانع بإعادتي إلى بلدي لو غيرت رأيي. ما يجب أن أكون متأكداً منه، هو أن له مصلحة حقيقية في العمل على قضيتي.

كان غضبي قد بدأ يشتعل، قلت له:

ولن أعود إلى دمشق قبل أن أظفر على الأقل بخبر يقين عن سائر، لن أتهور وأهدد فرصتي، لكن إذا تطورت لي فرصة الإقلام على خطوة تزيدني اقرباً منه، فلا تتصور أنني أتردد.

هل للمسكرين ملامح موحدة؟ هكذا كنت أظن. لكن تلك البارقة أثبتت أنني على خطأ، أحسست لحظتها أنه أسقط تلك الملامح عنه، كانت تملحها عليه الرتبة التي يحملها. وأن هناك ملامح أخرى مختلفة تماماً، كانت ملامحه الحقيقية. أكدت تلك الهشاشة التي استشعرتها من قبل ونحن في الطائرة. كان أشبه بمن يطلب نجدة أو تأييداً، كان بحاجة إلى فعلاً، المحتر أنني لم أعرف كنه هذه الحاجة، لكنه سلسرها لي:

ولا تتصور الحياة مريحة هنا، أمارس عملي تحت ضغوط هائلة، لا شيء، برضيتي، وإذا شعرت أحياناً بالرضا، فلنكني أتجاهل على عجزتي وأكافئ نفسي بمقابل ما. أحسست مراراً بحث ما أقوم به

من أعمال. ما تمنيت فعله هو الذي جاء بي إلى العراق. لكن ما حصل وبحصل ليحط من عزمي. أكتب إلى زوجتي رسائل تحمل من الحيرة شيئاً لا علاقة له بأي يقين. أريد شخصاً أصارحه بما يفلتني، لا أطلق ما أفعله. تصور أنا أكذب عليها وعلى أولادي، ولا أتجرأ على مصارحة أحد في عملي بما يختلج في صدري».

أدهشني اعترافه، كان بحاجة إلى شخص يثق به كي يقول له إنه يكذب على زوجته وأولاده!! هل كنت بالمصادفة هذا الشخص؟ المصادفة الأخرى، كان كل منا بحاجة للآخر، وهذا ما وثق الأواصر بيننا على الرغم من اختلافنا واختلافاتنا، وإذا كان قد فتح لي قلبه، فأنا بالمقابل فتحت له قلبي، قلت له وأنا أشدد على كل كلمة:

«لدي مسألتني أنا أيضاً، إنني راغب في التعويض عن تقصيري حيال ابني».

«ولو كان في البحث عنه قضاء على حياتك؟».

«عندئذ سيكون التعويض ملائماً».

أثاره جوابي. وفي الوقت نفسه صفا الجو بيننا. أحسست أننا أصبحنا أصدقاء فعلاً. وبات بالإمكان ألا يخفي أحدنا شيئاً عن الآخر. كنا مأزومين في داخلنا، ولزاه بعضنا مقلوبين على أمرنا. وهذا ما سمح لي بالاسترخاء. وسمح له أيضاً بالكلام، فبشني بعضاً من عسره حول مجربات التحقيق الذي يقوم به:

«الاصطدام لم يكن حادثة مرور عادية ولا عرضية، بل حادثة قد

ينجم عنها قضية كبيرة وعظيمة، لا يمكن البت فيها اعتبارياً،
 لفلنك ماظلمهم. تبين له خلال التحقيق الذي بدأ قبل يومين، وما
 زال يتحرر، أن السيارة التي تدعورت على مقربة من مدخل المنطقة
 الخضراء، كانت تسير بسرعة كبيرة جداً، نقل قائد المجموعة
 وهو ضابط برتبة كابتن والسائق ومعهم متعاقد مدني برفقتهم
 عميل عراقي، لم يكونوا مغمورين، كانوا مطاردين من الشرطة
 العراقية التي أبلغت عن رجال القنصموا أحد البيوت الواقعة على
 أطراف منطقة الضلوعية، فحشا سكانه ثم أطلقوا النار عليهم وفروا
 هاربين. الشرطة العراقية ضبطت السيارة وعندما اقتربوا منها
 اكتشفوا أنها سيارة جيب أميركية طراز هامفي ومعها سيارة أخرى
 من الطراز نفسه تساندهما مدرعة برادلي تلحق بهما وتحرسهما
 عن بعد، اتصلوا برئيسهم فقال لهم تاهوهم، لهاكم واعتراضهم.
 سائق عربة الجيب لاحظ أنهم يلاحقونه عن بعد، حاول الإفلات
 منهم، فزاد السرعة. عندما اقترب من المدخل، فقد السيطرة على
 السيارة واصطدم بالأعمدة الإسمنتية. فانتقلت الجيب بهم، بينما
 تجاوزتهم السيارة الثانية والمفرعة البرادلي وتابعتا السير نحو
 الداعل. حاول رجال الشرطة العراقية إنقاذهم، ساعدوا في نقل
 المصابين إلى الحاحز، تسلمهم رجال الإسعاف في مستشفى
 الوحدة الثامنة والعشرين داخل المنطقة الخضراء. مات اثنان؛
 المتعاقد المدني والعميل العراقي على الفور، وبقي على قيد الحياة
 اثنان أحدهما في غيبوبة وهو الكابتن هاري كيتل، والسائق
 مصاب إصابة بالغة، لم يعش طويلاً، لفظ أنفاسه بعد يومين.
 عناصر سيارة الهامفي الثانية متعاقدون أمريكيون من جنسيات مختلفة،
 تعددهم أربعة أشخاص بينما عناصر المفرعة برادلي من الجنود
 الأميركيين، قالوا إنهم لم يشبهوا لما حدث للجيب، إلا بعد

اجتيازهم المدخل، ظنوا أنه حادث بسيط، وأنكروا علاقتهم بأية مصادمة أو غارة حقيقية، مجرد عملية تخريب على إنذار وهمي. غير أن أقوالهم لم تكن مغلقة.

استعانت الشرطة العراقية بسرية من الجيش، أحاطوا بالمنزل الذي ارتكبت فيه الجريمة، وجرى نقل جث الضحايا إلى المستشفى. كان عددهم ثمانية، رجلان وامرأة، وثلاثة صبيان أكبرهم في السادسة عشرة من عمره وأصغرهم رضيع، وفتاتان الأولى في الخامسة عشرة من عمرها والثانية تصغرها بستين.

من التجاوز القول إنها كانت أجساداً بشرية، كانت من فرط ما عوملت بقسوة، وما أصابها من تشكيل بشع، تثير التنفر والإقواء، وتبحث على الرعب لمجرد التفكير بما تعرضت إليه من تعذيب عميق، كان ظاهراً على الرجلين والمرأة، آثار حروق على الوجه والأعضاء الحساسة. الرجل الأكبر وهو الجد، عجوز تجاوز الثمانين من العمر، مات بعد أن تلقى عدة ضربات متوالية على صدغه بعقب بندقي أطاحت بعنه اليمنى وفتحت فجوة في رأسه كشفت عن نخاع الجمجمة، وكانت القاضية. أما الرجل وزوجته فقد ماتا ذبحاً بعد أن وجهت إليهما في الخاصرة طعنات عميقة بالحرية. الرجل ثمر بطيه، والمرأة جُرُّ ثدياها، والعيان أعدما رمياً بالرصاص، أما الفتاتان فتم التمثيل بأعضائهن التناسلية بعد قتلها خنقاً.

أما لماذا ارتكبت هذه الجريمة الشنيعة؟! وما الهدف منها؟! فالأمر مجهول، وليس كما حاولوا الإيهام به، بما كتب على الجدران بالخط الأسود العريض والقلم العملاق، قبل الأمر كان، الأب الشيخ

ليس في وارد العمالة للاحتلال، بل كان ضده، كما أن العمالة بسيطة ورقيقة الحال لا توحى بأي نشاط غير عادي يثير الشكوك، إذا لماذا كل هذا التشنيع؟ إذا كان العميل العراقي قد ورط المجموعة بعملية نهب، فالمعائلة لم تكن ثرية. وإذا كانت عملية مدهامة، فلماذا لم يحصلوا على إذن، أو يبلغوا عنها؟ بالعكس، ابتدعوا فكرة التدريب، لأنه لا يحق لهم شن غارة إلا بعد الموافقة عليها.

هل ينجم عن عملية تدريب مثل عائلة بكاملها؟!

قطع حديثنا فقوم جوناثان، كان سيرافق السيجور إلى التحقيق، فدعوته إلى فنجان فهوة، جلس إلى جانب ميلر، وكان مهتاجاً، أبلغه بأن ما كان يخشاه قد وقع، حاول الاتصال ثانية ببعض أهالي الأولاد في أحد أحياء مدينة الصدر، فوردته أخبار اليوم بأن أولاداً ثلاثة اختطفوا البارحة من صالة للألعاب بلمسون جينزات ضيقة يُعتقد أنهم شواذ، تعرضوا للتعذيب ونقلوا إلى مستشفى قريب بحالة سيئة يعانون من كسور في الأيدي والأرجل، الأطباء رفضوا معالجتهم خوفاً على أنفسهم، فأسحقوا إلى مستشفى أخرى بعيدة في بغداد. اهتمت لجنة حقوق الإنسان بأمرهم، وكلفت مندوبة تدعى ديمي فريمان بالذهاب إلى المنطقة الخضراء، كان الوقت ليلاً، لم يتسكن من مقابلتها فاتصلت به.

ولم تصدق أننا نرهب حمايتهم، قلت لها معلوماتنا ضئيلة ولا تسمح لنا بالتحرك بسرعة، فوعدتني بأن توافيني بمعلومات واثقة عنهم، على أن يتم تأمين حماية للمسعفين من الأولاد خلال ساعاته.

طوال الليل وهو يحاول الاتصال بمسؤولين في وزارة الداخلية لإرسال قوة إلى المستشفى، وعدوه ولم يتفلسفوا، لم يعرف هذا إلا قبل قليل عندما اجتمع بالمنتدبة فرهمان، كانت تحمل أعباءاً جديداً، حراس الشرطة أجهزوا على الأولاد في المستشفى.

ولا بد من تجهيز قوة للبحث عن البقية قبل أن يلاقوا المصير نفسه.

لم يستطع ميللر أن يعطيه وعداً، الفصيل مع المدرسين تحت التحقيق، لكنه سيصل بالكولونيل ضابط الارتباط، وسأله فيما إذا كانوا جادين حسب زعمهم بإنقاذ الأولاد.

قبل أن يخاطر مع معاونته، وعدني الميجور بالقدوم غداً مساءً إلى الفندق. لديه مشاغل سينجزها اليوم، أو غداً على أبعد تقدير، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا ببذل جهد كبير. سينفله ولن يوفره من أجلي.

لحظة خروجهما من المدخل، عبرت على ما استلقت اهتمامي في رسالة سناء، كان إلحاحها على شيء عبرت عنه بشكل مفرغ: (العذاب الحقيقي أن يكون لدى المرء المقدرة على أن يهب الحياة، لكن الظروف لا تسمح له سوى بالقتل!).

ما الذي تفعله بكلماتها هذه؟!

سارعت إلى كتابة رسالة لها، قبل لقائي بفاصل.

الرسالة الخامسة

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

(أفلقيني، ما الذي تخفيه عني؟)

لم أفهم شيئاً من رسالتك، لا سيما فكرتك عن العذاب الحقيقي!!
رجاء لا تلمحات.

تطمئن، لا أسرار بيننا.

مهما كان هذا الشيء، أريد مشاركتك به).

□□□

لن أرى السجور ثانية، قبل أن أغير إلى الجحيم العراقي.

طوال جولتنا، أنا وفاضل، لم يتميز مستشفى عن آخر إلا بالاسم،
تشابهت الردعات والممرات والأطباء والمرضون والمرضات

والموتى والجرحى... وهلع الأهالي ونحيبهم. القاعات تضج بصرخات رجال ونساء نجوا من الموت السريع بالقنابل والصواريخ الأميركية، وهم الآن يعانون من الموت البطيء، جراحهم تنزف دماً وثحباً. مصابون بنزلات الشظايا لهم ساقاً أو يداً، وأطفال خلقت لهم حروقاً من العرجة الأولى والثانية، وثمة أطفال، منهم الموتى، ومنهم من كان غالباً عن الوعي يحتضر بصمت.

تفلقنا بين الأسرّة، شبان أصيبوا إصابات بالغة، جرى إسعافهم بجراحات متعجلة من دون تلقي أي مسكن للألم، الأجساد والرؤوس ملفوفة بالشاش، المحاقن مزروعة في أيديهم. بعض جرحى الإصابات والكسور غير المميتة افترشوا الأرض لعدم توفر أسرة كافية. الأطفال تحنر الذعر على وجوههم، نساء عجائز يهذهن بشفاه شققها الجفاف، رجال كبار في السن يتنون من الألم... جاؤوا بهم في حالة متردية من سوق أو مطعم أو مركز تطوع، وبعضهم كان في عرس أو جنازة، إثر هجوم أميركي، أو هجمة انتحارية أو تفجير سيارة مفتوحة.

أرقتهم صورة سامر، سألت هؤلاء الذين ما زال بإمكانهم أن يحدقوا إلى الفراغ ويتذكروا شيئاً ما من خلال الحرائق والدخان والرماد، هل وقع بصرهم على هذا الشاب؟

«حاولوا أن تخيلوه بلحية».

تري هل رأوا شاباً يكشف عن صدره، فإذا به يلف حول خصره حزاماً ناسفاً، يكبس على زر، فينتثر إلى أشلاء، بينما اشتعل الفضاء بألسنة اللهب؟

لم يذكروا سوى الطائرات التي انقضت عليهم، والهلع الذي أطار صوابهم.

الأهالي متجمعون كل ثلاثة أو أربعة يهرهرون بأصوات مبحوحة، وجوههم شاحبة وهم يحسبون دموعهم، جازوا يحثون عن أب، أم، أخ، أو ولد، إن كانوا أحياء، أو أمواتاً قبل نقلهم إلى المشرحة، يتفحصون الجثث المشوهة، عسى يعثرون فيها على شيء يشبه ما تبقى من ملامح وجه فقيدهم، أو جسده، ربما عين، شارب، أسنان، أذن، مرفق، ركبة، خصر أو إبهام، أو علامة فارقة على ساعد أو صدر، أو عانة.

توقفنا مع طبيب، كان صديق فاضل. انسحب لتوه من تجمع لأقرباء يواسون أباً وأماً برقعة ولديهما المشوهين، كانت أطرافهما محروقة وقد نفختم الجلد، جراء غارة بالطائرات، وأصيبوا بطريق الخطأ وهم يعملون في الحقل.

والن يتفني اليوم حتى يفارقنا الحياة.

دارى الطبيب وجهه عنهم وهو يقولها هامساً، وطلب من الممرض إبلاغهم بالرحيل اليوم:

«أن يموتوا في بيوتهم أفضل».

شيان يتشاورون فيما بينهم، اشتبهوا بحثة على أنها لأخيهم الأكبر، فقنوه في تفجير فرن، لم يبق منها سوى الجذع والساق، الجذع يكاد يكون له، أما الساق فلا! استوقفوا الطبيب وسألوه. قال لهم، ربما الثوت أو التصق بها شيء من جثة أخرى. نصحبهم

أن يأخذوا الجنة معهم ويدفونها حتى لو لم تكن لأحبهم. قبل أشهر، أعدت أم جنة ولدها، ولم تكن تزيد على كتلة من اللحم المحروق، تراعى لها أنه ابنها البالغ من العمر أربعة عشرة عاماً. كانت غير متأكدة فيما إذا كان ابنها. قالت، على الأقل تصبح لدي شاهد غير أبكي عندها.

تعلمنا من هذه الأم، ونصحنا الكثيرين هذه النصيحة ونجحت مع بعضهم.

طفل في حوالي العاشرة من عمره يده مقطوعة، كان يسأل أمه وأباه وأخوته عنها، كانوا حول سريره يستمعون أنفسهم عن البكاء، لا أحد منهم يتجرأ على إخباره بأن فراقه المقطوعة كانت إلى جواره ملفوفة بالشاش في داخل كيس. طفل يزحف على الأرض، جاؤوا به مع امرأة قتيلة من ساحة سوق الخضار إثر انفجار قبل عشرة أيام، لم يطالب به أحد حتى الآن! تقاسمت الممرضات إطعامه والعناية به، المسكين ما زال يبحث عن أمه. إلى الجدار استندت امرأة صغيرة لا يزيد عمرها على عشرين عاماً، تبكي وإلى جوارها شاب يبكي هو الآخر، كانت قد وضعت في شهرها السابع صبياً عديجاً. الكهرباء انقطعت، لم يعمل مولد الكهرباء أكثر من نصف ساعة ثم تعطل، فمات ولدها في الحاضنة.

كل شيء معطل، جهاز الصدمة الكهربائية، جهاز التنفس الصناعي، ولا معدات لنقل الدم، أو أجهزة لقياس الضغط.

لا شيء في المستشفى نظيف. روائح الدم والقيء والبراز والوعم تعين في الدهايز، لا تفتح الأبواب والنوافذ المفتوحة في طردها. أغطية الأسرة متسخة، اختلط بهاضها الكالغ بالوحل والهباب،

الأرضيات قفرة ملطخة بالسخام، المراحيض قائمة بمياه المجاري. رفوف الصيدلية عفاة.

«لا أدوية ولا أدوات معقمة، أو محاقن للأدريالين».

في غرفة الطوارئ، يضع نقالات مضمخة بدعاء متخثرة، لونها ضارب إلى السود. غرف العمليات تقتصر إلى الأدوات الجراحية. والجثث مخزنة من دون تبريد.

«طالبنا بزيادة عدد غرف التبريد ثلاثة أضعاف بعدما اضطررنا إلى تكديس ٢٥ جثة في كل غرفة، بينما هي تسع لعشر».

كانت حرب الجثث قد تفاقمت منذ أربعة أشهر.

في الليل تفرق بغداد في الظلام ومنع التجول، لا تتحرك فيها سوى دوريات الأمن بشكل محدود ومن دون جدوى. فرق السموت تستبجها، تشاركها ميليشيات مسلحة يرتدي عناصرها لباس مفاوير الداعلية ويحترقون الكوفية السوداء، يرتكبون جرائمهم بالزي الرسمي حرصاً على الشرعية. بينما الميليشيات الإسلامية الأصولية تتجسس عن ضحايا جدد، ولا يخلو الليل من شأن يسعون للانتقام لأخ أو أب، وأخرون للمشروع، أو لتصفية حسابات قديمة...

تجمع الشرطة الجثث المنتشرة من الأنهار والمستنقعات والساحات البعيدة، من تحت الجسور المهجورة ومكبات القمامة، أو تبرز صباحاً من بين أكياس القزبالة والنفايات وتنقل إلى مشرحة بغداد ضباط سابقون في الجيش، أساتذة جامعات، علماء أطباء

اعتصاميون، مشايخ دين، عمال نظافة... التمثل بالجنث والقتل براوح بين الذبح والخنق والسحل واستخدام المثقاب الكهربائي.

واليوم جلبوا إلينا أربعة شبان، عثروا على جثتهم طافية في نهر دجلة، تعرضوا للضرب المبرح، كُوي بعضهم بالمكواة الكهربائية، ثم أجهز عليهم برصاصات في الرأس. أخذتفوا البارحة مساءً من حي أبو دشير الشعبي حوالي الساعة العاشرة، واقتيدوا مع عشرة شبان إلى مكان مجهول، لم يعرضهم أحد مع أنهم مروا أمام سيطرة تابعة لشرطة الحكومة الانتقالية، ربما كانوا بحمايتهم. بقية الشبان لم يعرف مصيرهم بعد.

لا يتأثر حي معين بالقتل على الهوية.

يمكن العثور على الجثث في الأعظمية والكاظمية، أو في منطقة الشعلة والصدر والزعفراتية وجسر دهالى والدورة. بقية المناطق أيضاً ترغدنا بالكثير من الجثث.

حسب دورات العنف ومواسم الغليان المنفي.

وفي النهار يتصيدون مترجمين لجيوش التحالف والشركات الأجنبية، سائقين، وعمالاً وأناساً وجدوا بمحض المصادفة في المكان الخطأ.

منظمة القاعدة مصرة على استهداف المتطوعين في أجهزة الأمن من أي طائفة كانوا. وميليشيات الأحزاب الحاكمة أخذت على عاتقها مهمة اجتثاث البعث، تقوم باعتطاف البعثيين السابقين من بينهم ومن الدوائر الحكومية والمؤسسات والمدارس والجامعات،

واعتمادهم سواء كانوا من المسؤولين للكبار أو الصغار سابقاً في الحزب.

لم يكن في نيتي الذهاب إلى أبعد، ولا أن أعرف أكثر. ومع هذا عندما قال قاضل ستابع طريقنا إلى مشرحة بغداد، لم أمانع.

طالعنا قبل أن ندخل أكوام البحث في الخلاء خارج المشرحة، مغطاة بأغطية زرقاء، تنفخ تحت الشمس. إلى جوارها توقفت شاحنة مكشوفة الصندوق، تحمل ضحايا انفجارات محطة النهضة الذين لم يتعرف إليهم أحد البارحة، تجتمع حولها بعض الأشخاص، اعتلاها أحدهم ثم نزل مسخوف اللون منثوراً، كان يبحث عن أمه وأخته، لم يفلح، جميع البحث عبارة عن جنوح سواء يصعب التعرف إليها.

أمام الباب عجم اللفظ والنحول والحيرة، الحر تمدد وأصبح كتلة ضخمة من لبيب حارق، يوزج تحتها الأهالي المتجمعون كأنهم في فرن حار، رطب وديق، محتقني الملامح، يشكون لبعضهم بعضاً مصائبهم، نواسيهم شراكتهم بفجعة لا راد لها مقبلة، يتبادلون الهوان وقد تملكهم إحساس بالتأزر، يُعززه الشجق والنهنيات والزفرات، يلتقطون أنفاسهم، يكفكفون دموعهم، ويستعينون على القضاء والقدر، بالله جل جلاله، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والإمام علي رضي الله عنه.

«ألا إلى الله تصير الأمور. صدق الله العظيم». غمغم رجل عجوز ألقى على الأرض، يرمق الحشد بعينين غائرتين.

امرأة تظنعت بالسواد حزناً على زوجها وولديها، كانوا في سيارتهم

الخاصة خلال عودتهم من متجرهم في شارع الرشيد، قتلوا عند حاجز أمريكي، وجدت السيارة إلى جانب الطريق مستقلة بالظنوب، لكن لا أثر لهم. منذ ثلاثة أيام وهي تجلس أمام المشرحة منذ الصباح الباكر حتى الساعات الأولى من المساء بانتظار تسلّم جثتهم بعد أن استدلّ عليها موظف وفق العلامات التي حددتها له، لكن تزايد أعداد القتلى عرقل عملية التسليم. وأخرى قُتلت ابنتها وزوجها ولم تنجح في العثور على جثتهما رغم مرور أسابيع على وقوع الحادث. إلى جوارها رجل قتل شقيقاه في منطقة الدورة عندما اعترضت جماعة مسلحة حافلة كانت تقلهما إلى الجامعة وأعلنت جميع من فيها. شاب لم يعثر على جسد أبيه، عشر على رأسه، ضمه إلى صدره وأخذ يبكي، خلع قميصه ولفه به، سلفته بلا جسد.

فجأة، تعالي صوت نواح هيستيري، غلبت فورة الحزن عجوزاً برفقة ولديها تسلت للثو ابنتها وقد تهشمت جمجمت، فصرخت بقلب انفطر من الألم، تطالب أخويه بالثأر له. نظر الواقفون إلى العجوز بحسد، لقد وجدت ابنتها.

يشورداً يومياً الحفلات من الرجال والنساء من أهالي بغداد والمحافظات الأخرى، إلى المشرحة المركزية لتسلم جثة قريب لهم، إذا كان معلوم الهوية يحملونها معهم عائدين بها لإقامة العزاء. وآخرون لا يجنون أرباحهم، فيعودون بلا جثة، بعض القتلة يتلفنون بحرمان ذوي القتلى حتى من جثتهم.

غالبية الواقفين يتظرون الحصول على إذن بالبحث بين الجثث في زوايا وممرات بناية صغيرة، تدعى «الثلاجة» رغم أنها شبه مبردة،

تسكنها راحة الجثث المتفخمة والمتنفسطة. الجثث مرصوفة
 كيفما اتفق، يحتضن بعضها بعضاً بوثام طائفي وحزبي وديني،
 الشيعي والسني والمسيحي واليهودي والملحد، لا أفضلية ولا تميز،
 دون أي فرز على الهوية أو المنصب، كلهم في الموت سواسية.

وجدت لي مكاناً أمام شبك من الحديد مع كثيرين من
 المتجمهرين اللحوحين، يتأملون الصور الملتقطة لضحايا مجهولي
 الهوية، يتصفحون ما تبقى من شقيق أو أب أو ابن، يعرضها
 موظف مرهق الملامح على جهاز كومبيوتر. أغلب الضحايا من
 الشبان والرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٥ و ٣٥ سنة.

صرخ شاب صغير السن، وضرب جبينه، عندما رأى صورة أخته
 مقلوع العينين، وأخذ يتفزع كالمجنون من على الأرض وهو يلمظ
 وجهه بيديه:

احمد، وبلي عليك.

ثم اتحنى إلى جوار الحائط يكي ويضرب صدره بقبضته. نهره
 شاب بجواره:

انتقم له بدل أن تكي عليه.

في فسحة الانتظار، دارت أحداثت الشبان حول الأساليب التي
 اتبعوها لتفويت الفرصة على الميليشيات في إخفاء ملامح الضحايا
 وتشويهها، بعضهم عمدوا إلى وشم أسمايتهم وأرقام هواتف أهلهم
 وأقربائهم على أجسادهم ليتمكنوا من التعرف إليهم في حالة قتلوا،
 لن تحير جثثهم مجهولة الهوية، تخدغن في مقابر الغرباء.

في الطرف المقابل، جماعة من الرجال يخرجون الجثث من التلاجة بسبب نفوس أخرى، لا يُسمح للجثث المجهولة الهوية بالإقامة طويلاً، الليلة الثالثة ستحمل المزيد. تقطع كل جثة رقياً، وتوضع في أكياس خضراء، تكدر بعضها فوق بعض في شاحنة كبيرة، لتطلق بهم إلى مقبرة النجف.

حارس بوابة تلاجة الموتى يسلم الجثث، بعدما صنفها حسب الطريقة التي قتلت بها، فهذا أبو الدهيل وذلك المشوق وآخر المحروق أو مفقود العين. أو جماعياً: جماعة المفضحة وجماعة الكيا وجماعة أبو غريب...

رجل يدين وقصير ذو رأس كبير، يسلم الجثث، يحملها ويرفعها إلى الشاحنة، يتناولها منه رجل عريض الكتفين مقرص في المؤخرة، ويضعها إلى جانب أو فوق من سبقها. سقطت يد من حمولة الرجل ذي الرأس الكبير، فأزاحها بقدمه ريثما رفع الجثة، ثم انحنى على الأرض تناول اليد وقذفها داخل الشاحنة.

لجنة من المتطوعين من الوقفين السني والشمي أخذت على عاتقها مهمة تسلم الجثث ونقلها ودفنها. لا يتفون سوى الأجر والثواب بصرف النظر عن هويتها، تُدفن في مقبرة خصصت للغرباء في النجف بين آلاف القبور المتشابهة لا تحمل سوى أرقام غطت على شوارع طينية حتى يتمكن ذووها من العثور عليها.

سواء الذين حالتهم الحظ ووجدوا جثث أربابهم، أو أولئك الذين لم يحالفهم، لا شيء يُسي الأم ابنها، ولا الأخ أعاء، لكن تكسر قلوبهم تلك البلاد التي يعامل بها أحبائهم، وتواسيهم بأساة تفرق

مأساتهم، وفجعة لا تماثلها فجيعتهم، مبقولة في المشرحة لا تخفي تنكياً وأحقاداً لا يمكن غفرانها: جثث مقطوعة الرأس، رؤوس محفورة، وأخرى مشوهة، وثالثة لم يبق من معالمها شيء واضح. بالأسس فقط رأوا جثة شاب بلا رأس ومنفوخ البطن، كان الرأس قد قطع ووضع داخل البطن؛ وثناة عارية اقتلموا عنقها وثبتوا حذفتها في راحتي يديها بالبرانخي وشوهوا جسدها بالحروق.

صار التمثيل بالجثث مجالاً للتفنن في تشويهها، تنافس عليه الجماعات المتقاتلة.

الرسالة السادسة

(لمت بجولة مروعة في المستشفيات والأسوأ في المشرحة، بحثاً
عن سامر.

لن أعبرك بما رأيته.

الموت العادي لم يصادفني،

أصبح نعمة يصعب الظفر بها.

لا تسألني لماذا تاهت هذه الجولة.

يستحيل تخيل مقدار الجنون اللازم لفعل هذا الشر الهائل.

القسوة البشرية لا حدود لها.

هذه الجولة، كانت ضرورية، كي أقيم على نفسي.

وأرى إلى أي حد أنا مسؤول عما يجري.

حمدت الله على أن أحداً لم يتعرف إلى صورة سامر. وإن تصورت ما يمكن أن يقوم به، وما قد يخلفه وراءه من أشباه هؤلاء الضحايا.

ومع هذا تسببت في أكثر من لحظة، تجاوزت فيها أبوتي، أن أعثر عليه، مياً ومشوهاً، وأن يكون المقتل لا القاتل.

تصوري إلى أي حد أذاني هذا الذي رأته.

كم أنا قاتط.



هل كانت هذه الرسالة هي الصداقة الوحيدة التي أرسلتها حتى الآن؟ نعم.

قضيت النهار في غرفتي مغموماً ومشلولاً، وغادرتها مساءً عندما اقترب موعدني مع ميلر. كنت بحاجة إلى الترويح عن نفسي. اقترحت عليه التنزه في ممرات حدائق فندق الرشيد الجميلة والمسبعة، هنا ما سمعته عنها. لكن ما رأته كان ما تبقى منها، نوافير المياه لا تعمل، الأحواض فارغة، شجيرات الأس باهية، الجداول المبطنة بالحجر الأسود اللامع جافة، أما التمثال الكاكت للصياد وعروس البحر، فيدا وكأنه على كتف قرية فقيرة على شاطئ كالج.

لم تكلم، كانت نزهة بالية.

جلسنا في الصالة، الإضاءة خافتة، وبعضها محطل بسبب ترسيد الطاقة الكهربائية. اضطررنا إلى تغير الكراسي، كانت مغلقة. على الجدار ترك الأمر كان بصحتهم «الماهز مروا من هنا»، بينما على الإهريز العلوي للصالة، قرأت كلمات من قصيدة سطرت بالبراميك «ليت هنداً انجزتما ما تعدن» حروفها بهت لونها.

كل ما حولنا يوحي بالدعة والهدوء، لا يحكره سوى لفظ موسيقى تأتي من بعيد، نسلت ربما من ملهى الفنلق، قال الميجور ولم يكن على ما يرام:

«إنها موسيقى الكاريوكي، هل تعجبك؟».

«لا».

«وأنا أيضاً».

سألني عن جواني البارحة، قلت له، كانت جيدة.

الخبر السار هو أنه حصل علي تكليف بالعمل على قضيتي، حسب شروطه، ستكون حكرأ عليه، دون الآخرين، وفي حال استعانت به أي جهاز فسوف يعمل تحت إمرته؛ امتياز لم يحصل عليه سابقاً في قضايا أخرى. من قبل عاني من جراء تعدد الأوامر والتعليمات، غالباً يحصل تضارب بين الأجهزة، ومثلما يتنازعون على النجاح، يتصلون من الفشل. وهو الآن في سبيله إلى إعداد خطة للاتصال مع تنظيم القاعدة وتسريب خبر إليهم عن وجودي في بلناده، لتدمير لقاء بيني وبين سامر. الخطة ستأخذ زمناً لا بأس به، لكي تنضج تماماً. وعلى الرغم من هذه البشارة والتنظيمات

اضطر أسفاً إلى تأجيل العمل عليها قليلاً من الوقت!! ولم يكن غائلاً عن أن الامتياز والتسهيلات التي حصل عليها من أجل قضيتي، كانت عبارة عن رشوة للتعجيل في إنهاء التحقيق العالق بين يديه، لذا لا بد أن يُحسن المناورة.

لقد أصبحت لديه أدلة قاطعة، مكتب الدخول في المنطقة الخضراء، سجل خروج سيارتي الجيب وعربة البرادلي على عدة أيام متتالية، قبل منتصف الليل وعودتهم مع الفجر، وكانوا مدججين بالرشاشات طراز M-4 المزودة بمناظير تعمل بأشعة الليزر. وأدلى شهود متفرقون أنهم شاهدوهم منطلقين بسرعة على طريق بغداد الرئيسي ومصابيح سيارتهم مطفأة. وتم إثبات وصولهم إلى القرية من خلال أقوال شهود العيان، ودخول عناصر سيارتي الجيب إلى البيت، وبقاتهم حوالي ساعتين، بينما عناصر البرادلي في الخارج يقومون بالحراسة والمراقبة.

حتى الآن لم يعثر على دافع للقتل، ولم يقر أحد بالجريمة، وإذا كان الجنود قد اعتصموا بالصمت بحجة أنهم لم يقوموا بأي عمل منافع للقائون، فإن المتعاقدين المدنيين كانوا وقحين، عندما واجههم بأنهم تلقوا قبل أن يلتحقوا بوحدة، تنبيهات شديدة اللهجة تحذروهم من اللجوء إلى استعمال القوة المفرطة، حسب معلومات تفيد بأنهم تسبوا بقتل عراقيين لمجرد أن أسلحتهم ملقمة، وهدموا بيوت عائلات مشبه بانتساب أحد أفرادها إلى المقاومة. دافعوا عن أنفسهم بفظاظة، إذا كنتم حريصين على حياة العراقيين، فاستعضوا عنا بقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، وإذا أردتم أن تشفقوا عليهم فعليكم بالإرساليات المسيحية. أما هدم البيوت، فبعبارة لما هو متعارف

عليه في الحروب، كان لحرمان العدو من المأوى. لم يكتفوا بهذا، بل تطاولوا عليه ساخرين:

«ما الذي يروق لك في هؤلاء المحجبن والحجيات؟».

كان هذا التعبير المفضل والأكثر إهانة الذي اعتاد المرتزقة والمارتز استعماله للإشارة باحتقار إلى العراقيين والعراقيات.

«هل تقصد أنهم غير بشر؟».

«إنهم لا يشبهونا، لا يحزنون مثلنا عندما يموت أحدهم».

كان حزن المارتز على صديق يُقتل في الاشتباكات، يعني فتح النار على الأطفال والنساء والشيوخ، وقد يصل الأمر إلى حرق حي أو تدمير بناية بكاملها، وربما قرية.

«لأنكم لا تعطونهم الفرصة كي يحزنوا».

المحير، وقومه تحت ضغوط من عدة جهات، تحت على إنهاء التحقيق بأي شكل كان، قبل أن تعلم به الصحافة، وبأخذ حجماً غير مرغوب فيه، لا بأس في مراعاة أصول التحقيق على أن تكون شكلية، موظفو الشركات الأمنية ينادى عن أية ملاحقة قانونية ولو كانت استعراضية، لستمهم بالحصانة ضد الإجراءات القضائية.

اليوم استدعاه الكولونيل مدير مكتب الارتباط مع شركات المتعاقدين الأمنيين في المنطقة الخضراء، وحاول إقناعه بأن عناصر مجموعة شركة ميتر كورب لا يريدون قتل أناس أبرياء، يعرف أنهم ربما كانوا قذرين وقوي ماض سيئ، لكن مهما كان

هذا الماضي، فلن يتسلوا بالقتل، من الممكن مصادفة بضعة أشخاص على هذه الشاكلة، لكن أن يتفق ما يزيد على عشرة أشخاص على قتل عائلة دونما سبب، فهذا مستحيل.

كانت فكرة ميللر عن المجزرة أن الفاعلين أرادوا القيام بعمل ترفيحي، بالتعريب على المظاهرات، وربما الحصول على بعض المقام المادية، لا سيما إذا أتت بهم العميل العراقي بأن الرجل الأب شريك في عمليات تهريب الأسلحة أو يعمل مع المتطرفين. إذا كان الأمر قد استدعى القتل، لكن لماذا التعذيب والتشويه؟!

«جريمتهم تتعدى التجاوز في استعمال القوة».

فالنشاط الكولونيال غضباً:

«ميللر، إذا كانت هناك جريمة فقد ارتكبت في العراق، وليس في أميركا. العراق ميدان مفتوح للحرب والأخطاء واردة».

كان المطلوب إنهاء التحقيق فوراً، فطلب مهلة إضافية لا تتجاوز ثلاثة أيام، خلالها يعاين موقع الجريمة شخصياً، قبل المصادقة على التقرير حول الواقعة، بعد ذلك يُفرج عن الجثث التي في البراد، ويجري دفنها في اليوم نفسه، بعد الصلاة عليها حسب العادات الإسلامية. ثم يسلمه النتائج، وينفض يديه من القضية، تاركاً له حرية التصرف.

لم يدعشني أن يروح لي ميللر بشكوكه، لكنه أدهشني عندما التفت نحوي وقال كأنه يشهدني على ما سيقوم به:

والن مبتني شيء، سامضي في التحقيق إلى النهاية.

وإذا كان قد أطلعني على نتائج تحقيق كان سرهياً، غير أنه لا سر بمسند في بغداد أكثر من أهام، ربما ينكشف ويتداول في الإعلام. أما عزمه على المضي إلى النهاية، فشجاعة واهمة، هل هناك عدالة من أجل العراقيين؟! كان يحاول إقناعي بسهخته كقاضي، وأن العدالة تقتض من الجميع من دون تمييز. لا، ليس هناك مجال لتحقيق نزيه، وإذا كان، فالنزاهة ستكون في أدنى درجاتها، وتتوقف عند حد لن تتعداه أبداً. لم أكن مخطئاً في ظنوني، لكنني بالفت بها.

بريتشارد ما الذي نحاول إقناعي به ١٩٧٤.

نظر إليّ مستهجناً تساؤلي ولم يعقب. بعد أهام أنكرت معنى نظرتي، لم يكن في واردة إقناعي، وإن كان من العسير عليّ أن أصلق أن ضابطاً في الجيش الأميركي، يتفني العدالة للعدالة. عزوت نظرتي السؤقت إلى اشترازه من المتعاقدين المدنيين، حسب رأيه كان يقاتل من أجل المبادئ، أما هم فمن أجل المال.

لذلك شر بالمرارة لزاء تساؤلي، ورد عليّ:

«ماذا تكون هذه الديمقراطية لزاء قتل عائلة ولو كان بطريق الخطأ».

لم يكن ميلر بنظري أكثر من رجل عسكري يؤدي مهمته بأمانة وينفذها بدقة، إلى حد الوسواس، ولم أكن مجانياً الصواب. ولا

أدري إلى أي حد ابتعدت عن الحقيقة، في الاعتقاد بأن ما استحوذ عليه، كان مفاهيم مثالية عن الوطن والشرف والواجب. كما بدا لي، كان العراق بالنسبة إليه، فرصة لإثبات هذه المفاهيم، وكان مخدوعاً في حينها بتصريحات الرئيس الأميركي عن الحرية ونشر الديمقراطية، دون أن يشير في ذاته هذا اللغو أنه مهما كانت المبررات فهي تتعارض مع قتل الآلاف من البشر، بل وبدت له مهمته القتالية في منتهى الإنسانية، واعتقد صادقاً أننا نحن العرب سوف نستفيد من هذه المنحة الكريمة. ولهذا كان شديد الانتقاد لما خالطها من فساد، خاصة أن يباع شرف هذه الحرب العادلة للمرتزقة.

الرسالة السابعة

(هل يجب أن أشر بالذنب، لم بالغباء لأنني لم أفهم تلميحاتك؟)

لست في ظرف يسمح لي بتفكيك هذا اللغز.

على كل حال، ما جعلت من أجله بات التحرك نحوه لا الوصول إليه مملوفاً منه. ظهرت عوائق لم تكن بالحبان.

الوقت لا يساعدني.

إذا قام سامر بخطوة واحدة، أكون خسرت كل شيء.

كل ما أستطيع قوله لك، لا تربطي مصرك بمصري.

مصري أنا أجهله.

لاحت وزارة الدفاع بيناتها الجميل المهيب معتقلة بالأسلاك الشائكة والديابات والمصفحات الأمريكية، كانت نهاية شارع الرشيد، لكنها لم تكن ختام جولتنا التي نكاد أن نكون يومية، الختام كان من المفترض أن يكون على مقربة من سوق المنتهي إلى حيث دعاني فاضل لتناول الغداء في مطعم كبة السراي المشهور. غير أن العلاس وضع حداً لها، بعد خروجنا من المطبخ وتوجهنا إلى المطعم.

دفعني فاضل بكتفه فجأة، وشدني من فواعي نحو الاتجاه المعاكس. سايرته مرعياً وركضت معه وسط البشر غير المباليين. كان مسكاً بي بخشونة وثقوة، اعتقدت أنه يجرتي متوقفاً انفجار عبوة ناسفة. تلفت خلفه، ثم توقف، وكأن هناك من أبطل مفعولها. قبل أن أسأله عن سر هرولتنا، سمعته يقول:

«ألم تلاحظ أننا مراقبان؟».

اعتقدت أن الميجور وضحي تحت المراقبة.

«لا بهم».

«هل بهم، كئت مراقباً من العلاس».

لم يكن العلاس سوى مصطلح عرفاني شائع يطلق على الواسي الذي يختار هدفاً بشرياً يجمع المعلومات عنه، على أن يكون من الأشخاص المحيذ خطفهم، المستحسن أن يكون أجنبياً، سواء كان عسكرياً، أو مرتزقاً، أو صحافياً، أو عمالاً موالياً للاحتلال، ولا بأس إن كان تاجراً أو أستاذ جامعة، أو ولداً لعائلة غنية أو متوسطة الحال.

يبيع العلاس الهدف لإحدى عصابات الخطف، والسعر يخضع للعرض والطلب، تقرره الكثرة والندرة وصفة المخطوف. تقوم العصابة باختطاف الهدف وتعرضه للبيع على جهة أو عدة جهات، ويصبح من نصيب من يدفع السعر الأعلى سواء كان من جماعات المقاومة الإسلامية، أو القاعدة، أو ميليشيا أحد الأحزاب الشيعية أو السنة، وربما وسيط لجهاز استخبارات أجنبي.

وتبدأ رحلة الهدف من العلاس إلى المخطاف، فجماعة تطالب بالفدية وتهدد بقتله، وتساور عليه. أما إذا كان حظه سيئاً، فإلى الذباح.

تذكرت الرجل الذي مشى إلى جوارى وجارت خطواته عطواني. خطر لي حينها، أنه لو اقترب مني وحاول أن يهمس في أذني، فسأسكه ولن أفلته، لكنه التفت برأسه نحوي، نظر إلي، ثم تابع سيره، لم ألتفت إليه بعد ذلك، كان العلاس.

ولا بد أنه سمع لهجتك، استرعت انتباهه ملامحك وملابسك. لاحظ أنك لست عراقياً. وفي حال كان قد رآك نخرج من المنطقة الخضراء، فقد أيقن أنه عثر على صيد ثمين.

«إذا ما زال في مرحلة جمع المعلومات عني».

«حاول أن يلتقط صورة لك بجهاز الموبايل، فدفعتك، لا أظن أنني تأخرت، أرجو ألا يكون قد صورك».

إذا نجح العلاس بتصويري، فقد أسهت عملة متداولة في أسواق المخطفين، وأصبحت معروضة للبيع على أكثر من مشتر، يطالبونه

بالمزيد من المعلومات عني. لو أنني أضمن بيحي للقاعدة لما ترددت لحظة في تسليمه نفسي من دون عناه.

«يكفي أن يتصل بهم بالهاتف، ويحدد لهم أين أنت، حتى يسارعوا خلال دقائق إلى انتزاعك من الشارع تحت تهديد السلاح».

لم يكن يمزح، كان الخطف سارياً ويحدث في أي مكان، سوق، مستشفى، وزارة أو دائرة حكومية، مدرسة أو جامعة... قبل أشهر اختطف ثلاثون عاملاً دفعة واحدة من مبنى الصليب الأحمر.

«بالنسبة إليّ، إذا عاملوني معاملة المترجمين، فطلقة في الرأس».

قبل أن يتركني، اعتذر فاضل، كان مضطراً إلى التغيّب يوماً أو يومين، ونصحني بعدم الظهور في الشوارع، لا موجب للمجازفة.

لم أكن بحاجة إلى نصيحة، في الواقع لا أحتاج إلى مرافق ولا إلى دليل. قلت له، سأهني في بغداد زمناً لا أستطيع تقدير مدته، حركتي ستكون محدودة، لن أقامر، أنا لم أت لأختطف وأقتل مجاناً. سأحرص على حياتي، لدي ما يجب فعله.

اضطر فاضل للتغيّب بسبب نزول قريبه الشاب ربيع ضيفاً عليه، وفي الحديقة التجائه إليه، ربما يجد لمشكلته حلاً. كان مطلوباً من أهالي القرية لادعائهم مسؤوليته عن مقتل رجلين، أب وابنه. اعتقلت القوات الأميركية ربيع في مظاهرة احتجاج أمام المدرسة التي احتلوها وجعلوها مركزاً لهم. حققوا معه، فاعترف بأن المحرضين على المظاهرة ثلاثة أشخاص، أب وولده. فقبض

عليهم وأرسلوا إلى سجن أبو غريب. حقق معهم المتعاقبون
 الأسبون، واتهموا بأنهم من المقاومة، أشرف على تعذيبهم سرجنت
 وثلاثة جنود أحدهم سجنده، تسلوا بهم في ليلة تحت أضواء
 الشموع، وضعوا على رؤوسهم أكياساً سوداء، ونزعوا عنهم
 ملابسهم، وأرغموهم على تشيل أفعال جنسية بذهفة مع المساجين.
 بلغت النسبية بالجنود إبلاغ الأب أنه ارتكب فعلاً جنسياً مع
 أولاده، فانتحر في السجن. أصيب الابن الأكبر بالهستيريا، ظنوا أنه
 يمثل، عذبوه بالكلاب، ثم أفنوهم عليه، فهشوا أعضائه التناسلية،
 بقي تحت النزح عدة ساعات إلى أن مات. الابن العائد بعد ستين،
 قال بأن الواشي هو ربيع، فهدر دمه.

أصر والد ربيع على فاضل إبقاء ابنه لديه، ربما تهدأ الخواطر.
 أهالي القرية هاجموا يطالبون بالتأثر. أشار عليه شيخ العشيرة القيام
 بتسليم ولده إلى أهل القنيلين ليقتنصوا منه، أو سيقتلون عائلته
 بكاملها. الأب يقوم الآن بذيال الوساطات ربما يقبلون بدية.

لم تنق على موعد لاحق. شدُّ على يدي:

«اتصل بي في حال احتجت إلي».



لم أتوقع قدوم ميلر مساء دون موعد. اتصل بي من مكتب
 الاستقبال، وانتظرتني في بهو الفندق، ظنت أن لديه أخباراً تهمني،
 جلسنا في الصالة، لم يكن لديه شيء مما تكهنت به. كان قد
 فرغ قبل مجيئه من إعداد القافلة التي سينطلق بها صباح غد إلى
 الضلوعبة.

لا أندري إن كان في هذه الجلسة أو غيرها، في الفندق أو المقطورة، شئت بنا الحديث. أتذكر أنه كان صائفاً، وأنا أفكر في شيء يدعو للتأمل، ويبدو أنني ذهبت بعيداً، أعادني منه سؤال المفاجئ، أو أنه بنا لي حكفاً:

«قرأت أشياء عنكم تخلص إلى أنكم مبالون للموت».

أزعجتني ملاحظته، بدت مقصودة، فأجبت بضحك واستفزازية:

«لا تأخذ بالتفسيرات الخارجة، قد توفر المبررات السهلة، إنها مريحة لكنها الأكثر غباء، ومع هذا لا تعلم من يروجها».

«إذاً، لماذا تتحرون؟!».

كان يقصد أسلوب العمليات الانتحارية الذي تبناه المسلمون المتطرفون في حروبهم ضد العالم، فارتجلت تفسيراً كان الأقرب إلى وجهة نظري.

وأحياناً تبدو أخاق الحياة سدودة تماماً، ولا تشجع على العيش، يخضع فيها الإنسان إلى إذلال يومي لا يطاله وحده فحسب، بل عائلته ولقمة عيشه. حياة الحفاظ عليها مدعاة للاحتقار، بحيث تغدو تضحية المرء بها، دفاعاً عن الكرامة والحياة نفسها. لا أندري إذا كان هناك خلاف بيننا حول مفهوم الوطن، بالنسبة إلى شعوبنا يستحق أن نموت من أجله. أعتقد أنه خيار عقلائي لا يدل عليه، ولو كان اتصالياً، على الرغم من سوادوته».

ظهرت الحيرة على ملامحه، قال لا أقصد أن العمل الانتحاري

غير مفهوم، وإنما غير معقول، خاصة عندما يضحى المرء بحياته من أجل أن يقتل الآخر، هل عظمة حياته تتجلى في استغلالها كسلاح؟ مهما كانت القضية التي يعتنقها، هل هي أهم من حياته؟.

لم أكن الطرف الملائم ولا المهيأ لخوض هذا النقاش، برأيي لا توجد قضية في العالم تستحق أن يموت الإنسان من أجلها، لقد أضعا حياتنا بسبب قضايا حقيقية، وكان ما أصابها أسوأ من الهزيمة، بخيانة أصحابها لها. المؤلم أن أعظم القضايا لا ينالها الموت فقط أو الاندثار، الأدهى أنها تصبح عرضة للسخرية والتعريف.

«كل إنسان حر بحياته».

وماذا عن حياة الآخرين؟.

«لا يمكنني القول سوى أنها مصادفة صيبة، لا يمكن الدفاع عنها إلا بأنها عبثية، كالحياة نفسها، دون معنى، إلا إذا شعنا أن نستدعي الأكم أو الإيمان».

«لكن الانتحار ممنوع في ديانتكم، بينما أتم تدعوته جهاداً».

«الأمر دقيق بعض الشيء، الشهادة أيضاً في سبيل الله فريضة دينية، لكن توافر شروطها يدور حوله خلاف كبير».

«أظن أن دينكم أكثر إنشاعاً من غيره ولديه براهين أقوى على وجود الله، ولهذا ينتحرون مطمئنين إلى حياة أخرى، لا سيما عندما تكون الحياة الأخرى هي الجنة».

حاولت أن أشرح له أن في هذا التفسير استهتاراً بالعقل والإيمان والجنون معاً، وكنت أعده نوعاً من العناوين المثيرة التي نحجب أول ما نحجب الحقيقة، رغم أنني أدرك بأن بعض من يفجرون أنفسهم يساقون إلى الموت تحت هذا الوازع. والأصح هو نوع من أنواع الترغيب؛ لن ينهب إلى العدم، وإنما إلى حياة أخرى، سيكافأ فيها.

«لا، ليس الجنة، إنه الظلم. إن قدرنا معقولاً من العدالة، ربما تلك العدالة البسيطة التي يعيها البشر وبالإمكان تحقيقها، تجعل الحياة أكثر احتمالاً، وربما جميلة أيضاً».

فكر قليلاً، لم يعلق على كلامي، عاد إلى موضوع الانتحار:

«لا أظن أن شعباً آخر متديناً يفكر على هذا المنوال».

الشعوب الأخرى لم يمارس عليها كل هذا الطغيان في الداخل ومن الخارج. وتذكر شيئاً، إذا كان انتحاراً فهو ليس اختراعاً إسلامياً».

جاء جوناثان، كان عائداً من اجتماعه مع ديفي فريمان مندوبة لجنة حقوق الإنسان، وافته بأخر ما توصلت إليه، استطاعت الاتصال بأحد الشبان المشليين، وأقنعتته بالقدوم معها إلى المنطقة الخضراء، غداً ستأتي به ويحصلون منه على أسماء الشبان أصدقائه الباقين المهتدين بالقتل وأماكن إقامتهم. كانت ترهد من جوناثان معرفة كيف سيكون أسلوب تعامل سلطة التحالف مع مشكلتهم.

«هل نستطيع مساعدتهم؟»

هو ميلر رأسه، الكولونيل وعد تأمين الموافقة على حمايتهم.

الجو رابع على الرغم من الحر الشديد والرطوبة، هل هنا ما يقال عنه ليلاً بفنلديا؟ كان ميلر سارحاً في هذا الليل، في حين دار الحديث بيني وبين جوناتان، ذكرت له مغاسرتي الصغيرة مع العلام في السوق. فحفرني من التجول في بغداد حاملاً جواز سفر أميركياً، وردته تقرير مؤخراً قدر متوسط عمليات الخطف بـ ١٥ عملية يومياً، أغلبها تنتهي بدفع الفدية وقتل المخطوف، الأجانب في بورصة الخطف تجارة ندر أثماناً مرتفعة.

لم يخف عني مخاوفه، لا يخاف المنطقة الخضراء إلا نادراً. تمنى أن تكون قضية الأولاد المثليين آخر مهمة له في بغداد. لا يريد أن يموت في هذا المكان الموحش، ما يجعله قادراً على الاستمرار في العمل، معرفته أنه سيقتل قريباً.

ولنا موضع ترحيب، كل ما أفتنونا به، كان خطباً كاذبة عن أسلحة التدمير الشامل والديمقراطية والحرية. إنها حرب من أجل الحصول على نطق رخيص.

تجاهل ميلر مغادرة جوناتان غاضباً، بدأ معتاداً على شكواه. وإن تظاهر بأنه لم يسمعه، لكنه أظهر ضجره، قائلاً لي: أنا لست من أنصار انتقاد الحرب التي تقتل جنودنا.

لم أعرف لماذا جاء ميلر بلا موعد، إلا عندما مال عليّ فجأة، وأخرج من جيبه ورقة دست البارحة من تحت باب المقطورة. انظر ما أرسلوه إليّ!!

كانت ورقة مطبوعة على الطابعة الإلكترونية.

بدت منشوراً دعائياً، يعمل على شد عزيمة الجنود ورفع معنوياتهم في أرض المعركة. بعد بضعة أسطر، توضح فحواها، كان على شاكلة المنشورات الدعائية التي يوزعها اليهوديون المتدينون في أميركا، وما يروج له في بعض المواقع الإلكترونية البشرية، وبما أنه كتب في العراق، لم تنقصه البيانات الحاتفة المتداولة في المهاجع والاستراحات والحواجر، يُروح بها الجنود عن نعمتهم فيطلقون السباب على العراقيين الحجاج الذين لا يستحقون ما تقدم لهم من مساعدات سواء ترميم المدارس، أو توفير مضخات المياه وفتح عيادات ومستوصفات... شعب بحاجة إلى طائفة لا إلى حرية! ينخي أن نظرحهم أرضاً ونوسعهم ضرباً، وقتل أكبر عدد منهم.

المفاجأة، احتواء المنشور على تنبيه موجه إلى ميللر شخصياً، مع تحذير شديد اللهجة، يسبغ على الحرب أوصافاً دينية، حرب أميركا المسيحية ضد العرب والمسلمين!!

«... إن العناية الإلهية هي التي رسمت خطة هذه الحرب لتتفق مع دورة خطة كوثية، وهي التي اختارتك واختارتنا لهذه المهمة المقدسة. نحن جزء من هذه المعركة، وهي فرصة لتكون فاعلين فيها لا على هامشها.

ليس النزاع على أرض، ولا على النفط، ولا على إعادة تشكيل الشرق الأوسط، أو إحلال الديمقراطية... بل على شيء لا يمكن التفاهم ولا التفاوض حوله؛ إنه القضاء على الشر، بالتخلص من المسلمين، عهدنا مع الرب بخلونا إيمانهم، عهد لن نكث عنه، ما دام الله معنا.

حرب صليبية لا تظن أن دورك ضئيل فيها، أنت مدعو لإنقاذ إخوانك جنود الرب الذين كرسوا حياتهم لهذه المعركة. لقد تطوعوا لمحاربة جيوش الشيطان، فلا تعاكسهم، لئلا تكون من قوى الدجال وأنت لا تدري، فكفّ عما تحاول أن تلصقه بهم من اتهامات، لقد قاموا بواجبهم أمام الله في حرب الحياة والموت، حرب لن تتوقف إلا بتدمير مدن الإسلام.

نحن لم نهجر بلادنا وبيوتنا، ونترك زوجاتنا وأولادنا، وأسلوب عيشنا الرغيد، ونتكبد عناء قطع آلاف الأميال وعبور المحيطات للوصول إلى هذه الصحارى الشاسعة والبشر المتخلفين الغلاظ الذين يكرهوننا، ولا يتورعون عن سفك دمائنا، إلا لنقدم لهم الموت، فكلهم تنفيذ لقضاء الله.

علق ميللر: يبدو أن الجماعات الأصولية المتطرفة الأميركية وجدت لها منفئاً عبر بعض الجنود إلى العراق، وأصبح لها مثلون وأعمان في بغداد، ناشطون في المنطقة الخضراء وغيرها، لكن لا أحد يهتم بهم. إذا لم يكن صاحب المنشور من المشاركين في جريمة الضلوعية، فلا بد أنهم استعانوا به للتأثير عليه في إنهاء التحقيق.

قلت له، ماذا لو كانوا يحتفظون...

قاطعتي ميللر، ماذا تكون غير هذيان ديني؟

قلت له، ومع هذا لو وجد هناك في واشنطن من يؤمن به، وسعى إلى دعمه بالقوة العسكرية، فهذه الحرب، حرب بلا نهاية.

قال، لا تتحرف مع هذه التهورات، إن تداعياتها مخيفة.

لكنها جعلتني أعود إلى نفسي، وأعمد النظر في علاقتي بميلتر، لا ينخي أن تكون وثيقة، وإنما حفرة، كما هي في الواقع. أنا لست على الجبهة نفسها، ولا الطرف ذاته، أنا في الحقيقة ضد سياسات بلنر. عندما كنت في الجامعة، لم أخف عدائي للأميركان، شاركت في مظاهرات ووزعت منشورات ضد انقلاباتهم المدبرة، وقواعدهم العسكرية، ودعمهم لحكامنا الفاسدين... اليوم ما الذي تغير؟ لا شيء، بل وزاد علينا أنهم جيش احتلال. قلت له:

«الأفكار لم تعد تهمني، لا الاشتراكية ولا الرأسمالية، وإنما الإنسانية بصورتها العادية، مجرد الحق في العيش. هل من الإنسانية تدمير بلد بأكمله، وقتل مئات الآلاف من العراقيين؟! ترى من أجل ماذا؟! لا أحد يدري!! صدقتي، إذا قلت لك إنني مستاء لطلبي مساعدتكم».

وكانه أصعب بعدمة من ردة فعلي غير المتوقعة، تابعت من دون توقف:

«مهما كانت توجهاتي، فلنني ضد وجودكم هنا».

بدا عليه الأسف، فأهديت أسفي بالمقابل:

«ريتشارد، لا يمكنني إلا أن أكون في حالة حرب معكم، وإذا كانت غير معلنة، فلأنه ليس بوسعي فعل شيء. أرجوك انتهمني، إن ضحيري ضدكم».

لم يمد مفاجأ. نهض يمد حين فلتلا:

«أنا لدي ضمير أيضاً».

ربت على كفي وذهب.



قبل أن أتأم اطلعت على بريدي، وصلني رسالة من سناء. أخيراً،
كبت لي ما تكلمت عنه. كانت حاملاً في شهرها الأول!!

لم يكن لدي أدنى استعداد لهذا الخير الصاعق، ولا يمكن أن
يخطر لي، أفقدني التزامي. فكتبت رداً تجاهلت فيه رسالتها مع
تلميح لم يكن غامضاً، لن نخطئ مغزاه.

الرسالة الثامنة

(من يوم لآخر، أموري تتعقد.

أخشى أنني سأعقد، لكن عسى عبادي أن يفلح.

أعرف أنني خيارك الوحيد

لكن فكري بخيارات أخرى.

أنا لا أعدي، إنها الحقيقة).



أردت قطع أي أمل ترتجيه ساء من عودتي، لأنني لم أعد أرتجى الكثير مما جئت من أجله، كل شيء يعاكسني، فأردت نقل عدوانه إليها، رداً على رسالتها التي منحنتني فيها أملاً على طريقة النساء جنين بدأ يتكون في رحمها وقلبها، بل وأعلستني بقرارها

الذي اتخذته: لن تجهض، وتحرم طفلها من الحياة. انتظرت ساء زماً حتى تأكدت، وزماً حتى تجرات على إبلاغي.

في الفترة الأخيرة سهونا عن اتخاذ احتياطات منع الحمل. كان الإنجاب مؤجلاً لما بعد الزواج، رغم أننا لم نتكلم عنه. أزعجني أنها كتبت عن الطفل بفرح غامر وكأنه علي وشك القدوم، تريد تحملي مسؤوليته: الطفل بحاجة إلى أب، طفلك بحاجة إليك.

... وكأنه يقدمه سيخيني عن سامر، ويعزيني بما فقدته أو سأفقد. هنا لم تقله، أنا أحست به وأزعجني.

وأيضاً كان الله الذي أعز سامر أو سأعزده، سيحطني غيره.

بأنني منظر حماتي والدة نهي، عندما انفلتت من غرفة الولادة، هزعت نحوي وبشرتني قبل الممرضة سيروك صبي!! نظرتُ من زيق الباب إلى الداخل، وتغيرت صورة العالم، أصبح بحجم لفاقة من الشاش الأبيض بداخلها طفل أعشى الضوء عنقه، بأخذ أنفاس الأولى. زلزلتي هذه اللحظة، كانت خلقة، ثمة من دخل للتو إلى العالم، تراجع عطوتين إلى الخلف، وكأنني أفسح له الطريق.

المنظر الذي لا أنساه: الظلام يحتل النافذة المريضة في الطرف الثاني من نهاية المسر الغارق في العسمة والعمالق برائحة المعقمات، نهي تشهق وتصرخ، بينما خرجت الطبيبة تحمل بين يديها ابني الوليد، ابتسمت في وجهي، وقبل أن ترتد إلى غرفة العمليات، ناولتني إياه، كأنها تعطيني جوهره مشعة.

تأملت ملامحه الدقيقة، الصغيرة والمنمنمة، واجتاحني شعور

غرب نحو، كان مزيجاً من الإحساس بأني تقدمت في العمر، وأن حياتي بدأت ثانية على نحو مباشر. لمجرد أنني أصبحت أماً لطفل لا يزيد عمره على ثلاث دقائق، بحاجة إلى كل شيء حتى الهوا. كنت طموحاً لفعل أشياء كثيرة من أجله، أظنها أن ألتحق عالماً مثالياً، رائعاً وجميلاً.

أصبحت أماً وأنا شاب في الثلاثين من عمري، شاب بلهجو بالنظريات والمبادئ! اكتشف قبل سنوات متأثر الطبقة العاملة الصاعدة نحو المستقبل، وما لحقها من غبن تاريخي، والبرجوازية الصديقة المستغلة في أيامها الأخيرة. شاب يطيل شعره، ويسهر حتى الصباح، مؤمناً بحتمية انتصار الثورة، ويشرح بنزق الفارق بين التناقضات التناحرية والتناقضات غير التناحرية. وصدقتني في التنظيم التي أصبحت زوجتي ترفقتني منتفخة البطن، من اجتماع إلى مفهى، ومن شلة إلى أخرى، كأنها لم تكن حاملاً في أشهرها الأخيرة، وإنما فتاة نهمة للطعام وللجدل، تشكو من السمسة والفتيان، وتحاز للجواهر الكادحة ضد الرأسمالية الشرسة، وتهند الأعداء بدكتاتورية البروليتاريا... وتستفرك شطْمفنة الفتيات المبهورات بحماستها: نعم دكتاتورية، لكنها ديموقراطية شعبية لا نظير لها. إلى أن جاء الوقت الذي حطمت فيه ثورات زوجتي العارمة والسخيفة ثقتي بأي ثورة في العالم تشارك بها امرأة، ولو حملت السلاح واسترجلت.

وكان للمنظر قصة يستحيل عليّ نسيانها:

نظرتني الحاملة، استوقفت العاملة في المستشفى، كانت تمسح أرضية المرمر، أبعدت سطل الماء جانباً وأسندت عصا الممسحة

إلى الحائط. وقالت بأسى:

«الأطفال جرح لا يندمل».

التفت نحوها، هل كانت تتكلم مع نفسها؟ لا كانت تحدثني
وترثي لي، نظراتها مشققة علي، كأنني أزلها الآن:

«فقدانهم بلاء ووجودهم بلاء».

تابت وهي تهز رأسها قائلة:

«يُعذب الآباء والأمهات في سبيل أولادهم، ولا يلتفون منهم سوى
الجمود مكافأة علي ما بذلوه من تعب، وما تكبلوه في سبيل
نشاطهم من آلام. الأولاد لا يفتخرون ما تعانيه من شقاء لكي يوفر
لهم ما يحتاجونه، وعندما يكبرون نخسروهم».

كانت تشكو همومها لي كي لا أسمل كثيراً، وها أنا بعد زمن
طويل، لا أسمعها فقط، بل أكرر كلماتها، أعاني ما تعانيه، ألم
أسمر ولدي؟

لم تكن مسؤولتي تجاهه سوى وهم دلم بضعة أيام. بعدها أسى
بكاؤه ورضاعته ومرضاته، وتعلمه الكلام والمشي، من اللوازم البينة
الطريفة. كان أشبه بلعبة نسلينا بها يوماً بعد يوم حتى بعد دخوله
الحضانة والمدرسة، ولم نفتتح بأنه أصبح شاكياً إلا بعدما حصل
على البكالوريا، وعندما لم يساعده مجموع علاماته على الانتساب
إلى جامعة دمشق، تسجل في الجامعة العربية في بيروت.

هذه المسؤولية المتوهمة، لم تجمع بيني وبين نهى قلبي ما فرقت

بيننا، كانت تربيته والعناية به محل نزاع إضافي بيننا، وإن حاولنا عندما أصبح بالتمام، ألا نشركه بخلافاتنا الشخصية، كانت لا نعبه، لم يكن هو السبب. لكن ما قاسيه وتحمله منها كان من أجله. كتبت مرغماً على البقاء أسر زواج بات علة كرمي.

لماذا أتذكر، بعد كل هذا القوت؟! ولماذا أرجع إلى زمن، كنت فيه شخصاً آخر؟ وكأني استعدته لأكونه ثانية.

لا مهرب من الأمل، ولا من الكذب. كتبت لها رسالة أخرى.

الرسالة التاسعة

(فاجاني الخبر وأسعدني.

لحظات السعادة بانت عصية المنال، ما دام هناك غيبات تقفل أية فرحة.

اعلموني، لا بد لي من بعض الوقت، لأستوعب أنني سأصبح أباً
عزماً لوليد سيأتي إلى العالم بعد ثمانية أشهر.

إحساس رائع، مهما كان مربكاً، الشعور بحياة أسهمت فيها
نفس من بعدي، ولو كان في داخل هذا الخراب.

لا تقلقي، سأنجز إجراءات الزواج فور عودتي إلى دمشق.

أدرك مدى حاجتك وحاجته إليّ. لكن سامر يحتاجني أكثر.

ألا نوافقيني؟

أزهد أن أستعبد هو بالذات. لا أحد يحل محله. ولا أرغب ببدل عنه، ولو كان ولدًا من لحمي ودمي.

إن أدع سامر لهم).



عاد ميلر من الضلوعية مثلما ذهب، تحت الحراسة المشددة، في سيارة هامفي، رافقه سرية مشاة وثلاث عربات برادلي مفرقة، وطارتنا هيلوكوبتر، ظلنا نحلّقان في السماء طوال مدة وجود ميلر في بيت العائلة المنكوبة، ولولا موقع المزرعة على أطراف الضلوعية، لاحتاج ذهابه إلى هناك لدعم فوج من قوات المارينز.

كانت منطقة الضلوعية من أعطر المناطق، منذ تم الإعلان عن أنها أصبحت جزءاً من إمارة إسلامية تابعة لولاية صلاح الدين، باتت منظمة القاعدة الحاكمة المهيمنة، واتخذت عدة إجراءات استولت على السيارات العائدة للدولة، وصارت أسلحة العاملين في المؤسسات الحكومية، وأقرت بعدم جواز عقد قران رجال الشرطة حتى يعلنوا البراءة من عملهم، ومنعت بيع وشراء الكحول والسجائر، وأصدرت فتوى بقطع أصابع المدخنين. وسيرت عزبة جواله للمحكمة الشرعية لدولة العراق الإسلامية مهمتها تأمين إقامة الحدود وأحكام التعزير على المخالفين، وتنفيذ أحكام الإعلام بمن ثبت انتسابه إلى الحكومة العميلة المارقة. ولم يسلم أهالي المدينة من التعفية الجسدية بتهمة التكفير والردة والتجسس لصالح القوات الأمريكية أو العراقية. كما قامت لجنة دُعيت بهيئة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، بالتجول في الأحياء، وزرع عناصرها الخسار على طالبات مدارس البنات، وحفروا النساء من الكشف عن وجوههن، وهددوهن بالموت إذا ارتكبن فعلاً فاحشاً.

«هل يعتبر شعر رأس المرأة عاراً؟! كلما التفتوا بامرأة لا تغطي رأسها، بأمرونها بأن تشره، وإلا سترها عارها بالموت. هل يجوز في دينكم مساواة شعر رأس المرأة بفرجها؟!».

لا أدري أحياناً إلى أين يقودني الدفاع عن الإسلام، كيف أقول له إن ما يرضه العقل، يرضه الشريعة الإسلامية أيضاً؟

«هذه تفسيرات متشددة، بل وإذا أردنا المزيد من التشدد، فهناك من يعتبر أن صوت المرأة عورة، الغالبية لا تأخذ بهذه التفسيرات، عموماً، لا يبلغ الأمر حد القتل، وإنما الرجم والتهديد».

«لقد انتزعوا فتاتين سافرتين من الشارع، أمهدتا إلى منزلها بعد ساعات حليقتي الرأس، وزعوا على أثرها منشورات تنبه إلى أن حلق شعر السافرات حكم مخفف، لكن القتل سيكون مصيرهن بعدها».

أما بخصوص العائلة التي قتلت، فالأمر الموثوق منه أن أية عصابة لن تتجرأ على القيام بعمل كهذا، لأن الرجل القتل هو الشيخ عبد الرحيم الضلوعي، شيخ ذو مكانة، على علاقة حسنة بمنظمة القاعدة، صحيح أنه لم يُظهر تأييده لها، لكنه لم يعارضها. لعب دوراً مهدياً بين القاعدة والأهالي، ولم يتوان عن إعادة بعض المسخطوفين، أو إنقاذ شبان محتجزين بدفعهم إلى إعلان التوبة والولاء للقاعدة. وكان له الفضل مع شيوخ آخرين في التفاوض

مع الزرقاوي وإصداره قراراً بعدم التعدي على شرطة الضلوعية.

عين مهلر موقع الجريمة، البيت قد انقلب رأساً على عقب، وتعثرت في أرجائه، كل ما يحتويه من أغراض وملابس وأثاث ومزونة، الأبواب والنوافذ والخزائن سحقمة، الدماء التي جفت على الجدران والأرض، لطخت أيضاً الأدوات المعدنية الموجودة من فؤوس وسجلات وقضبان حديدية وسكاكين مطبخ عمليات الذبح والقتل تبدو وكأنها نفذت بواسطتها.

هذه المجزرة ليست الوحيدة، كانت حلقة من سلسلة، سبقتها اثنتان على يومين متوالين، الأولى في بغداد منطقة الدورة دهبوا بيتاً على أطراف حي أساء المعبر مغطلاً من معازل القاعدة. بقوا فيه قرابة ساعتين تركوا بعدها ثلاث جثث في البيت معلقة بالسقف وأربع جثث على قارعة الطريق، قطعوا رؤوسهم وأطرافهم، ولفوا أعضائهم حول أجسادهم، ربطت على شكل هدبة، وثبوا قلوبهم عند العنق!! والثانية على مقرية من الفلوجة، اقتحموا مزرعة قتلوا صاحبها مع ثمانية عمال، ثم أشعلوا النار فيها، بعد أن مكثوا فيها قرابة أربع ساعات. لم يبق منهم سوى جثث متفحمة.

نفذت الجريمةتان بشكل يوحي أن من قام بها فرق الموت، أو مغاوير الداخلية. أما الثالثة في الضلوعية، فلم يستطيعوا إخفاء النزعة الانتقامية التي رافقت عملياتهم، فارتكبوا عطاءً جسماً، أكثر منها زلة فاضحة، تدعو إلى اليقين بأن من ارتكبها لم يكن لأسباب طائفية، ولا عصابة من اللصوص القتللة يعتمدون السلب، فحتى لو نشوا المنزل ونهبوه، وسرقوا المصاغ والمدحرات

التفدية، لن يبلغ الأمر بهم حدّ التشفي بتعزيق القرآن وبعثرة أوراقه. هذا العمل لا يرتكبه سوى أجناب أقاتوا الشيخ بالهزة من معتقداته.

الجرائم جميعها، على الرغم من اختلافها في التفاصيل، كانت تحمل توتيقاً واحداً، تجلّى في تعزيق الضحايا بكلمات غزيرة من الرصاص، وفي طريقة قطع الرقاب، والأسلوب المشابه في القتل وتشويه الجثث. لا يتركون وراءهم سوى الطلقات الفارغة للرشاشات M4 وأثار إطارات الجيب وسلاسل عربة البرادلي، ولا شهود بجرزؤون على التبليغ عن الفاعلين لئلا يكون مصيرهم الموت. مصدر معلوماتنا الشرطة العراقية، لكنهم خائفون مثل غيرهم، لا يأمنون على أنفسهم الانتقام من جميع الأطراف.

العمليات الثلاث نفذت على التابع خلال ثلاثة أيام، أوقفها تدهور السيارة الجيب، أي إذا كانت هناك مهمة، فهي ما زالت قائمة لم تجز بعد. لماذا تكون هذه المهمة؟

لا بد من شاهد واحد، شاهد واحد على هذه الجريمة!!

ولقد ظهر رجل، وإن لم يكن شاهداً، ظهر على الهاتف:

«ميجور ميلر، ما رأيك ليلة الخميس في زيارة عليّ الرشيد؟ أعلم أن التسلية في هذه الأماكن لا تروق لك، لكن الأمر يهمك، له علاقة بالتحقيق الذي تقوم به، لا تأت وحيدك كي لا تلفت الأنظار. سأجلس بالقرب منك، تظاهر بأنك تتحدث مع جليك».

على الهاتف، قال إنه حصل على بعض المعلومات، واعتار عدم التبليغ عنها، لئلا يطرد من المنطقة الخضراء. حالياً ليس لديه الكثير من المعلومات، لكنها فرصة لتبادل الرأي.

طلب مني ميلر تقديم عذمة إليه بمرافقته إلى المرقص، جوناثان مشغول بفضية المثليين. حاولت الاعتذار بأنه لا يجوز أن أكون طرفاً في المقابلة، لا سيما أنني سوري واهني يعمل مع القاعدة. فأصر على حضوري: لن يكون وجودك أكثر من غطاء، لن يكشف عن هذا الاجتماع، حماية للطرف الآخر، هو أيضاً لا يريد أن يكون معلوماً، وجودك طبيعي، أليس مقبلاً في الفندق؟

على الرغم من الأنوار الملونة الصغيرة المتناهة، كان الملهى غارقاً في شبه عتمة. الجو منغم بالموسيقا عالية الصوت، لم تكن ضاحكة، بل عادية وحالمة. الرواد من المستخدمين في المنطقة الخضراء، جنود ومتعاقدون مدنيون، وعاملون في سلطة الائتلاف يرقصون على نجمة حزب البعث المنحوتة على الأرضية، ومنهم نساء يلبسن بلوزات قصيرة لا تخفي السرة، وجينزات مشيرة تكشف عن أفخاذ سمينة، ويتعلنن الأحذية الرياضية. من الناظر رؤية مجلدة أو متطوعة جفابة، النساء الجميلات لا يمكن رؤيتهن إلا في الأفلام الأميركية. أجساد الراقصين منتصبه، الحركات متصلة، متناحرة قليلاً، والنظرات متوترة وملتصقة. الرجال ضخمون، طوال القامة، بعضهم أقرب إلى البدانة، والنساء محظوظات، امرأة واحدة لكل عشرة رجال.

اعتدنا طاولة بعيدة عن باحة الرقص، تسلبت بتصفيح وجوه الجالسين، لم تظهر واضحة، الدخان عايق، سرعان ما ترك شاب

كان يتحدث. مع البارمان مكانه، القرب منا على مهل وهو يحمل يده كأساً من الويسكي، وجلس إلى جوارنا. كان نحيلاً متوسط الطول في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره. بنا عصبياً، مظهره عادي أبيض البشرة، ومثل غيره لوحث الشمس وجهه. لم يكن متين البنية، فاستعدت أن يكون جندياً أميركياً أو مرتزقاً. تكلم بلا مبالاة ودون أن ينظر إلينا. وقد ثبت عينيه على الراقصين. قال إنه يسكن ويعمل في المنطقة الخضراء، وحفر ميللر من البحث عنه، وأن يدعوهم بجيمي لا أكثر. فيما بعد إذا احتاج الأمر، سوف يقول له من هو، على أن يفنى سرّاً بينهما.

«كفي لا نضيق وقتك، أسأل القسيس المتقاعد مع شركة مينيرا كورب، يدعى توماس باركلي، لا بد يعلم شيئاً، سيبدو لك قسباً حقيقياً، لا تأخذني على محمل الجد ولا الإيمان، إنه مرتزق مثلهم».

«هنا الذي يلقي دروساً في التوراة والإنجيل؟».

«كان يبارك مجموعة الإغارة قبل انطلاقهم في مهماتهم».

«لم أميز، هل كان يهزأ من ميللر أو منهم؟! تسائل ميللر ساخراً:

«لهم يبارك اللليل العراقي؟».

«لم يكتم جيمي ضحكته:

«لا أستبعد أن يكون أقدم على تصيره، ومات مسيحياً».

ثم استرد ملامحه، ولم يتخلّ عن لامبالته:

«لا تستغرب، إنه مشهورٌ دجال من جماعات الحتى الألفية
المتجهين كل فترة بالقراب نهاية العالم. لن يتجيب لك بسهولة.
لقد وعدوه بمبلغ كبير... مليون دولار، قال إنه سيتبرع به
للأبرشية، ثم اختلف معهم وطلب مضاعفة المبلغ، أي أن حصة
الواحد منهم لا تقل عن هذا المبلغ، إن لم تكن أكثر».

«سهما كان بحوزة العائلات التي ذهبت من مال ومصاغ، فلن
تكون كافية لجمع مليون دولار، وإذا استمروا على هذا المنوال،
سوف تستغرق عملياتهم عشرات السنين».

«إنهم لا يعتمدون على السلب».

«إلا إذا كانوا يبحثون عن كثر مدفون في الصحراء».

«لقد لا يقل عن كثر».

«من أين أتيت بمعلوماتك؟».

«كانوا يتباهون بما يفعلونه بعد الغارات، وما سوف تدره عليهم
من مال، مع أنهم يعودون منها بالقليل من المنهوبات».

«هل تعرف عدد الغارات التي قاموا بها؟».

«حسب علمي خمس غارات».

«أعرف ثلاثاً».

«اعتناك بهم، لأمر شخصي؟».

«ليس شخصياً، لكنه يعني».

«هنا لا يكفي. ولنتكلم بصراحة، لا أريد التعامل مع شخص يتكلم على هويته، هذه السرية يرفضها عملي، ما دمت أنتخب عما حدث فعلاً، فلا ينبغي أن يكون أحد مصدري مجهولاً، هنا يحتملي لا أثق بما تزودني به. اسمع أنا جاد في التحقيق حتى النهاية».

«بعضهم لك حذاً قبل النهاية. عملي كل حال، أنا مراسل صحفي، عميتي لا تقبل روايتي من دون شهود موثوقين. بدلاً لنقل إنني أريد أن أحقق سبقاً صحافياً، هذا من الجانب العملي، مع أن هذا ليس هدفي تماماً. سأعقد معك اتفاقاً واضحاً: أقدم لك كل ما أحصل عليه من معلومات دون المخاطرة بالكشف عن مصدري، لئلا أسيء إليه، كما لن يظهر اسمي في التحقيقات، وبالمقابل سأكون أول من ينشر عن الجريمة في الصحافة».

«هل تريد إيداعهم؟».

«نعم ولدي أسبابي، لا سيرر لقولها، حتى لا نظن أنني متحامل عليهم».

«تهمني هذه الأسباب بالذات، لأنناكد إلى أي حد نحن متفقان، ولن نتخلف في المستقبل».

«بوسعك القول إنني أقف في صف الضحايا، إذا كان يهتك أمرهم فسوف أساعدك، إن لم يكن، فسوف ألجأ إلى شخص غيرك. عليك الآن أن تختار أين تقف».

قال ميلر دون تردد:

«في صف الحقيقة».

«شكراً للمصادفة، إذ أجد في هذا المكان شخصاً يهتم بالحقيقة، عادة في الحروب، نسمع عنها ولا نثر عليها».

قالها جيمي ونهض واقفاً، تابع الكلام:

«سأتصل بك ثانية إذا علمت بجديده».

شق طريقه بين الرصاص والمتزاحمين أمام البار، ومضى بخفة بين الأنوار المتعاطلة الملونة وغاب في عممة الباب.

كان الاحتمال الأقرب الذي عالجت، أن المال الذي يبحثون عنه، حقائق تحتوي على ملايين الدولارات نُجِثت عشية احتلال بغداد لتسهيل أعمال المقاومة، يعرف بها بعض أركان حكم صدام الهارين، سرها تسرب، وهم في أثرها.

خرج ميلر عن صمته قائلاً:

«القس باركلي هو صاحب المنشور الذي وصلتني أول البارحة».

في الليلة نفسها اتصل جيمي ميلر، وابتدأ التعاون بينهما، أعطاه بعض المعلومات الإضافية عن القسيس باركلي: قبل أكثر من عقد، أي في أوائل التسعينيات، كان باركلي من الشباب الذين أعيد تنصيرهم، تعدد وولد ثانية في الإيمان، دفعته ميوله الدينية إلى الانسحاب لجامعة «البرتي»، درس فيها اللاهوت، وتخرج منها واعظاً، عمل في عدة كنائس في ولاية فرجينيا. شارك في الحملات الصليبية الهادفة إلى معاودة تنصير أميركا من تحت. كان يجاهر بأرائه، وهي تدور دائماً حول الفكرة نفسها، لكن تنصير أميركا من فوق، داعياً إلى عدم ترك قيادتها لأقلية من الرجال والنساء لا إله لهم. علق ميلر:

«يبدو أن باركلي اختارني لمهمة مقدسة».

«هل اتصل بك؟».

«أرسل لي منشوراً يدعوني فيه إلى إنقاذ جنود الرب والتطوع لمحاربة جيوش الشيطان».

الرسالة العاشرة

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

أدرك مخاوفك دون أن تفصح عنها.

نعم قد لا أعود.

كبت لصديقنا حسان أن ابناً لي سيولد بعد ثمانية أشهر ونصف.
ولكني أعنف عنك مواجهة هذا الحرج فيما بعد، سألته عما
يمكنني القيام به من ترتيبات، وأنا هنا في بغداد، كنت أعرف
طفلي أباه في قادم الأيام.

أجابني، لو كان لدينا سفارة في العراق، لنصححك بإعداد وكالة
باسمي، تسمح لي بعقد زواجك رسمياً في دمشق.

ما الذي يحدث؟! لا أعرف... لكنني متقاتل.

لا، لم أكن متفائلاً، في العراق لا بحق لك التفاؤل ما دمنا تواجه الكوالمس.

بعد انقطاع فاضل عني مدة يومين، اتصل بي. كان أسفاً، صوته الأجلش يتلجلج بالاعتذار. عمت سبب اتصاله كي لا يراودني الظن أنه يتهرب مني. هنا الظن لم يخطر لي. كان البارحة قد أنهى ما شغله لقد جاء أبو ربيع وأخذ ابنه معه إلى القرية، بعد أن توصلوا إلى حل، سيدفعون دية وينتهي الأمر. عنا هنا لديه شيء بخصوصي، لن بقوله على الهاتف. سنذهب معاً للاجتماع بأحد الأشخاص، ربما ساعدني.

توقعت أنه وجد حلاً لي، بوفر عليّ انتظار ميللر الفارق في التحقيق.

بذل فاضل جهده قبل أيام، وتمكن من الاتصال بالمقاومة البشة عن طريق أصدقاء قداماء، وشرح لهم سبب وجودي في العراق. البارحة أبلغوه بأن قيادة فرع الحزب السرية في بغداد أوكلت الأمر إلى مسؤول حزبي سيجت في طلبي. لم يطل الوقت، اتصل المسؤول بفاضل وعين له الزمان والمكان.

ظهراً، كنت على موعد مع مسؤول بعشي حدد فندق الفندق نوفوتيل المواقف في ساحة الأنفلس للقاء به.

لم أطمئن لاختيار الفندق مكاناً لاجتماعنا، خاصة بعدما علمت من فاضل أن ساحة الأنفلس تعرضت لعنة اعتداءات سابقة، نظراً لوجود مقر الحزب الشيوعي ووزارة الري على مقربة منها. وقبل أيام دهم المنطقة مسلحون مجهولون يستقلون سيارات بيك آب

مطلبة بألوان سيارات وزارة الداخلية، يرتدون زي المظاوير التابعين لها، اقتحموا في عز النهار مقرين متجاورين تابعين لوزارة التعليم العالي، واحتفظوا أكثر من ١٣٥ شخصاً بينهم عدد من المراجعين، أعادوا الكثيرين منهم، واحتفظوا بأساتذة الجامعة وحصة الشهادات العالية، إذا لم يعودوا خلال أيام، فالأرجح جرت تصفيتهم.

ومع هذا كان الفندق حسب قوله، أكثر أماناً من أي مكان آخر، العاملون في إحدى شركات الحماية العاملة مع القوات الأمريكية استأجروا طابقاً فيه، وبدبرون أعمالهم من داخله. كان محصناً، الاستحكامات الإستراتيجية تحكم الحصار حول مداخله، مع حراسة مكثفة بالعناصر المسلحة لآسي الخوذ المعدنية والسترات الواقية ضد الرصاص، ومدججين بالرشاشات. فاضل أيضاً كان مسلحاً، كشف سترته العنيفة الخفيفة، فظهر حول خصره سدس. لم أعرف فيما إذا كان يطمئنني حقاً أم يمزح وهو يعقب، في حال اقتحم الفندق، يوسعك الهرب ربما أتبادل مع المهاجمين إطلاق الرصاص!!

أحسنت بالقلق، بالإضافة إلى الخطر المجهول الذي قد يأتي من خارج الفندق ويقتحم الباب، كان من الياق نفسه سيدخل رجل يعمل لحساب حزب مطلوب اجثائه، ومطارده من جماعات كثيرة توافقة للانتقام منه.

كان شعوري أنني أعطأت بمجيبتي، ولم أخف عن فاضل أن تعاملي مع فلول النظام السابق، سيجلب لي المتاعب ويحيطني بالشكوك دونما فائدة. إنهم ولأقلها بصراحة، بحاجة للمساعدة

والخفي أكثر مني.

فاضل كذب ظنوني حولهم، استناداً إلى ما سمعته عنهم، إنهم من أكبر جماعات المقاومة، كانوا يعملون بالتعاون مع بعض الإسلاميين تحت لافتات مختلفة مثل الجيش الإسلامي السري، والجيش العراقي الإسلامي... وأيضاً جيش محمد. لا يقومون بعمليات إرهابية، بل عمليات عسكرية ضد القوات الأمريكية. تضم الجماعات في داخلها عناصر من الجيش العراقي المنحل من قادة وضباط عسكريين وأخصائيين في التصنيع الحربي، قوى ضاربة ومدربة جيداً ذات مؤهلات تكنولوجية عالية المستوى، ومخابرات كفؤة متقدمة على مخابرات قوات التحالف، تزود باقي فصائل المقاومة بالأسلحة والتقنيات الحربية والمخابراتية، كما أنها تسن معهم وتخطط لهم.

ظهر المسؤول الذي نحن في انتظاره، يرافقه رجلان مسلحان ابتعدا عنه قليلاً، توقف مع أحد نزلاء الفندق وتبادل الحديث معه وهو يرمينا بنظراته. كان في حوالي الخامسة الأربعين من عمره، يلبس بذلة أنيقة رصاصية اللون، لحية خفيفة تحيط بوجهه، عيان نفاذتان وحاجبان كان، وشاربان عريضان، نظراته ثابتة مع عبوس يخالطه توجس.

«بشي في الباطن، وفي الظاهر قيادي في حزب إسلامي».

أنهى فاضل توصيفه السريع للرجل قبل أن يتضم إلينا. التوصيف لم يكن وانهاياً، وإن كان مبشراً. توقعت أنه سيتكلم بثقة زائدة، كأنه ما زال على رأس مناصبه الحزبية بأمر وإنهيه، لكنه تكلم بستهي اللطيف، وأصنى إلني بستهي التهذيب.

طرقت موضوعي مباشرة. قلت له: ما أريد منكم، الاتصال بالقاعدة، لديهم شاب سوري يدعى سامر يصل معهم، وهو ابني، وإعباره أنني في بغداد والسعي لتدبير لقاء بيننا، وإذا كان هذا عسيراً، فأنا لا أريد سوى أن تفلوني على المنطقة الموجود فيها، وسوف أذهب لرؤيته مهما كلفني هذا الأمر.

«إنه ليس عسيراً، بل مستحيل، لن تصل إليه حياً».

كان هذا رده الفوري، أما جوابه على طلبي، فكان سلبياً تماماً، المقاومة ليست على وفاق مع القاعدة، غالباً الحالة معهم متوترة. القاعدة تحاول سرقة الساحة الإعلامية بمصلحتها الانتحارية الطائفية الدموية.

«مخططاتهم جنونية، نضرنا أكثر مما تنفعنا، وتؤدي فكرة المقاومة. ما نعرفه عنهم كثير، وما نجهله عنهم أكثر، أحياناً لا نعرف عنهم سوى ما تبثه وسائل الإعلام، أين هم موجودون؟ ليس يوسعك أن تكون متأكداً، ولا أن تتكهن، يبرزون فجأة، يسيطرون على بعض المناطق، مناطق غير ثابتة، يستولون عليها ليلاً ويصبحون منها نهاراً، عدا أن تحالفاتهم متبدلة. هل يفيدك هذا؟ لا أظن أنه يفيدك بشيء».

وإذ لاحظ عيني، أردف قائلاً:

«مساعدك، ولن نتخلى عنك. ليس لأنك قصدتنا أو سبب مأساتك الشخصية، كنا على وشك البحث عن طريقة للاتصال بك، جابئنا معلومات من سورية، سألتنا الاهتمام بقضيتك. أرجو أن تثق بما أقوله لك، نحن لا نرغب في إعطائك أمالاً كاذبة».

«عن سبوت ١٢ إنه ابنك، حسناً لكنه شاب لا وجود له، إلا إذا عرفنا على الأقل اسمه الحركي، في حال حصلنا عليه، فقد نستطيع الاتصال به».

«هل ستكون الوسيط؟»

«هناك من هم أقرب منا إليهم، إنهم يشكون بنا، ولا يتفون بأحد، بصراحة لا يمكن إخفاء بعثتنا، في العراق كل شيء مفضوح، نحن مضطرون في المقاومة للتخاضي عن الكثير من التجاوزات، الظرف لا يتسع لفتح عدة جهات في آن واحد».

نهض، صافحني نهياً المقابلة:

«على كل حال، سنحاول من خلال سلسلة من الوسطاء الاتصال بهم، هناك تعاون بين بعض الجماعات الإسلامية العراقية المتطرفة والقاعدة، سأطلب منهم معلومات عن ابنك، ستصلني خلال يومين أو ثلاثة».

لم أتوقع الكثير، بل أقل من القليل.

الرسالة الحادية عشرة

(أطرق أكثر من باب، ثمة وعود.

كل يوم يمضي يجلب معه فرصة، تضيق مع الوقت.

أعيش على نزر يسير من الأمل ولو كان ضئيلاً.

على الرغم من الإحباط، لن أستسلم قبل أن أستنفد الوسائل كلها).



طلبت سناء مني المحافظة على حياتي، مع أنني لم أتخَلَّ عن حنري، ولم أقدم على ما قد يضرني أمام خطر فعلي. لا أريد تكهن دوافعها، تزعم أنه الحب، وأزعم أنه التثبيت بقائي حياً من أجل الجنين... لمجرد أن يكون له أب. لن أغالي في تخميناتي،

ولا أرغب في معرفة حقيقة موقفها. لم أكن مهياً لإصدار حكم أطمئن إلى سلامته. لنتي أتمكّن من تحيد سائر وإبعاد سناء عن خاطري، وأفكر في الجنين فقط، هل يمنع وجودي هنا في العراق حق الجنين في الحياة؟

توحيث ألا اتسرع بإجابة كانت متشائمة، حضرت في ذهني وبقوة، ما الذي سوفه لطفنا سوى هذا الدمار الذي لن يستني المنطقه كلها في المستقبل، لماذا نورطه بالمشي، في حين الأفضل حرمانه منه؟ لم يكن لهذا أن يخطر لي، لو أن الحياة لا يفرضُ بها في كل لحظة، بكل قسوة وبلا مبرر ولأنفه الأسباب، والمحض مصادفة عابرة. لماذا الإبقاء عليها إذا كان لا يمكن الدفاع عنها؟

ما يخطر لي ردني إلى سناء الجواب لا يخصني وحدي، بل يخصنا معاً، كانت تريد طفلاً، زواجها السابق لم يمنحها إياه. فرصة تهيأت الآن، ولن تتنازل عنها، أو تدعها لمشيئتي. لكن الأمر ليس غاضعاً لمشيئتها، وإن بدا كذلك، إلا إذا أرادت طفلاً من دون أب!!



عاد ميللر حانقاً من اجتماعه مع الكولونيل ضابط الارتباط، لم يأخذ بشكوكه، صبره نغد منه، وأراد إنهاء التحقيق حتى دون أدلة. طلب ميللر المزيد من الوقت، فلم يمهله الكولونيل سوى يومين. حجته أن اجتماعه مع مديري ميثرا كورب كان كارثة، التفرغ بدأ يسري في مطالباتهم وتوعدوا بإبصال شكواهم إلى البتاغون والبيت الأبيض. رفضوا الرد على أسئلة، وكانوا غاضبين.

قالوا إن رجالهم يعملون في مجال التدريب، وإذا قاتلوا، فلن يثقلوا بالموثق، وبهما كانت الأخطاء التي تحدث، فالحرب لا ترحم.

لم يكتف الكولونيل بالضغط على ميللر، بل ووبخه على إهمال قضية الشبان الشواذ، مع أن اللفتات جوناثان كان يتابعها يومياً. أمر عليه متابعها شخصياً، متجاهلاً أن ميللر أوكل هذه القضية ويعلمه إلى معاونه، بعد أن صارحه بأسبابه، وكانت شخصية بحتة، عدم لرتياحه للتعامل مع المثليين، كان راجعاً في مساعدتهم، لكنه يفتقر منهم.

كان في إشارته بالتقصير ضغط إنساني عليه. خاصة أن القضية بدأت تتخذ أبعاداً جديدة، بعدما تبين أن التهديدات بالقتل كانت بناء على فتاوى صادرة عن رجال دين شيعة، الخير وصل إلى البيت الأبيض والخارجية البريطانية، وتلقت قيادة قوات الائتلاف البارحة تعليمات عاجلة تطالبهم بالتحري السريع عنها لاتخاذ الإجراءات الفورية اللازمة.

لم يكن متأكداً فيما إذا كان الكولونيل أعطى قضية الشواذ الأولوية بناء على تعليمات واشنطن أم تضيقاً عليه. أبلغ ميللر مساعده جوناثان بالطلبات الواردة، فرد عليه بأنه على علم بها، أما الإجراءات اللازمة التي يجب اتخاذها لحمايتهم، فلن لا تخط به التوقعات الحسنة، فهي غير فورية ولا مستعجلة. المطلوب فعلاً، معالجة قضيتهم بتكتم شديد دون استفزاز السلطات العراقية، الجميع يخشون من استفلال رجال الدين لها. التعليمات اللاحقة التي تسلمها اليوم، تؤكد على خطوات ينبغي أن تتخذ بالتحفظ

بالاشتراك مع مندوبة لجنة حقوق الإنسان، بهدف إسكانها، قبل وصول الأمر إلى مراسلي القنوات التلفزيونية الغربية، لئلا تعمل منها قصة وعناوين كبيرة. أما الأولوية المطلوبة، فتضيق الوقت بحركات إنقاذ استعراضية.

والكثي نكابة بهم ستكون فعلية.

قالها جوناتان مازحاً، غير أن ملامحه كانت جادة. التفت نحوي قائلاً:

«لا بد أنني واحد من الطيور الخاسر العامل في الجيش الأميركي بالعراق».

لم يخف جوناتان أن لديه عدوة على الإنترنت يستخدم فيها اسماً مستعاراً، ينشر فيها أخباراً عما يجري، تحفل بما يسمعه من الجنود، الإذلال الذي يمارسونه عند حواجز التفتيش، مدهامة المنازل وتهديمها، العقوبات الجماعية، اقتحام المساجد، تفتيش الجنود للنساء، اعتقال الأزواج وإهانتهم أمام أولادهم وزوجاتهم، سرقة المعايخ والمدخرات.

أقبل يومين أطلق جنود النار في الهواء على متظاهرين، فهرب أكثرهم، لم يبق سوى عشرة، فقتلوهم جميعاً، ثم جاءت سيارة سرعة، فقتلوا السائق، وعندما خرج منها رجل رافعاً يديه إلى الأعلى لردوه قتلاً، ثم أطلقوا النار على سيارة أخرى فقتلوا الركاب جميعاً، وكان من بينهم امرأة وطفلان. قال لهم قائدهم، أحسنتم، يوم رائع، كان الصيد طيباً، سبعة عشر مدنياً في يوم واحد.

أعلن جوناثان، عندما يعود إلى أميركا مطالب بتسريحه، ونشط من أجل السلام، ويقود المظاهرات ضد الحرب.

لبلأ، تم ترحيل جثث ضحايا الضلوعية من المستشفى إلى المشرحة العامة، على أنهم قتلوا صدمات طائفية عُثر عليهم في منطقة مهجورة من الثلث السني. وضخوا في أكياس، أعطيت علامات وأرقاماً، ثم أرسلت للدفن في مقابر الغرباء. التعذيبات كانت، عدم الإقرار بها أو الكشف عنها إلا بعد الحصول على إذن بذلك، لئلا تثير هياجاً في الشارع وتعرض على المزيد من المنازعات الطائفية.



كنا جالسين في المقطورة، ميلر حائق، الحرارة عالية، التبريد لا يفلح في تبريد أعصابه الفاترة، لم يتجز شيئاً، الجنود عناصر مجموعة البرادلي الذين شاركوا في الإغارة، أصروا على أقوالهم، ولم يؤدّ تشديد الحصار عليهم إلى نتيجة.

عندئذ دخل علينا جيبي!!

غامر الصحافي بالظهور علناً عند باب المقطورة، اضطر إلى المجيء في هذه الظهيرة الخائفة. لديه ما لا يحوز قوله على الهاتف، أو تأجيله لجلسة يتفق عليها، والأهم، أنه يتطلب المناقشة وجهاً لوجه، لكن ليس قبل توضيح ما يجري، ولم يكن من قبيل المصادفة أن ما جاء من أجله كان يشغل بال ميلر الحائق.

الجنود تلقوا أوامر بالثبات على أقوالهم، مع التعهد لهم بأن

التحقيق لن يطالهم، القضية سوف تقفل بعد يومين على الأكثر.

الواضح أن جيمي يستفي معلوماته من صديق له داخل المجموعة، يترقب إليه أخبارهم. وكان رأيه ألا يعاود ميللر التحقيق معهم قبل الحصول على معلومات جديدة يواجههم بها.

غضب ميللر وقد تغافم حنقه، المعلومات الجديدة لا تهمة، القديمة التي بحوزته كافية. وأصر على معرفة من يكون صديقه. فرفض جيمي، لن يخسر مصدر معلوماته.

اشتعل غضب ميللر، وسأله ساخراً:

«هل ما زلت وراء الحقيقة؟».

«لكني أكون صريحاً معك، لن أتفرع بالحقيقة كثيراً، وإذا كنت أريدك، فلأحصل على خبطة كبيرة».

أنهى ميللر النقاش بحدّة:

«أنت تهرب الحقيقة لتكتب عن فضائح الحرب، أما أنا فأريد الاقتصار من الفاعلين، ليس بوسعي الانتظار، لو تأخرت أو تسهلت، فقد يتجون بجرأتهم. بالنسبة لك، تستطيع نفض يديك من هذه القضية».

لم يقل هنا الكلام إلا لأنه كان عازماً على طرد جيمي من المقطورة. نهض من مكانه وأشار بإصبعه إلى الباب. قال جيمي:

«إذا خرجت من هنا، فلن أتصل بك ثانية».

تردد ميلر، تابع جيمي الذي انتهز الموقف قائلاً:

«تمسكي بمصدر معلوماتي مهما كانت أسبابه، لا يسيء إلى الحقيقة».

تجمد ميلر، ما زالت أصبعه تشير نحو الباب، كان قد عزم على عدم التراجع.

كانا قد وصلا إلى طريق مسدود ولن يتفقا على شيء. صمت جيمي كان قد انتهزم. فكر قليلاً، ثم قال كأنه يلقي بكلماته الأخيرة قبل أن يخرج:

وأفترق، لا ينبغي المبالغة، الحقيقة قد تكون سيئة جداً وتهتدنا نحن الذين نسعى إليها، حتى أننا قد نضطر إلى صرف النظر عنها نهائياً. لقد عسرت قضية كبيرة لأنني بحث باسم من سرب إلى المعلومات. تمكنوا منه، وجعلوه ينكر أقواله كلها.

عُزل ميلر منه، عاد إلى مكانه، وترك جيمي يتكلم.

في العام الثالث، صادفه قضية تصلح للصح إلى الجرائد، أطفال لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، خضعوا للتعذيب لإجبار أمهاتهم وأخواتهم على الإدلاء بمعلومات تخص أزواجهن وأشقاؤهن من الذين يُشك في عملهم مع المتطرفين. بعض الضباط من الذين وصلهم الخبر، احتجوا على تعذيب الأطفال، كان الرد أن الأطفال غير أبرياء، بل ويعرفون أشياء خطيرة من الممكن الحصول عليها بسهولة وبقليل من التهديد، بدعوى أن الأطفال ينهارون مثل أمهاتهم، فيبوحون بما يساعد على القبض على

أقاربهم من المطلوبين الفازين، فصدرت التعليقات بالموافقة، على أن يقتصر التعذيب على تخويفهم فحسب.

إثر بعض التجاوزات التي أدت إلى تقدم في التحقيقات، سُحِح للمحققين وإهانتهم بالكلام الجارح مع توجه بعض الصفحات غير المؤيدة. ما تحقق من نجاح أثبت فاعليتها، فطالبوا بزيادة العيار، فصدرت الأوامر بتعذيبهم بشكل لطيف دون إحداث عاقبة، جرى تجاوزها أيضاً خلال التحقيق إلى تعذيبهم... لكن ليس حتى الموت. تصور أطفالاً محروقي الأصابع، مخلعي الأكتاف، مهشمي الأسنان، مفلوعي الأطراف، تعرضوا إلى صدمات كهربائية... هل لولد في السادسة أو السابعة أو الثامنة من عمره، القسرة على تحمل هذه الآلام المبرحة؟ وأبت طفلاً صار معتوهاً من فرط التعذيب، وآخر يعاني من الذبول، لم يفهم حتى بعد مرور أشهر على إطلاق سراحه، لماذا كانوا يصرخون في وجهه ويضربونه!! هذان الطفلان لم يكن بحوزتهما معلومات كي يوحا بها، وحتى إذا افترضنا ذلك، أقلن نتساءل، ترى ما هذه المعلومات الخطيرة التي يخفيانها!! ثم تصور الأمهات اللواتي يربين أولادهن يضربون بهذه الوحشية والبرود، أكن يقنع فرسة الجنون؟ طبعاً هنا غير مهم، ما دمن سيحزن بما يعرفه.

ما حصل أدى إلى موت عدد من الأطفال، فتكتموا على موتهم وإغفاء الجثث عن أهاليهم، الأمهات رفضن ممارسة السجن إلا مع أطفالهن، فاضطرت سلطات التحقيق إلى دفن الأطفال في الصحراء بحضورهن. كان المشهد فظيماً، مناعة لا يمكن تصورها، شيء يفوق الهستيريا، بكاء وإغماسات ولطم وشد شعر... ومنهن من أشرفن على الموت لولا إسعافهن، منظر لم

يحتمله حتى القنلة الذين أمروا بتعذيبهن وتعذيب أطفالهن!! بعد ذلك إسكناً للأمم، صغر أمر بإيقاف الإجراءات ضدهن، بشرط ألا يتكلمن، طبعاً مع التهديد بإعادتهن إلى السجن مع ما تبقى من العائلة مهما كانت أعمارهم، ولو كانوا رضعاً.

«بعدما علموا أنني في إثر هذه القضية، اعتطفت من الفندق، واحتجرت في ثكنة عسكرية».

شوا بعدها حملة معاكسة، أشرف عليها خبراء. المشير للاشمعاز، أنا لا نفتخر إلى خبراء في كل شيء، التعذيب، القتل، الكذب، التهويل... سربوا إلى الجرائد شهادة لجندي كان ضمن مجموعة تحرس قافلة شاحنات تنقل الوقود، واجه أطفالاً مسلحين في اشتباك كان من أعنف الاشتباكات العسكرية، حصلته قتل جنديين وستة سائقين. قال، إنه تميز أطفالاً بين أفراد عصابات المتحربين الذين هاجموا، الأول في العاشرة من عمره يحمل كلاشكوفاً، والثاني في السابعة ويحمل رشاشاً، اضطر إلى قتل أحدهم دفاعاً عن النفس. أي أن الأطفال يشاركون في القتال، ومن الطبيعي وفوق عسائر بينهم.

استمرت الحملة المعاكسة وتوسعت، فجرى التركيز على عرض شرائط مصورة تظهر أطفالاً يقرأون القرآن وينشدون القصائد الدينية، كخطوة لا بد منها تؤهلهم للاشتراك بتنفيذ عمليات التجارة الدموية. ولكي تكون الرسالة أكثر وضوحاً، ألح الخبراء على موضوع تجنب الأطفال من خلال عرض أفلام لأولاد في تنظيم يدعى «تيان الجنة»، يقومون بتدريبات عسكرية على أسلحة حقيقية. ما أذهره لم يناف الحقيقة كثيراً، هذا التنظيم تابع

للقاعدة التي اعتمدت على استمالة أبنام الحرب ممن قتل أهلهم في عمليات القصف العشوائية، أو اعتقل أبائهم وأخوتهم، أو كانوا من ضحايا الاغتصاب الطائفي، مستغلين بتهمهم وفقدهم ورغبتهم في الانتقام، على أمل الاستفادة منهم في تنفيذ ما يوكل إليهم من مهمات لا تتعدى المراقبة أو نقل الرسائل. عادة الأطفال لا يشيرون الشكوك عند اقترابهم من نقاط التفتيش أو بعض الحفريات الحساسة، لكن أحياناً تبلغ الحماسة بعضهم حد المشاركة في العمليات القتالية. بعد حين تبين أن الأطفال لم يكونوا أطفالاً، بل أولاداً أقرب إلى سن البلوغ في حوالي الخامسة عشرة من عمرهم. حاول الخبراء الاستعانة بتنظيم آخر تابع للقاعدة أو لبعض جماعات المقاومة الإسلامية، كان مجهولاً وليس لديهم معلومات موثوقة عنه، أطلق عليه «عصافير الجنة»، كان لرعاية الأطفال الصغار الفقراء الأيتام، ومنهم ما زالوا في القنصل، لتأمين الطعام لهم وتعليمهم، ولا يستبعد أن يكون الهدف منه بعد سنوات طويلة تدريبهم على القتال، لكن هذا يبقى غير مؤكد. ورجوا عنه أنه يضم مقاتلين وانتماءين صفاراً في السن، كي ينفذوا عمليات قتل أطفال لم يتجاوزوا الثامنة من عمرهم، قتلوا بالخطأ أو تحت التعذيب. فارتدت الاتهامات على الأهالي، بأنهم يتبرعون بأطفالهم لمنظمة القاعدة، كي تستعملهم قتالاً بشرية. الشخص الذي سرب إلي هذه المعلومات، اختفى بعد أن تراجع عنها.

ومنعت عني الاتصالات، وقيدت حركتي، فعلياً صرت تحت المحاكمة. وجرى إعداد لائحة اتهامات ضدي، تشمل عدم الوطنية، وإضعاف المجهود الحربي، وربما الخيانة، في هذه الأيام، لا تنري بما قد تبهم، أقلها بالنسبة للصحافيين: ترويح أبناء كاذبة.

غير أن أطرافاً عديدة تدخلت لإلقاء المحاكمة، وإبقائه في العراق، حتى لا يثير القضية في الصحافة.

«على كل حال، سواء كنت في وارد الحقيقة أم لا، هناك دافع إنساني، لا أريد لجهدي أن يكون بلا مقابل، ومهما يكن فهو ليس بالعمل القفر».

لم يبقه سبيل بكلمة. أخذ جيمي نفساً وتابع:

«هل تريد نصيحتي؟ لا تدع القسيس باركلي يفلت منك، سارع باستجوابه، دون أن تعمل أي حساب لتدبته، ضع في ذهنك أنه رجل محتال. عندما كان واعظاً، تورط في اختلاسات مالية، وقضايا أخلاقية شائنة».

«هل لديه صحيفة سوان؟».

«صحيفته نظيفة، مع أنه قبل سنوات استغلّ منصبه الكهنوتي وقام بمشروع عميري انتهى إلى الإفلاس، وتبخر ما جمعه من هبات، العشير للسخرية أن العشيرعين سكتوا عن سرفاته، لأن مواضعه أراحت نفوسهم وطأنتهم إلى خلاصهم في الآخرة».

«أعشى أن باركلي كان مخدوعاً، لا يدري أين كانوا يذهبون، ولا ماذا يفعلون. استعملوه ليدو عملياتهم مشروعة، أو ليخفف عنهم تأنيب الضمير».

«لا تظنه رجل محبة وسلام، إنه داعية حرب وكراهية. يشجع الحاربتز الدمويين والمرتزقة الأثحاح على القتل، ويكره العراقيين

دون استثناء ولا تمييز، بجامع بأن التخلص منهم أجدى من حياتهم، هنا ما يمكن صراحة في منشوراته ومحاضراته.

بات لا بد من مقابلة النفس باركلي.

الرسالة الثانية عشرة

(لا أتدري إلى أي حد أتورط كل يوم في العراق.
البشر هنا قصص متحركة، كل قصة لا تفلّ فسوة عن الأخرى.
أخاف أن أحرز قصة شبيهة.
أحس بكأبة شديدة.
الصورة التي تطالعني قائمة جداً.
تجاوزت الحزن، مشاعري تبلدت.
أعشى أنني أقاوم على حسابك أنت).



. بنهم القسيس باركلي في غرفة متصلة بقاعة متوسطة الحجم، في
البناء الذي استأجرت الشركة فيه مكاتبها، يلقي في القاعة دروسه

وعظاته على الجنود الراغبين في نفحة ندم من الذين تذكروا الله بين التيران، أو الذين يريدون أن يسمعوا شيئاً يطمنهم، عما إذا كانوا يقدمون تضحية على مذبح حروب الرب، أم هي خدمة عاتية للوطن لا تشملها اعتبارات الخلاص المسيحية؟ وماذا لو ماتوا فوق أرض بلد يكرهونه؟ كان هنا موضوع بعض الكراسي الموضوع على طاولة بجوار الباب.

القاعة تسع لعدة صفوف من الكراسي، تبدو كأنها فرع لكتيبة، أو حجرة داخلية في دير مع قنر لا بأس به من الحدائق والجاهزية القتالية، فإلى جانب الصليب والمسيح بإكليله القاسي، والعذراء الباكية، شاشة للعرض كبيرة معلقة على الحائط، بالإضافة إلى شاشة تلفزيون صغيرة مفتوحة دون توقف وبلا صوت على قناة «فوكس» الفضائية، ثم كرسي ومنضدة عليها جهاز كومبيوتر وطابعة. وإلى الحائط، أسندت بنائفة كلاشكوف من أحدث طراز، على رف بجوارها ستة مخازن ذخيرة، ومسدس غلوك وسبع ثلاثة مخازن ذخيرة. ثم قنبران يدويان عاديان.

كان باركلي يلقي درساً حول النبوءات المقدسة، وكأدوات إيضاح علق على الحائط الجانبي بعض الصور والمخططات. دخل سلم إلى القاعة في الوقت الذي وصل فيه القس الأربعيني الحليق اللقن والشاب الشعر، إلى موقف مسرحي يستلزم الإلقاء بصوت جهوري وبلهجة مظفرة:

«قد سقطت، قد سقطت بابل، وجميع تماثيلها قد طُرح بها أرضاً وتحطمت».

وأشار بيده إلى صورة معلقة جرى تكبيرها عدة مرات، ساحة

الفردوس في بغداد وتمثال صدام حسين المحطم. كان التشبيه جلياً، بغداد هي بابل الوثنية التي بشر بها سفر نوحيا في العهد القديم، أما التمثال المنطرح على الأرض، فيمثل كبير آلهتها.

دخول الميجور إلى القاعة لم يلفت اهتمام القسيس، ربما أنه لم يره من قبل، ظن أن الفضول دفعه للاستطلاع. حياه بنظرة من بعد، وارتد إلى فرسه، كان قد أنهى استطراده في ملاحقة فكرة جانبية، تعقياً على تساؤل لأحد الحضور. وتابع حديثاً سبق أن بدأه، مشيراً بعصاه إلى مخطط أشه برنامج يحتوي على فقرات مبهمة، عنوانه: «خطة الله للدمرة».

كان قد وصل إلى أواخر العصر السادس من الخطة، أراد التركيز عليها لأنها الفترة التي نعيشها اليوم، ونحن الآن في انتظار حدثها الرئيسي الأول: «الارتقاء»، حيث سيظهر المسيح في الغيوم وسط هالة من نور، ليأخذ المؤمنين إلى السماء بدءاً من الأسوار فالأحياء. هنا الارتقاء سيحدث فجأة في كل أنحاء العالم، تختفي على أثره أعداد كبيرة من الناس، خاصة الأطفال دون سبب ظاهر.

وعرض كوسيلة إيضاح إضافية، فلم فيديو على الشاشة، تظهر فيه ناطحات سحاب وأبنية عالية، حقول فسحة وشوارع عريضة، أشجار خضراء، وسيارات حديثة، وشاحنات كبيرة... ومقابر، وفي العالي المسيح بين الغيوم، باسطاً يديه لاستقبال المؤمنين. في الشوارع تخرج السيارات والشاحنات عن الطرقات، تنقلب وتندلع فيها النيران، الطائرات تصطدم بناطحات السحاب، ومن المقابر تخرج الأجساد البشرية وتأخذ بالارتقاء، يرتفون إلى السماء، تلتق بها أجساد الأحياء.

الحدث الرئيسي الثاني هو: «المحنة الكبرى»، تمتد سبع سنوات، يحكم أثناءها المسيح الدجال العالم من الهيكل في القدس، تحدث خلالها معاناة ومآسي رهيبه. في نهايتها يأتي المسيح بمجده وجلاله، يقود جيوش القديسين والمؤمنين ويهزم جيوش المسيح الدجال في معركة سجيلو قرب حيفا.

بانتصار قوى الخير على قوى الشر، تبدأ الفترة الألفية السعيدة، يحكم المسيح ابن الله العالم، وهو جالس على عرشه في الهيكل، وبسود السلام والعدل والسعادة.

هذه هي خطة الله للكون من الأزل إلى الأبد.

سأل جندي من العارمئز القسيس باركلي بعض الأسفلة عن الجيوش المتحاربة. فقال له إن جيوش الخير ستضم الأمريكان والأوروبيين والإسرائيليين، أما جيوش الشر، فهم العرب والروس والصينيون.

والغلبة ستكون لجيوش الله.

شكا جندي من جنود المشاة، جالس إلى جوار ميلره، من شعوره بالذنب لأنه قتل مدنيين عزلأ، رجل وامرأته وطفلهما، تجاوزوا الحاجز العسكري عن جهل الأوامر العسكرية كانت إطلاق النار على السيارات المسرعة، للأسف لم تكن السرعة كبيرة، لكن أصبحه كانت على الزناد سريعة. كان المنظر مرعباً وهم يخرجون الجثث الثلاث من السيارة، قبل قليل كانوا أحياء!! المولم، أنهم لسوا إرهابيين. منذ ذلك اليوم لازمه الأرق.

ولا للشعور بالذنب، إنها إرادة الله. اقلهم جميعاً، تم بملكك، لا توفر أحداً منهم، ودع تصديقهم لله.

أثار جوابه هجمات مخافتة من عدم الاستحسان، بسط يديه يهدئهم وعقب بأن حوادث إطلاق النار كثيراً ما تقع، تحت تأثير التوتر والخوف والارتباك، أو لمجرد الاشتباه، بعض الجنود اضطروا خلال الاشتباكات إلى قتل نساء وأطفال. لا ينبغي أن يشعروا بأنهم مجرمون، هنا يحدث عن غير قصد.

وأقول لهم، لقد قسم بفعل صحيح، لا تؤاخذون عليه، هنا عمل الله.

اعترض جندي:

«هناك من يقتل مداعي التسليحة».

انهم باركلي وغنم بإجابة غير واضحة، بدا من خلالها أن لا مشكلة دينية؛ الله على استعداد للغفران، المشكلة مع القانون، لكن هناك أسباب تخيلية.

واحد من المتعاقبين المدنيين، ضخم الجثة من فريق حماية الشخصيات المهمة، سأله عن مكانة هذه الحرب في العراق في الخطأ.

«إنها المقدمة لتحقيق النبوة عن دمشق، هذه المدينة ستدم قريباً. كن على ثقة، ستصبح كومة من ركام».

المحاضرة لم تعجب كابورالأ زنجياً. وقف قاتلاً، إن ما يعرفه عن

الإسلام أنه دين مثل المسيحية واليهودية، المسلمون يعبدون الرب نفسه، ويصلّون مثل الآخرين، ودينهم يردعهم عن الأعمال السيئة!!

إذا كان الإسلام ديناً، فهو من أُنبت الأديان، زعيمهم محمد إلهامي، قتل المسيحيين واليهود بحد السيف، وجعل شره للنساء، مزواج لم يوفرن حتى صغيرات السن اللواتي لم يبلغن بعد، كان يختصهن.. هل هناك نبي وفاسق!!١٩.

لَوْح الكابورال برأسه غير مصقَّق وقال:

وأنت لا تقول الحقيقة، وأنا لا معلومات لدي.

وانسحب من القاعة بعد أن أحدث غير قليل من الهرج.

أنهى القسيس المحاضرة، فنهض الحاضرون وبدأوا بالخروج. تلكأ ميلر ربما فرغت القاعة، اقرب منه، وقدم نفسه إليه.

اربدَّ وجه باركلي، زمَّ شفتيه وتحفّر، ورحب به ببرود، ونبيه بجفاء، ألا يطبل وجوده، لا يستطيع إعطائه إلا القليل من الوقت، لديه مشاغل كثيرة، روحانية تماماً، يريد التهيؤ لها، قبل أن يخلو إلى نفسه.

واجهه ميلر دون مقدمات بما ارتكبه المجموعة التي يرعاها من جرائم، وطلب منه تفسيراً، ومعلومات عما كانوا يفعلونه؟

ولا أعلم أكثر من غيري المهمة الموكولة إليهم كانت الفيض على المتطرفين مفجري المركبات الذين يقتلون جنودنا. وما قدمت

لهم لا يزيد عن تلاوة صلاة قصيرة قبل أن ينطلقوا إلى مهماتهم، كنت أباركهم ثم يرددون ورتلي الدعاء: يا رب، هناك أشخاص أشرار، ساعدنا على العثور عليهم، وسامحنا إذا قلناهم.

«يلو أنهم عثروا عليهم».

«الرب ساعدهم».

«هل تعتقد أنه سيسامحهم؟ شركاؤك ارتكبوا عدة مجازر».

«شركائي في الإيمان».

«قتلوا رجالاً ونساء وأطفالاً أبرياء. كان عليك أن تردعهم لا أن تباركهم».

«لقد أدبت واجبي الذي نعوذ به».

«ما الذي كانوا يبحثون عنه؟».

«لم أسألهم».

أجاب القسيس عن أسئلة بامتعاض وحنقة، معتبراً عن اتزعاجه من طرحها، كانت لا تستوجب التساؤل. قال ميلر:

«إذا كنت تعلم بغاراتهم الليلية، فأنت لا تجهل بأنهم لم يحصلوا على إذن بالقيام بها. أجبني بصراحة، لا تكذب، أعرف عنك الكثير».

«وأنا لا أكذب، لا تنس أنك تتكلم مع قسيس».

«وأعرف عن الحصة التي وعدوك بها، مليون دولار، مكافأة عن ماذا؟».

باركلي الذي اعتر للحظة، سرعان ما تماسك:

«مليون دولار؟! هل تظنهم سيخرون على منجم ذهب؟».

و كأنه جاء دور القيس ليبحث به، كان ينسم بلؤم ساخرأ منه.
كان ميلر قد فشل في تضييق الخناق عليه.

«لا أنزع معك، لدي معلومات عن تورطك معهم».

«أنت تنتهم رجل دين مسيحياً أبيض وأميركي، انتبه لا سلطة للجيش الأميركي علي، ولا لأحد، سوى الله».

لم يتحمل مراوغته، بلغ به الانزعاج أشده، لم يعد باركلي يكذب عليه بل يتلاعب به، ويستعين بالله عليه!! أيقن جازماً أنه أمام قيس محتال فعلاً، جاء مع مرزقة شركة متراء، مرزوق مثلهم، ما الذي يمنعه من استغلال الدين المسيحي وتوريط الجنود بالقتل تحت راية يسوع!! غير أنه فقد صوابه عندما استمرأ باركلي مقدرته على التخريف.

«انتبه، هنا نداء الرب، لا تعرض وإلا يقضى عليك بنار جهنم».

كان يهتده بالذات!! أليس جنوناً أن يعتقد قيس مزيف أن صوته نداء الرب، أو بإمكانه أن يرسله إلى الجحيم؟ لكنه لم يفقد اتزانة إلا عندما لمح تلك الأبنسامة الساخرة تزداد لؤماً، وباركلي يتصرف باستعلاء كأن تأثيره لا يقاوم، ولا يستطيع أحد أن يطاله

بحرم أو شبهة.

أسكه من ياقته وشده نحوه بنفسه.

وأنت الذي أرسلت إليّ المشورة.

فوجئ باركلي بحركته، والأكثر بعيني ميللر، كأننا نغليان بالغضب، فيما قبضته تشتد حول عنقه. خرجت الكلمات متحشجة من بين أسنان باركلي، فهم منها ميللر أن الحرب دينية.

ويل من أجل الديمقراطية.

ودفعه بعيداً عنه بكلتا يديه، فاصطدم باركلي بالكروسي وانقلب به. ارتفع بجذعه، وهناك من موضعه على الأرض، هتف وهو يرغي ويهده:

وأيتها الأحسن، إنها فرصة للكاثوليك والإنجيليين للفضاء على عصابات المسلمين. لا تشفق عليهم هؤلاء العرافيين، إنهم عرب مسلمون أوغاد، كفار بالولادة، يحتقون دين الإرهاب، لا يحرفون تعاليم كتابهم، وإنما يطبقونها كما وردت فيه، دينهم بأمرهم يقتل المسيحين حينما وجدوا وأن يكونوا لهم بالمرصاد.

تتم ميللر حانقاً، إن لهم حقاً بالحياة.

ولا تغلقها، هؤلاء الذين تدافع عنهم غير جديرين بالعيش، إنهم ينحدرون من سلالة أقل مكانة منا، حيوانات تنجي الصراخ فيهم. وإذا أردت أنت وغيرك، تحريرهم ومنحهم الديمقراطية، فهم لا

يستحقون هذا الخير، إنهم سائرون على طريق الشر. أما نحن، فعلى صواب».

«سأبذل جهدي كي أسجلك».

«أتدرك ما الذي حققناه هنا؟ لقد أجبرناهم على السجود لنا وتحت أقدامنا، هؤلاء الذين يشاهرون بأنهم لا يسجدون إلا لربهم».

«لا تستعجلني، قد أخطك».

«وأعدوك، أنت لا ترى بعيداً، عظمة الكون هي التقدير الإلهي لجميع العصور منذ بدء الخليقة وحتى الأبد».

انتهت المقابلة العاصفة بوعده من ميللر للقبس أنه سيقبض عليه ويوقفه عن عمله.

انطلق ميللر من فرره وقابل الكولونيل، وأطلعه على حقيقة تستر شركة ميترا كورب على قبس محثال ذي ماضٍ قذر. وطلب الإذن كي يودعه في السجن ريثما يحقق معه. استمع الكولونيل إليه، ورفع حاجبيه، لم يكن مدهوشاً، كان متفائلاً، ما قال شيئاً. نهض من وراء مكتبه وأخذ يتمشى بعصبية جيئة وذهاباً، تمشى كي يكبح غضبه. ثم توقف فجأة واستدار نحوه.

اسع ميللر، نحن لا نهتم بماضي الأشخاص الذين نتعامل معهم، إن أغلبهم ذور ماضٍ مبهم، لو أخذنا بالحسبان سجلهم المعهني أو وضعنا شروطاً أخلاقية على استخدامهم، فلن يأتي أحد إلى العراق.

هل تريد فكرة عن الأشخاص الذين نتعاقد معهم؟ عسكريون تشيليون يتمون لفترة حكم الجنرال بينوشيه، هؤلاء قتلوا وعذبوا معارضين سياسيين حتى الموت، وبلاذهم لم تحاكمهم. ضباط سابقون من جنوب أفريقيا متورطون بالعديد من الاغتيالات في مرحلة نظام الفصل العنصري، ومنهم أعضاء في الشرطة السرية متخصصون بمكافحة التمرد، لم يتورعوا عن وسيلة لإخماد أي بادرة احتجاج شعبية. وهناك فرنسيون وبلجيكيون من رجال المظلات السابقين من ذوي السعة السعة جداً، وأيضاً محاربون روس قدامى عملوا في الشيشان، بلغت بهم الفسوة أنهم كانوا ينجرون أسراهم، بالإضافة إلى مجرمين نزلاء سجون لانهاكهم حقوق الإنسان، وإسرائيليون يعرفون العربية لديهم سجل حافل بقتل الأطفال والنساء في انتفاضات الشوارع، وعسكريون أميركيون متقاعدون شاركوا إن لم يكونوا قد صنعوا انقلابات أميركا اللاتينية... لائحة طويلة، وهناك المزيد، جميعهم رجال ذوو خبرة، وعلى درجة عالية من الاحتراف، يتمتعون بشجاعة نادرة مع روح المبادرة واتخاذ القرار، الحرب مهنتهم، لا يشكل لهم ذوي القنابل والتفجيرات وقذائف الهاون ولعلمة الرصاص سوى موسيقى حماسية مرافقة لا بد منها لتجديد نشاطهم، فلا تتوقع محاسبتهم أو مفاضاتهم.

لا أريد أن أسمع منك شيئاً عنهم.

في اليوم نفسه، وجه القسيس باركلي ضربتين متواليتين إلى ميلر، الأولى قاصمة. تقدم بشكوى إلى شركة ميترا كورب، زعم أن المسحور اعتدى عليه في غرفته، ضربه وطرحه أرضاً، وهدد باعتقاله... أما الثانية فتسوجهة، إذ غفر له فعلته. ولم يطلب شيئاً

لنفسه، أليس الميجور جندياً في جيش الرب، جيش الولايات المتحدة الأمريكية؟

أنعق ميلر في استصدار أمر بتوقيف باركلي، واعتبر كلام القسيس عن الخطط الكونية لغواً دينياً، لا موجب للتعلق عليه، ومن الأفضل عدم الإشارة إليه من قريب أو بعيد. كانت سلطات الاحتلال جادة في استبعاد هاجس بنى عنه.

سأني ميلر، هل لدى المسلمين شيء شيه بهذه المحضات؟

قلت له، ما أعرفه، أننا نحن المسلمين نعتقد أن الله لم يطلع أحداً على خططه.

الرسالة الثالثة عشرة

أنت لا تلومني... لا أنكر هذا. أنا ألوم نفسي.

لقد خلقت وراثي مشكلة كبيرة.

أنت في ورطة، آسف لأنني لست قريباً منك لأخلصك منها.

أسيء دائماً إلى الذين أحبهم.

لو أضعت النظر في حياتي، لهلاني ما اقترفته من أخطاء.

أنا عالق في واحدة منها، أسوأها على الإطلاق.

لا تدعيني أعتقد أنني ارتكبت معك خطأ لا يمكن إصلاحه إلا
بإهمال ما أنا جالسٌ في سبيله.

نعم أنا بحاجة إلى دعمك أنت بالذات

سؤالي، هل تدافعين عن علاقتنا، أم عن الجنين؟).



لا تخيّرني بينكما، أريدكما معاً. كان هذا ردّها.

ومع هذا يحزن لي طلب مساندةها، سواء مدينة لي مثلما أنا مدِين لها.

كانت في أشد الحاجة إليّ، في وقت لم تعد فيه تحتل مشاعر الوحيدة، ولا معاناة عزلة ضاقت بأوهامها ووساوسها، عتفاً في داخلها إحساساً بالثقت والضياع، واليأس من مستقبل بنا في منتهى الإجحاف. وكادت أن تنهار وتقبل بعرض زوجها، وتكون زوجة أولى قديمة إلى جانب ثانياً جديدة.

شجعنتها أحاديثي معها على عدم التراجع. ولقد احتاجت إلى جرأة كبيرة كي ترفض عرضه، لم تتوفر لولاي. في ذلك الوقت اخترتني، مازحة، مرشدتها الروحي، لم أحاول لعب أي دور آخر، كان غارق العصر يتنا نحو عشرين سنة.

بعد حصولها على الطلاق، لم أتركها نهياً لحرية الفراغ، ولا لندم المطلقات، وكان ولداً بعد زواج طويل سبقته سنوات حب عديدة. ومع هذا حرك الانفصال النهائي أحاسيس أخرى بالإضافة إلى القديمة، كان أكثرها إرهافاً إحساسها المتكامل بالغبين الشديد، تلك كانت محتها الثانية، وكانت جلية في اعترافها لي، بأنها لم تكسب شيئاً لنفسها من زواج حصدت وحدها خسائره الكبيرة. أضاعت سنوات شبابها البافع، وتنازلت عن حقوقها

المادية، ولم ترزق بولد يمنحها دافعاً جميلاً للحياة؛ ولقد فاقم شعورها بالإعمال، أنوثتها المهددة باليباس، هكذا تخيلت، وكادت كي تعيد الاعتبار لجسدها أن تنجرف في علاقات تافهة وعابرة.

كان البدء من جديد بعد حياة زوجية اعتادت عليها، رغم كل عائلها، مشكوكاً به. بل وكاد اندفاعها نحو بداية أخرى، أن يورطها بزواج مرتجل. ظهر رجل في حياتها، جاء من الماضي، كان زميلاً لها في الجامعة قبل الزواج، لم يثر لديها في ذلك الزمن شيئاً، فجأة أصبح فارس أحلامها الذي سيحقق كل آمالها.

كان أكثر ما تخشاه أن تنحسر على فرصة صفوتها إن لم تنهزها. قلت لها، لا ينبغي للعمر أن يجبرك على التورط بعلاقة دافعة كالزواج.

قلت، العمر يرفني.

كان إحساسها طائفاً بأنها تقترب من سن اليأس.

قلت لها، ليس هناك سن لليأس.

الحياة تبدأ ثانية في أية لحظة نحن نخطوها.

ولم أكن مؤمناً بهذه الفكرة. أحياناً لا أدري ماذا تعني الحياة بالنسبة لي، بعدما تخليت عن آمالي، لكنها لم تتخل عني، منحتني مبرراً غامضاً للاستمرار، وأكثر من دافع للخلاص، دون أن نهني أي يمين، كان في سلوكي طريق الحيرة والتردد، عبار أقل

وطأة على الضمير، وأفضل من الانصياع لأرزمة الطاق..

بالنسبة إليها، كانت حظوظها أفضل مني، كان الخلاص في الشعر تمويحاً ملاحظاً في هذه المرحلة الفاصلة، حرصتها على مواصلة الكتابة لتسير غور حياة يجب التصر فيها، لا أن تعاش كيفما اتفق، بالتعلق بوهم آخر، أو التعلل بأمل زائف.. كان لديها الكثير مما فعله، ولا سيما أنها بدأت تشق طريقها بالفعل في هذا العالم الفسح، ما ساعدها على التأمل والتفكير من التروي والتفكير، حتى أنه حثها على التراجع عن الزواج، لتخرج بقرار نهائي، أملاء الشعر عليها؛ لا لتجربة زواج ثانية؛ وكأن الشعر حرية.

في الحقيقة، قرأت نفسها في شعرها.

هي أيضاً، ولا أنكر، كان لوجودها تأثير خفيف من تبعات انفصالي عن زوجتي، والمروءة بأزمة ما بعد الطلاق بقدر معقول من العناء. نجحتنا في تضخيم جراح بعضنا بعضاً، تجلّى في هذا الدعم المتبادل، دون التفكير من ناحيتي بالزواج بها أو بغيرها، كان الشعور بأنني تقدمت في السن سيطراً عليّ، رغم أن علاقتنا بعثت في حيوية لم تكن كالمية؛ كان الماضي متحكماً بقررتي، أودت بي هزيمتي في السياسة والسيادة إلى اعتزال الحياة معها، وعلى الرغم من ذلك السرور الفاضل للاستمرار، كنت أشبه بأنني لا أعيش.

استمرت صداقتنا دونما هدف، ما جعل لقائنا تتخذ مساراً متقطعاً وحادثاً، لم يتسارع أو ينتظم، فلم نتقدم خطوة أخرى ملموسة. كنا حفرين تجاه أية مشاعر متطرفة تدفعنا إلى الوقوع ثانية في شباك ما تجرنا منه، شقنا ألا تتكرر علاقتنا على نمط

مشابه، في الماضي كانت مبررة بفعل الحب الأعمى، أما الآن فما الذي يبررها؟ كنا مبصرين وعائلين أكثر مما يلزم.

كنا مرضى بالبصيرة والفعل.

هذا التجاذب الرصين، أشاع في داخلي الثقة بأنني كنت متحرراً من المواطنف، وغير متحمس لأي رباط مقدس أو غير مقدس. فيما كنت، من غير أن أدري، أستهل أولى عخطواتي في علاقة كانت على الرغم من محاولتي الحفاظ على مسافة بيننا لا أتجاوزها، تنفصل مع الوقت، سمحت لي بتقارب وتهد ذي طابع غرامي.

صحيح أنني لم أظهر مشاعري، لكنها باتت تؤرقني. فخشيت الوقوع في أسر ما يحمله الواحد منا من احترام للآخر، وأستمرى حالة من الترفقة الخجولة لا أتعلها. ولأنني أنا الرجل كانت المبادرة مطلوبة مني. صارحتها بكثير من العود عن شدة إعجابي بها، وعن أمني بأن تشر علاقتنا على نحو أعمق، واقترحت رفع وتيرة لغابائنا، كي نتعرف إلى بعضنا بشكل أفضل. لم تمنع، رائحتها الفكرة. بلنا تفعل علاقتنا بشكل متدرج أسلم سبيلاً، فأعطيت لنفسي أكثر من مهلة، لأستوعب فكرة رباط لم يستهوني في البداية، لكنه فيما بعد استأثر بي.

أندركت، وإن متأخراً، أنني أعرض قصة حب محترمة من النوع البرجوازي... وأتيفة جداً، مرسومة ومحسوبة بكل لحفظ، على الضد من يسارتي القديمة. كنت قد ابتدعت من هذه المواتع الحقيقية وغير الحقيقية حاجزاً بيننا، ولم يكن اجتيازها بالأمر السهل.

كان الزواج ضرباً من حياة تخطيطها، ولا بد من فرصة أختبر فيها احتمالاً نقبها مشجعاً لأسلكه ثانية. اعتقدت أنه طالما استبعدت تاريج العشق المعنادة في مثل هذه المواقف، فإن العاطفة لن تؤثر فيّ إلا بقدر محدود. كنت أقرب إلى الحكمة لا الحنكة، لم أشعر أنني أسير في اتجاه مغاير إلا عندما بدأت أعاني من أعراض الحب، لواعج وأشواق، وتداعياتها إلى حالات على نبط المسهاد والأرق، إن لم يكن هما بالذات، ولم أكن في عمر يجذبه هذا المزيج من البطر الغرامي المتب والغامض.

قررت الانسحاب، لكنني لم أنسحب، ترى هل أعطأت؟

لن أجهد تفكيري ولا ذاكرتي، فلأعترف قلباً.

ها أنا وصلت متأخراً إلى فندق المنصور ملبياً. كان المسؤول اليحي قد اختار للمرة الثانية الاجتماع في فندق، والسبب نفسه؛ محصن جيداً. كان جالساً باسترخاء بمسد شاربه الضخم ولحبه الخفيفة، ومرافقوه المتحفزون يقفون بجانب منصة الاستقبال، وإلى جواره فاضل يستمع إليه، بينما ظننت أنه يتبادل الحديث معه.

كان يسترجع ذكرياته، خصوصاً تلك الذكرى الأليمة، عندما شهد من هنا الفندق بالذات، الغروب المتوتر، العاصب والنامي، للمشاهد الأخيرة التي سبقت سقوط بغداد ودخول القوات الأمريكية، سردها كأنها تخاليل أمامه على صفال الزجاج:

الموقف لم يكن ميؤوساً منه ولا سيئاً، الأعبار تتلارد تباعاً؛ المعركة ما تزال في بدايتها، القصر الجمهوري تعرض صباحاً

لهجوم أميركي. خارج الفندق تصاعد الدخان في الفضاء، ورائحة البارود تنتشر. قوات المتطوعين غير النظامية تجمعت على تقاطعات ومفارق الطرق المؤدية إلى القصر، وعلى ضفة نهر دجلة، في الجادة الواسعة التي يقع على أحد جانبيها مبنى وزارة الخارجية. مقاتلون مدنيون يرتدون أزياء مختلفة الألوان، اختسروا كوفيات حمراء، عوفات، بيريهات، أو حاسري الرؤوس، مع عناصر من القوات الخاصة بزياً العرقط، وجنود باللباس العسكري الأخضر وبعضهم بسرابيل جينز، يهرولون في كل الاتجاهات، في حين تحصن بعضهم في مواقعهم، وصوبوا أسلحتهم باتجاه القصر. فيما أخذت عاصفة رملية تجتاح المشهد وتحجب الرؤية.

انكشف الموقف بعد حين عن جثة على الأرض لأحد عناصر الميليشيا مضرجاً بالدماء، لم يتمكنوا من سحبه. ثلاثة من رفاقه على مقربة منه يحتمون بساتر عند مدخل الجسر، يشيرون بأيديهم للسيارات كي تعود أفراجها من حيث أتت. تبادل إطلاق النيران محتدم بالأسلحة الرشاشة حول القصر الجمهوري، عشرات المقاومين كمنوا متزئرين بأحزمة من الذخائر خلف الأسوار والأشجار. بينما أغلقت الشوارع المؤدية إلى المجمع الرئاسي الضخم المسند على عدة هكتارات بالحجارة والكراسي ودواب السيارات، واحتسى آخرون وراء المتاريس وجدران المباني، حمل بعضهم بنادق كلاشنكوف وآخرون راجعات صواريخ وذخائر على ظهورهم، في حين استلقى الباقون وراء رشاشاتهم الثقيلة.

الحركة لم تفر مساء، شاحنات مغطاة بالوحد تنقل المقاتلين إلى وجهة غير معلومة. وفي الصباح اتخذت دبابتان أميركيتان موقعين على الجسر، بينما طائرة أميركية أخذت تقصف المجمع ومنطقة

وزارة التخطيط على علو منخفض جداً. حصل تبادل إطلاق نار مع الجنود الأميركيين، واستمرت المعارك عنيفة ما يزيد على ثلاث ساعات.

لم يخطر لي حتى في أسوأ كوابسي رؤية دبابات برامز وعربات برادلي تتقدم فوق جسر الجمهورية، توقفت أن ينفجر الجسر بها وتتهاوى في دجلة. لا أنسى عندما توقفت عربات البرادلي، وصوت مدافعها باتجاه الفندق وأطلقت قذائفها، ثم استمرت وسددت على مبنى وزارة الدفاع القديم.

بينما كانت المجنزرة الأميركية تعبر ساحة الفردوس على شاشة التلفزيون كان العراقي قد سقط. أما إسقاط تثال صلاح حسين، فكان الأنهار الأكيد.

«وجرى الانسحاب تبعاً لخطة وضعت مسبقاً لإعادة تجمع المقاومة في الداخل».

في صالة الفندق وسط ما تبقى من أثاث فخم بحاجة إلى تجديد، كانت الموسيقى تضرب رأسي وتتسارع على وقعها العمليات الحربية؛ موج صახب، تعالي وينخفض، يعيد بت ذلك الشريط الخليط من سلاسل الدبابات وحجم القنائف.

لم يخطر لي شيء سوى أنه لا يحول على هذا الرجل. كان أحد الذين أضاعوا بلداً ودولة، رغم أنهم بطشهم وجبروتهم حانظوا عليهما بالحديد والنار والإعدادات والمشائق. ليس بوسعهم فعل شيء، ولا يرتجى منه شيء. لم يشكل له سقوط بغداد أكثر من مشهد حربي، لم يشارك به، وكأنما كان حاضراً لا ليقابل، بل ليروه فحسب.

كان ينتظر من المقاومين البعثيين والمتطوعين العرب أن يمدوه بمداتهم إلى مناصبه.

لم أسأله عما جرى بشأن الاتصال بالقاعدة. بحثت عن شيء أتكلم حوله فلم أجد سوى بشاعة ما يجري من تصفيات دموية. وذكرت على سبيل المثال حلالة الضلوعية. وتساءلت هل هي القاعدة؟ ومن الغرابة أنه كان علي علم بتفاصيلها!!

«استغل الأمير كان ما يشاع عن العلاقة السيئة بين الشيخ عبد الرحيم والقاعدة، وبلغفونها بالإسلاميين، كانت له فتاوى مضادة للقاعدة، عارضهم في تكفير الشيعة، وأجار الكثيرين منهم، وانتقد قطع الرؤوس، ولم يوفر جهداً لاستعادة مخطوفين أبرياء... جربوا استرضائه، فأرسلوا إليه شيخاً ناظراً، واعتلفا كثيراً، وانتهت المناظرة باتفاق على أن لكم دينكم ولي ديني، وقيل الجميع بما ارتآه الشيخان».

قلت له إن العملية تحمل بصمات القاعدة.

«ليس صحيحاً، القاعدة لم تحاول إيهامه، ولا عسرت أحد ملاحظها. الاتفاق بينهما كان واضحاً، لا تعرضك ولا تعرضنا. وعدمه بالأ يؤول عليهم أهالي المنطقة، ولا يرفع سلاحاً ضدكم، مثلما أجار الشيعة، أجار مقاتلي القاعدة، وكان له تأثير على الزرقاوي».

فاطمته، لم أتوقع أن يردد المسؤول البعثي اسم الزرقاوي على أنه حقيقة مفروغ منها.

وما أعرفه أن الزرقاوي شائعة أميركية، ألم يقتلوه قبل سنوات؟».

وعادوا وأكدوا وجوده، روجوا له صورة الإرهابي الشبح، والقاتل الذباح... استفادوا منه حياً أكثر منه ميتاً، وصار فريضة لتطهير المناطق المشبه بها. فإذا أرادوا تأديب مدينة، يعلنون عن وجوده فيها، فتلك الأحياء بما فيها من أهالي وما تحتويه من مباني، مسجداً كان أو مستشفى. وإذا أرادوا تمشيط قرية، يجري اجتياحها وتهديم بيوتها فوق رؤوس ساكنيها.

حسب معلوماته، الزرقاوي ناشط في مناطق المثلث السني، ربما كان شبحاً، أو حقيقة، ورغم أنه يشك بوجوده لكنه لا ينفية، هناك أشخاص يقال إنهم رأوه بل وقابلوه. عموماً للكثيرون يستقلونه على الوجهين.

وأما حادثة الضلوعية، فعلى الأغلب، فوض الأميركي كان شركة ميرا كورب بإشمال معركة، بنجم عنها طرد الأهالي للمقاعدة من منطقتهم، طبعاً بمساعدتهم.

فوجئت بمعرفته ملايسات ما يجري على الطرف الآخر، مع أن الأميركي كان تخفوا على الجريمة والشركة وحادث الاصطدام. لاحظ دهشتي.

ولا تستغرب، إنها مقابلة، الأميركي كان طلبوا، والشركة تعهدت بالتنفيذ لقاء المال، هنا إذا أردت تفسيراً سريعاً.

لم يكن يلقي الكلام في الهواء، كان يعرف الكثير. لكن هنا الكثير بلا دليل، كان البشرون يحلون كل شيء إلى مؤامرة ورايها

الأميركان، وهذا ما جعلني أعود صاغراً إلى قضيتي، وأسأله عما جرى بشأن الاتصال بالقاعدة.

كنتُ محقفاً، جاء كي يعتذر مني، جميع محاولات الحرب فشلت، لم أسأله حزب البعث أم الحزب الإسلامي.

والجماعة الإسلامية التي توسطناها، تتعاون معهم ميدانياً بشكل محدود وعملياتي. القاعدة لا تكشف أوراها لأحد. إنهم حرمون جداً. الجماعة حاولت، لكن دون فائدة.

أشعل سيجاراً، أشحت بوجهي عنه، لم تعد لدي رغبة في الكلام. تدخل فاضل:

«قد تنجح محاولة ثانية مع جماعة أخرى».

والحسابات الطائفية والسياسة تتجاوز هذه الأمور الصغيرة. ما الذي يعنيه اينك بالنسبة إليهم؟ إنه مجرد شاب ينتظر دوره للانضمام إلى قافلة الشهداء. لن يتورطوا من أجله، هناك الكثيرون من أمثاله».

ون هاتفه المحمول، تكلم قليلاً، نهض من كرسيه، اعتذر، لديه موعد آخر.

«على كل حال، سأحاول، أراكم غداً في هنا المكان».

تقدم عطلتين نحو الباب، ثم تذكر شيئاً، عاد وانحنى عليّ قائلاً:

«لن أعددك، لا شيء مضمون».

كان يطلب مني عدم التعلق بأي أمل، وبذلك يتحرر من أي وعد
 نحوي بمجرد خروجه من الباب، بعدها لن يهجمه أمرى أبداً.
 وافقتي فاضل:

«هنا أمر فوق طاقتهم».

الرسالة الرابعة عشرة

(جهودي لم تفلح، والوعود جميعها لم تجدي.

لا أفعل شيئاً.

أتابع قضية أخرى، لا تخصني، عليها تنهي.

لم تجلب لي الأيس فقط، بل وأتعبتني.

إذا لم يحالفني الحظ، فسوف أعود قريباً، لكن ليس قبل أن أهزل كل طاقتي.

أنا مشتاق إليك، هذا أقل ما يمكن أن أشعر به نحوك، هنا إذا بقيت لدي مشاعر إنسانية).

تفاهم وضع مهلر حرجاً، مع أن الكولونيل وافق على تمديد فترة التحقيق يومين إضافيين، فقد وضع له العراقيين ومات يواجه الأسوأ.

منذ بدأ يمارس عمله في المنطقة الخضراء، لم يتعرض مهلر إلى مثل هذا التشكيك، رؤسائه في الإدارة يستعجلونه نادمين على أنهم أوكلوا إليه التحقيق، وأنه غير مناسب للقيام به. الانتقادات تحيط به، ما يصله منها بقلته، بعد أن حاز طوال فترة عمله معهم على تقديرهم. نشاطه السابق لاقي استحساناً على جميع المستويات، بينما الآن ألقبت خلال قائمة على كل ما أنجزه من قبل، ولحوملت بخفة انتقاداته الشديدة على إهمال المتعاقدين التقيد بوتيرة سير العمل في وحدات التدريب. من قبل عندما حدد بالاستقالة، استرضوه بتوجيه اللوم إلى ميثرا كورب وتوعدهم بفسخ العقد معهم. كانوا معجبين به، ولفتت جهوده نظر الجنرال قائد قوات التحالف، فأوكل إليه قيادة الوحدة السرية لملاحقة الإرهابيين المظاردين، وطلب ترقيته في إجراء غير عادي، دون انتظار دوره. لكن طلب الترقية أوقف، مذ بدأوا يشتمرون من تباطئه في التحقيق ولحقوا له عن استعجالهم لقبول استقالته وإعادته إلى أسيركا وترضيه بوسام. كان برأيهم يسهم في تعقيد الأمور، وإعاقة العمل بوساوسه. وعندما شكوا لهم معاناته الإرهاق العصبي والتوتر الدائم وقلة النوم من جراء تدخلاتهم السلبية، طلب منه الكولونيل مراجعة الطبيب النفسي في الوحدة، لكنه رفض، ما يشكو منه معروف، وهم سبه، إتهم بحرقون جهوده ولا يتجاوزون معه.

كان يظن بأنه يتحرك ضمن نطاق من السرية، ولا يعرف أنهم

أفرجوا عن جانب من التحقيق وأطلقوه إلى العلن مع شائعات تُضعف مصداقية ما دفعني إلى مصارحته بأن مسؤولاً بشياً سابقاً على علم به، جريمة الضلوعية أصبحت معروفة جداً، وكل منهم يعطيها أبعاداً ويفسرهما كما يشاء، يبدو أنه الغافل الوحيد غير المتأكد من الذي لرتكيبها، وما يزال يناقش من يكون ورايها:

«ألا ترهب أن تعرف من؟ إنهم جماعتك الأمهر كان، لن يدعوك تائبها، هذه إحدى المهام التي يطلبون من الشركات تنفيذها.

«لا تقل لي، إنهم أجروا مناقشة رست على منبرا كورب.ا.ا.

ومع هذا، بناء على معلوماتي، فاتح ميلر رئيسه، وقال له، هل هذا هو السبب الذي يدفعكم لإبعادي عن التحقيق، إذا كنتم أنتم، فلن أعفيكم من المسؤولية، سأوجه اتهامي إليكم من خلال أية وسيلة كانت.

ثارت ثورة الكولونيل وقال له: إذا كان لدينا خطة فلن تكون سوى استمرار القتال بين السنة والشعبة، هذا الأمر الوحيد الذي يخفف عنا، مع أننا لا نشجعه، وحتى إذا كان، فهو أمر لن نكلف به أحد سوانا، عطوبة العملية نحتم علينا التصرف بمتهى السرية. وبالنسبة للضلوعية وغيرها، نأكد أننا لن نتورط بجرائم على هذا القدر من الشاعة.

لم يصغ إلى أحد ممن كانوا يستحثونه على إخلاق ملف القضية، لكنه أمضى إلى جيسي الذي طلب منه الإسراع، كان الصحفي يخشى من اكتشاف الشخص الذي يسرب إليه المعلومات، لئلا يخلف وينكر ما قاله.

«إذا كان ضميره قد استيقظ، فضميره قد بأعد غفوة. هذا الجندي مرتبط مع رفاته بقسم على ألا يفتح فمه بكلمة حول الغارات الليلية، ماذا لو عرفوا بخيائته؟!».

النقطة المهمة، التي لم يفصح عنها الجندي حتى الآن هي، عما كانوا يبحثون، أو ماذا كان الهدف من غاراتهم؟! قال جيمي، لو أفصح عنها، فسوف يعرفون بحلوث تسرب من داخل جماعتهم بالذات، وهذا ما سيفضحه. عندئذ يتخلصون منه.

بعد اليأس واللاجئوى، والحصار من الداخل والخارج، ستأتيه بارقة الأمل من مستشفى ابن سينا في المنطقة الخضراء الذي أصبح مستشفى الوحدة الثامنة والعشرين الأميركي، أبلغوه أن الكابتن هاري كيتل استيقظ من غيبوته، لكن حالته لم تستقر بعد، إنه يهذي. سارع إلى المستشفى، ليقول له الطبيب ساعراً:

«يبدو أنه في مكان ما يصدر أوامره بالقتل والحرق والتذبح».

«ما زال في الضلوعية».

«لا تأمل كثيراً، لا يؤخذ بأقوال رجل يهذي، مهما كانت اعتراضاتك خطيرة».

لم تقدم بطولات هاري الملتاعة شيئاً ذا بال، كانت أقل وقفاً من الواقع، لا تزيد عن مغامرة مرعبة، حافلة بالصراخ مع جمجمة لغظبية لا تطاق، والمروع أنها حقيقية، ومخالفة لأي منطق إنساني، ربما لأنها تسهر حامية الوطنيين بين جدران لامة وتوافد مصقولة وأرضية نظيفة على تضاد مع زمجراته المشنجة، التي لا

تعمل شيئاً سوى أنها تلوث البياض الناصع المحيط به، وزجاج شفاف بلا لون، ومنظر سماء صافية بلا غيوم، ونضاه حال من غبار الصحراء الناعم المتسلل إلى الفم والحلق والأذان والعيون. يتنا جعيره الهائل يقوض الاحتياطات الإسعافية والآلات في الغرفة المعقمة من الجراثيم والفيروسات داخل مستشفى حديث الطراز، مزود بأجهزة الحياة من التنفس الصناعي، وشاشات مراقبة يتحكم بها الحاسوب، إلى جهاز لإجراء المسح المقطعي.

الأطباء المختصون والجراحون ومعهم أطباء غرف الطوارئ والقانون على أهبة الاستعداد لإعادته من رحلة هذين لا تخلو من اتهامات لهم. لا أحد منهم يرغب، أو يريد أن يسمع أكثر، كانوا يرغبون في أن يمست إلى الأبد، أو يرسله إلى أبعده، إلى حيث لا تقوم له قائمة، لم يكن يسفدورهم تجاهل ما يمكن أن تعبه شتائه الوسخة والبذينة، ولا أوامره وتعليماته وتفتقات بصاقه، ما دامت تعني شيئاً واحداً: الرعب والتعذيب والتشيل بالضحايا حتى الموت... وما بعد الموت.

الترح جيسي أن يوجه السجور تحرياته نحو العراقي الميت إبراهيم الجربولي، هذا الشخص كان دليل المجموعة طوال الغارات الخمس، قد يلوذ إلى حيث قاد المجموعة في غزواتهم المظفرة.

ولا يد سجد شيئاً ما بخصوصه.

كانت الفكرة جيدة.

ظهرت جدواها عندما أجهبه مركز التحقيقات التابع لسجن أبو غربب بأنه مرّ في زنتاناتهم مع لائحة سوابق مشيرة، تغطي عدة

سنوات من الحكم البائد، كان جندياً شارك في حروب صدام، تعلم فن القتل ومارسه بلا قيود على جبهات القتال مع إيران وفي الكويت، نشاجر مع أمره المباشر، وأوسع ضرباً، ثم سدد له رصاصة أصابت نصفه الأسفل وهرب مخلفاً له عناية دائمة، قبض عليه بعد سنوات وحكم بالموت. كان ينتظر دوره لارتقاء منصة الشق، عندما أفرج عنه بموجب العفو العام الذي أصدره الرئيس عشية الغزو. خرج إلى الحياة المدنية معدماً، بلا مال ولا عمل. بعد الاحتلال، شكل عصاية من فاطمي الطرق تعرف إليهم في السجن وأطلق سراحهم معه، تغلوا في البداية على أعمال السلب والنهب لمؤسسات الدولة، ثم أخذوا يعترضون سائقي السيارات الخاصة عند مفارق الشوارع المزدهمة، يستولون على السيارة، ويطردون صاحبها بعد ضربه وتشليحه مما يحمله من مال. لم يكن هناك ما يوقفهم، الشرطة غير متوافرة في الشوارع، إما فروا إلى بيوتهم وقراهم، أو انضموا إلى موجة النهب، وما تبقي منهم لا يحملون أكثر من مسدس، بينما كانوا مسلحين ببنادق أي كيه ٤٧. تطورت أعمالهم بسرعة وتشتت، فأصبحوا يختطفون رجال الأعمال ويحفظون بهم رهائن حتى تفنديهم عائلاتهم بالمال.

بعد سنتين عاد إلى السجن مقبوضاً عليه، إثر حادثة اختطاف طالب مدرسة ابن ثري معروف. طالبه إبراهيم بغدية نصف مليون دولار، ثم رضي بمائة ألف بعدما تأكد أن الثري لم يعد ثرياً، حتى أنه اضطر إلى بيع بيته ليسد قيمة الغدية.

خلال التحقيقات في سجن أبو غريب، اعترف بأنه باع بعض المخطوفين إلى ميليشيات إسلامية وجماعات من المقاومة. توقع المحققون من المتعاقدين الأمتيين أن يستفيدوا مما لديه من

معلومات، ويدلهم على بعض المطلوبين، فعقدوا معه صفقة أن يعمل معهم لقاء الإفراج عنه. فأطلقوا سراحه.

هذه الصفقة لم تتحقق، لأنه لم يعمل معهم بعدما فقدوه في بغداد، وضاعت آثاره بعدها، هنا ما بدأ، أو هنا ما ادعوه. إذ لم يختلف بل ظهر كأحد عملاء ميثرا كورب. كانت الصفقة قد نجحت لصالحهما، بعد أن دفعت الشركة لقاءه مبلغاً مجزياً لمحققي أبو غريب، وتعاقدت معه تحت صفة مترجم. الشركة لم توفره، جهدت في استغلاله إلى الحد الأقصى، وبالمقابل استغلها، وبدأ يعمل لحسابه بعد أن تعرف إلى غوسه روتا العسكري التشيلي السابق، والرتيب مجهول الجنسية فراكستوس سالينا، والجنوب أفريقي ديلون فانس العضو المتقاعد في الشرطة السرية. كانوا ضمن تشكيلة مجموعة ميللر، أسهمت بهم شركة ميثرا كورب، وأصبحوا تحت قيادة الكابتن هاري، وكان إبراهيم يدلهم في بغداد.

من العسير معرفة من أفسد الآخر، لا ينبغي المبالغة، كانوا جميعهم قلة من العيار الثقيل والصعباً من الدرجة الأولى.

لدى مناقشة مزرعة إبراهيم عشروا فيها على عشرات الأسلحة المتنوعة، وقنابل يدوية تطلق بواسطة قاذفات، ومفاتيح هاون، وهويات مزورة، وآلة لتزييف النقود اشتراها أو استولى عليها من إحدى العصابات، كانت كلها من بقايا عمله الأول، احتفظ بها للمستقبل. كما اكتشفوا تحت الأرض سجناً، كان يحتجز فيه المخطوفين ربما يتم تسليمهم، ويبدو أن التعذيب مورس فيه بكثرة، الدعاء الجائلة لطخت الأرض، حبال ضخمة تستعمل للشق

والتعليق بالسقف، بينما الجدران زينت بصور لشعيرات أسهم بها
أصدقائه الأمير كان ألصقت نكابة بالمعتقلين، ترى ما الذي
ابتكروه، وكيف استخدموها لتعذيبهم؟ هنا يحتاج إلى خيال يتكر
شيقاً ما على علاقة بالرعب والجنس وصور لساء فائنات لا يتر
أجسادهن شيء. استغل القبر كسجن حتى فترة قريبة، أي إلى ما
قبل شهر، منذ بدأت على وجه التقريب حملاتهم الليلية.

ريح ميللر ورقة قوية يساوم عليها، ساعدته في تنفيذ هجوم
معاكس على الإدارة، فمنحه الكولونيل مهلة أخرى يوماً إضافياً،
استجابة لاقتراحه وإعطائه فرصة معقولة، كانت قابلة للزيادة، لكن
ليس قبل قيام ميللر نفسه باقتناع جماعة ميترا كورب بأن ما لديه
من معلومات يخفي مسؤوليتهم، ويؤكد أن إبراهيم هو المسؤول
الأول عن هذه الجرائم، استغل مركزه كدليل ومترجم، واستخدم
سجروعتهم وورطهم بعملات كاذبة.

لم يكن عسيراً على ميللر إقناعهم أن التحقيق اعتد مساراً
مختلفاً، يفيد في إبعاد الشبهة عن الشركة نفسها والعائتها
وابراهيم، صحيفة سوابقه كهيئة منتظمة ذبول القضية كلها، وما دام
ميناً قلن يستطيع الدفاع عن نفسه، لكن لا بد من مواصلة
التحقيق، للحصول على أدلة كافية. ولتح لهم، إن لم أستطع
العثور عليها، ينبغي إيجادها. ومع هذا تبهر رئيسه الكولونيل، إن
أي اتهام يوجه إلى عناصر شركة ميترا كورب لن ينعكس عليها
فقط، بل على جميع الشركات الأجنبية العاملة في العراق، إن
تعريضهم للمساءلة القانونية، يعني الإخلال بشروط التعاقد معهم،
مما سيدفعهم إلى اختلاق عقبات قانونية ومطالبات قضائية
بملايين الدولارات، عما أنهم سيحرمون حقائبهم ويحلون. انهم،

لا لعب في هذا الأمر، نحن بحاجة إليهم.

لم يكن ميلر سعيداً بما يدبره، كان مجبراً على استعمال أساليبهم القذرة نفسها، لم يتركوا له سبيلاً آخر:

«هل خسرت روحي؟».

كان متأكداً أنه خسر شيئاً من روحه لا يمكن تعويضه، مع أن قراره المضر كان الانقلاب عليهم.

قلت له بأنه لم يخسرها إلا لوقت معلوم وبشكل مؤقت. وهونت عليه:

«لا تبص، أنا أيضاً عليّ اللجوء إلى مثل هذه الأساليب».

جوابي لم يثر استغرابه، ظن أنني أوافقه. لكنني كنت أفكر مثله، في يوم قريب قادم لن أتورع عن استعمال أي أسلوب حتى لو فرطت بصداقته.

الرسالة الخامسة عشرة

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

(اتخذت قراراً جتوياً لا مبرر له.

ليس هناك غيره.

ولا خيار آخر.

لن أطيل عليك. أنا مشوش جداً.

ما يدعو إلى التفاؤل، أنتي لم أهاس بعد).

□ □ □

عطرت لي فكرة لم تنضج في رأسي بعد، بحثت في داخلي
التفاؤل، عسى أن يعادني الحظ. لم أحزم أمري، فلم أمل كثيراً.
الفكرة كانت إلهاماً وسيلة أذهب بها إلى المثلث السني الواقع
تحت هيمنة الجماعات الإسلامية. تركتها لتختمر، على أن

أعرضها على فاضل، وأسع رأيه فيها غداً.

توجهت مساءً إلى المقطورة لأروح عن نفسي، وجدت جوناتان ومعه ديمي مندوبة منظمة حقوق الإنسان ومعها شاب صغير السن، في نحو الساعة عشرة من عصره، توقعت أن له علاقة بالقضية التي يتابعها. لم أعطني، كانت قضية المثليين لها، أخفة بالتراجع نحو الأسوأ، البيت الأبيض والخارجية البريطانية تضاعل اهتمامهما بها، ورفضنا التمدد بما يتعرض له الشبان من تهديدات لئلا تثار حفيظة الطوائف، المستوفع أن تقوم قيادة الشيعة والسنة معاً، وتستجر اضطرابات كان الأميركيان يفتنى عنها، وتستغل بشكل سلبي، بدعوى أن الاحتلال يتدخل في نواهي الشريعة الإسلامية، باعتبار الشفوذ من صلب المحرمات الدينية. والمعروف أن الشيعة لو تراخوا، فالسنة سوف يتشددون حيالها، ويحصل سباق بينهما حول انتزاعها كل طرف من الآخر. المطلوب عدم إظهار القضية إلى العلن.

حرصاً على حياة الشبان، تم الاتفاق على إنهاء القضية بمنتهى الكتمان، وأن تحصر إدلتها بين جوناتان والمندوبة ديمي، بالعمل للحصول على معلومات إضافية حول عدد الشبان المهتدين بالقتل، ليجري إعداد حملة لإنقاذهم. استطاعت ديمي أن تقع شاباً منهم يدعى سلمان بالفقوم معها، قالت عنه إنه شاب جميل فعلاً، واعترفت ضاحكة بأنها وقعت في غرامه، لكن... يا عسارة.

ها هو سلمان جالس معنا، نجحت ديمي في تهريبه من الحي الذي يسكن فيه، وتأسين وصوله إلى المنطقة الخضراء، وتمهدت

بإعادته سالماً إلى بيته، بعد أن يزودها بمعلومات عن الشبان
أصدقائه الذين وصلت لأهاليهم رسائل تهديد، وعن طرائق
الاتصال بهم. واستطاعت أن تضمن لهم بالاتفاق مع جوناثان
مكاناً للنعامة، وشما يجري قبول لجوئهم إلى إحدى الدول
الأوروبية.

كان سلمان متكرراً بتسريحة شعر مشعثة، يرتدي ملابس واسعة
متهللة على جسد نحيل منقوش قليلاً عند الصدر، الملابس
المهلهلة لم تخف قوامه المشقوق ولا عينيه المبطنتين، ولفاته
التي لا تخلو من رقة وإغراء، أسلوبه لطيف في الكلام على الرغم
من الخوف المتلامح على وجهه. لم يستطع السيطرة على ارتعاشه
يديه الناعمتين. عذرت ديمي، كان الشاب ساحراً وإن بدا
مذعوراً، يريد أن يعيش. الخمس منها:

«ديمي دعيني أبقى هنا، سأنام على الأرض».

قالت ديمي لجوناثان، دعه ينام الليلة في المقطورة. جوناثان أصر
على عودته، ليتمكن من إبلاغ أصدقائه الشبان عن اللقاء غداً في
مسجد يقع في حي بعيد عن أماكن سكنهم. ظهراً سيجدون
بانتظارهم مصفحة مع قوة نازية مساعدة وشاحنة لنقلهم فوراً إلى
مكان آمن في المنطقة الخضراء، القوة سوف تدعم الجامع،
وتعاملهم بقسوة ليدو الأمر وكأنه احتفال تسمي لمشيته بهم.

لم أطمئن للخطة، قلت لجوناثان:

«لماذا لا نذهب القوات وتعلمهم من بيوتهم».

«مستحيل، سوف ينتقمون من أسرهم، بينما في هذه الحالة ما على الأهالي سوى التقدم بشكاوى يعلنون فيها عن اغتفاه أبنائهم».

عندما عرف سلمان أنني سوري، استأنس بي وجلس إلى جواربي. تبادلنا الحديث معاً، وعرف أنني أبحث عن ابنتي. قال لي إنه مضطر للاختفاء، وهذا لم يكن بوجه، ما سهلّف عنه أن صديقه سيكون برفقته. قلت له، هنا أفضل، ستوفر الكثير من الحرج على أهلك، لا بد أن حالتك تضاهيهم. فقال، بالعكس أمي وأمي وأخوتي قلقون من أجلي. قلت مستغرباً، ظننت أنه يسعدهم التخلص منك. قال، أخوتي لا يريدونني أن أغادر. تعجبت، لم أتصور أن أهله غير مستائين من تصرفاته. قال، أمي وأمي قانعون بما نسمه الله لهما من أولاد، لقد أعطواوا الطلب من الله، أمي كان يريد صبياً وأمي تملت بنشأ، الله أرضاهما كليهما، أمي يملني على أنني صبي، وأمي ربتني على أنني بنت.

أفرك من صحتي بما كنت أفكر، قال لي بحزن: تخيل أنني ابنك، ما الذي تفعله؟ هل تتخلي عني؟ لم أفكر إلا قليلاً، قلت له، لقد جئت إلى العراق من أهله.

لأول مرة بحث المصحفة والقرة النارية الأمل، ستقذ الأولاد، بعد أن صور لي تشاؤمي نهاية مفاجئة للشبان المثليين.

الأمل دفعني إلى الاستسلام صباحاً لفكرتي، وأصبحت قراري النهائي، وإن ترددت قليلاً. وحزمت أمري قبل اجتماعنا بصديقنا المحبي، وفاتحت فاضل بما عزمت عليه:

وسأعرض عليه تسليمي رهينة لأية جماعة تأخذ العملية على عاتقها، وبذلك يطمنون إلى أنها ليست كميناً.

لم يكن فاضل على ما يرام، فرفض الفكرة نهائياً، وعندما حاولت أن أشرح له الفكرة، انفجر صائحاً في وجهي: أنت مجنون، ستسلم نفسك إلى مجرمين وقتلة، ليناجروا بك. ثم صمت فجأة، تبه إلى أنه تجاوز حدوده معي.

كان التشنج يادياً على ملامحه، أما عيناه فلا تثبتان على شيء، لاحظت أنه يرغب في الكلام، وفي الوقت نفسه، على وشك الانشقاق. عزوت انفعاله إلى أنه مهوم بشيء ما. لم يصبر طويلاً، انفجر ثانية:

«ربيع قتل».

لم أستوعب تماماً ما قاله. قبل يومين فقط، جاء أبو ربيع وأخذ ابنه بعدما وافق أهل القتيلين على تسوية الأمر بينهما بالدية. هممت مستظهماً، فسمعته يقول:

«أبوه قتله».

ظننت أنني أعطأت السمع، وأن أهل القتيلين نكلوا عن الاتفاق وقاتلوه.

لا، لم أعطى السمع، أبو ربيع قتل ابنه، كان يكذب، لم يكن هناك اتفاق على دية أو تعويض، لم تقبل العشرة إلا بإهدار دمه، وشلما استلججه أبوه من بيت فاضل، استلججه بعد وصوله للقرية

إلى الحقل، اشترط على أهل القنيلين أن يقوم بالتنفيذ. أشفق على ربيع ولم يُعلمه، لئلا يبكي ويرجوه أو يتضرع إليه، فيشفق عليه ولا يقتله، طلب منه أن يسبقه ثم لحق به، مشى وراء ابنه بخطوات، القش يخشخش تحت أقدامهما، والعرق يتصبب منهما. على العرب شجرة ساكنة صفراء، نباتات صفراء، أوراق صفراء. تابع ربيع صحوده إلى التل، من الخلف أطلق أبوه عليه النار بيد مرتجفة وعين تدمع، ارتجفت يده بعد الطلقة الأولى، تلكأ وهو يرى ربيع بعد تلقيه الرصاصة، يلتفت إليه، ظن الآن أن هناك من يريد قتلها، فاندفع نحو أبيه كي يحميه، فرأه يطلق عليه الرصاصة الثانية وهو يجهد بالبكاء. فسقط صريعاً فوق تراب أصفر، وارثي أبوه فوفقه، يحضنه.

كفنه كما هو بدمائه، وحمله بين ذراعيه وسجده في ساحة القرية. في اليوم التالي صلى على ابنه ظهراً ودفنه دون تقبل أي عزاء. مساء أطلق النار في فمه من البندقية نفسها.

«هل حدث مرة أن أجبر أب علي إعدام ابنه غيلة؟».

لم يكن فاضل مهياً لمناقشة قراري. ومن حسن الحظ أن الوسيط البهي اتصل مؤجلاً الموعد إلى الغد.

الرسالة السادسة عشرة

(ما زلت مصمماً على ما انتويته.

لا حلّ آخر في الأفتق.

لكن عليّ الانتظار قليلاً.

لست على ما يرام

ما أسمعته يمزقني ويؤلمني أشد الألم

حولني خراب، وداخلي خراب).

□ □ □

طوال الصباح لم يفتّر فاضل عن محاولة إثنائي عما عرمت عليه.

«لا يمكن الثقة بأحد».

كان أوران إقناعي بأي بديل قد فات، كنت مصمماً على عرضي، لن أؤجله، كانت هذه هي المرة الأخيرة التي سأرى فيها الوسيط البعشي، على التأكيد سيأتي بحالي الوفاض. إذا لم أرثني أنا حلاً، فسأعرد مثلما بدأت، من الصفر.

جاء صديقنا البعشي كما توقعت، ليس لديه ما يقدمه، وبمجرد طرحي عليه الفكرة رافت له، أو أنها فاجأته، ثم صمت ولم يعط رأياً، بنا بتسيده الذي لم يتوقف لشاربيه، أنه يفكر فيها ملياً، أخيراً قال وكان صريحاً معي:

«محاولاتي السابقة لم تكن عالية فعلاً، في الحقيقة لم أتلّق جواباً منهم، على الأغلب لم يتجرأوا على الاتصال بهم، لا أحد يقبل بإعطاء معلومات عن عناصره مهما كان السبب. بالنسبة لاقتراحك هذا، ربما نجحنا هذه المرة، أشك أن يكون لديهم مانع، مادامنا نقدم لهم رجلاً لن يدفعوا مقابلته مالاً ولا جهداً، لكنني لا أضمن ما سيحصل بعدئذ. العملية خطيرة جداً ولا أنصح بها. أنتنى في حال قبول، ألا نكون ساعدناهم على القيام باستعراض تلفزيوني هم بحاجة إليه، فيذهبونك على الهواء مباشرة».

واتفقنا على أن يتصل بي إذا كان الجواب بالإيجاب، على أن أعاود التفكير باقتراحي، ولا مشكلة فيما إذا سحبت عرضي في أي وقت أشاء.

في اليوم نفسه، صارت ميللر بأنني قطعت مرحلة منفردة في قضيتي، وعلى وشك الاتصال ببعض الجماعات الإسلامية عن

طريق مسؤول بعني سابق. سأكنه ألا يلومني، لبس لدي وقت للانتظار، وكانت لدي سررتي، التحقيق يتلأأ ولن ينتهي بسرعة، بينما حياة ابني معلقة في مكان ما، عليّ بلوغه، قد أصل أو لا أصل، لكنني سأبذل جهدي. أعرف أنها مجازفة غير مأمونة العواقب، لكن ينبغي القيام بها، مهما كانت درجة الخطر. إن كل ما أستطيعه، هو المقامرة بحياتي، لن أتفاسر، الربح مثل الخسارة، كلاهما وارد.

بس ميلر غير مصدق: مستحيل.

لكن لم يعد أممي مستحيل.

طلب مني تأجيل عطتي بضعة أيام لا أكثر، بعددنا، سألني هذه الفكرة من برنامجي تماماً، فضيحه علي وشك الانتهاء. كان قد قطع شوطاً كبيراً وهو يعمل علي تفكيكها، وعلي شفا معرفة ما تهدف إليه مجموعة الكابتن هاري، وفيما إذا كانوا يعملون منفردين فعلاً، أم كانوا مكلفين بالفارات من قبل شركة ميترا كورب. المهم، من يقف وراءهم، ومع من عقدوا اتفاقهم، وما الغاية منها!!

كان قد رصد عدة عمليات عطف قديمة، لم يعلم بها سابقاً، قاموا بها قبل الانتظام الأخير لغاراتهم، جرى فيها بيع المختطفين إلى جماعات المتطرفين، دون استثناء الإسلامية منها!! نافذ البيع لم تكن عاتقاً، كانت تُنشره عن طريق إبراهيم، لكن نحصل أمر من الأشهر الأخيرة، غير هدفهم، لم يعودوا متعطشين للمال فقط، بل للقتل أيضاً!!

كان جيمي يتصل به يوماً ويؤده بما يحصل عليه من معلومات وكانت ضئيلة جداً، لا تقدم ولا تؤخر. اعتقد ميللر من التباطؤ الحاصل أن جيمي يراعي صديقه الجندي، مع أنه حسب قوله كان يعمل جاهداً على استرجاعه، مدعياً أنه لو أظهر المزيد من الإلحاح فسوف يتوجس منه، فيمتنع عن الكلام أو يضلله. لكن ميللر حثه على عدم مراعاته.

«صديقك لم يكن شاهداً على ارتكاب هذه الجرائم فقط، بل وشارك فيها أيضاً».

كان علاقته مع جيمي قد بدأ يظهر، حتى أنه اتخذ موقفاً ضده، كان رآه أن هول هذه الجرائم، يجب أن يدفعه إلى تسليم صديقه كي يواجهه باعترافاته، عندئذ، لن يستطيع النكتم على ما يعرفه. وأغرى جيمي بفقد صفقة جيدة مع صديقه، في حال لم يضطره إلى ممارسة الإكراه النفسي والجسدي عليه. جيمي لم يقبل، وأصر على ميللر ألا يسأله عن كيفية حصوله على المعلومات، ولا الشخص الذي باح له بها، ما زال ثمة أمل في تحصيل المزيد منه، لكن أي تدخل خارجي قد يدفع صديقه إلى التراجع عما قاله. الوضع شائك جداً، الأفضل الاعتماد على المعلومات المتوفرة لا الشخص. ونبهه جيمي إلى عدم الضغط بقوة على أفراد المجموعة، إنهم يراقبون بعضهم، إذا أبدى أي واحد منهم تخاذلاً، فهذا يعني تصفيته، كما أن الشركة ستسارع إلى تسفير أي متعاقدين يلاحظون عليه بارقة ضعف أو تهاون.

ومع هذا حاول ميللر اكتشافه بوسائل لينة، لكنه أخفق، تخيل مرة أنه أوشك على معرفته، لكنه لم يتابع لذلك بتورط بمواجهة لا

يستفيد منها إلا في إثناء جيمي. مع أنه كان واقفاً أن أحداً من الجنود لا يمتلك ضميراً، كانوا غير عابئين بما جرى، ومطمئنين إلى أن التحقيق لن يظالمهم، أو يفضي إلى ما يدينهم، وعلى الرغم من أنهم كانوا حفرين معه، ومدركين أنهم يساعدون على تضليله. لم يفته أن القتل كان بالنسبة إليهم مجرد عمل. وعثروا مراراً عن استغرابهم لجديته، واتهماكته في التحقيق إلى حد آثار سخريتهم، كان الأمر برأيهم لا يستحق هذا التعت ولا العناء. ولقد قالوها له: ما الذي يروك في العراقيين، والحنهم كرهية، يرتدون ملابس قفزة، ورؤوسهم مغطاة بالخرق. هل تظنهم بشرًا؟ إنهم يتقاتلون ويرسلون بعضهم بعضاً إلى الموت يوماً وبالذات.

هل كان من المجدي إقناعهم بأنهم مثلنا نحن الأمريكين، لكنهم عالقون في حروبهم، لولانا لما كانوا يتقاتلون؟

كانت الحجج الدائمة متوافرة على الدوام، لماذا نشغل عليهم ما داموا لا يشفقون على أنفسهم؟ إنهم يقتلون بعضهم بعضاً وبأشنع الأساليب، يجب ألا تأخذك بهم الرأفة، ما داموا لا يراقبون بأنفسهم. لماذا تعني الحياة بالنسبة إليهم؟! لا شيء.

غير أن الجنود الأبطال، تجاوزوا الرأفة، والشفقة أو عدمها إلى المباحة بقتل أناس ولو كانوا أبرياء: ما دام أن الحياة لديهم لا وزن لها ولا قيمة.

الرسالة السابعة عشرة

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

استعدت لعبة الانتظار ثانية.

هذا أفضل من إقناع نفسي أنني فعلت المستطاع واستنفدت
الوسائل كلها، حتى الخطرة منها، لأنجب عذاب الضمير.

ما أنا في سبيله يرضيني نوعاً ما، ليس هروباً من الشعور بالتقصير،
وإنما لأنني المسؤول عن كل ما فعله سامر وما سوف يفعله.

لن أتصل من غفاتي.

لقد اتزعزع مني، وأنا أريد استرداده منهم.

لن أتكرر أبوتني له، وأقابل عقوفه بالجمود).

عسى أن تكون ساء أمرت أنني لن أذافع عن علاقتنا المهددة،
 وضحي لا يسمح لي بهذه المجاملة، فكيف بالتضحية، تضحية
 أب بابنه؟ نعمدت ألا أجيب عن تساؤلاتها، أو أصفي إلى
 نداءاتها. الفصل القادم أت لا محالة، سواء سلباً أو إيجاباً. الأهم
 الطفلة القادمة ستضع حالتها، بما تحصله لي من غير أو شر. حالياً
 بعيني سار فقط، الجنين لا يحتاج إلى أب قدر ما يحتاج إلى أم،
 وفي حال اعتفاتي، ربما وُزفت برجل يحل محلي.

تمت لو أن الزمن عاد بي، كنت تقادمت مشواراً طويلاً ووفرت
 على نفسي مواجهة نهاية مريرة ومخجلة. لكن في ذلك الوقت
 من كان واعياً ليوم سيأتي، لن نملك فيه من أمرنا شيئاً، مع أنني
 اتخذت حينها قراراً صارماً بالألا تسمر علاقتي بها.

في الكافيتريا الصغيرة الواقعة خلف حديقة أبي رمانة، كنت على
 وشك مصارحتها بلا جدوى غرام جاء في غير مواعده، وأخذ ينخل
 في حكاياتنا الريفية، ولدتني أسابي، فطار الزواج فاتني سواء كان
 مع الغرام أو من دونه، كنت أمضي نحو النهاية، ولا أرغب قبل
 الختام بقليل، في تجربة قد تكون مرهقة لكليتنا، الصداقة أهم،
 تساعدنا وآلامها أقل.

لم أتسكن من البوح بما عرمت عليه، خرجنا من الكافيتريا، كان
 الليل ساحراً، يخبرني بأن أضمتها إلى صدري، لا بنفسم علاقة
 جميلة. ففرت قوله لها ونحن في السيارة، لن نكون وجهاً لوجه،
 ولكي أطيل الطريق إلى بيتها، انطلقت إلى أونوسراد الحرة، كنت
 دون أن أنتبه أقرب من بيتي، لم يحل في ذهني سوى أنني أمهد
 لفرقنا ناضج، دون حزازات، كنت واقفاً أنها ستكون على مستوى
 هنا الموقف.

على الرغم من اعتقادي بعصاوية قراري، وأنني كنت أكثر عقلانية من أي وقت مضى، في تلك اللحظات التي لا تنسى، جانبت العصاوية، وكنت أبعد ما أكون عنه، أطلعت بكل هذا الانضباط والعزم، وأطلقت لمواطني العنان، ما أعتز به منها كان فوق طاقتي على الكتمان، قلت لها إنني أحبها، وأعاني من هنا الشعور، ولن أتهرب منه، وقد يعرضنا عن عسائرتنا في الماضي. أحسست أنني نجردت مما كان يحميتني، وأهوي في فراغ وهي تتلفظني بحنان، ودمعة فرح سالت على خدها. كان اعترافي قد رفعني في اللحظة التالية فوق السحاب، والعالم أصبح طوع أمري!!

كان الفراش الذي ضمنا يزيد عن مكان وشبر صالح للتخفيف من الملائس والحياء، كان مواتياً للتخفيف من كل ما يمت للأكاذيب بهصلة، أتركك - وأترك الآن مجدداً - كم أعطيت لِرأه ذاتي، أهملتها وكرستها للآخرين والأفكار... للتقدم والمستقبل، وعدالة لم تحقق أي عدالة. اكتشفت أن الحياة تستحق أن تعاش ولو تحت العبودية والظلم والقهر، ما دام هناك امرأة تهيني روحها وجسدها... قلما لا أضع روحي وجسدي بين يديها؟

إذا كانت الحياة حينها، قد بدت ثمينة بالنسبة إلي، فماذا عن الحياة بالنسبة لأولادي اليوم، لا يهم أيهم، سامر أو ذلك الذي لم يأت بعد؟ لا يمكنني حرمانهم منها، ما دام باستطاعتي إنقاذهم من أعطائهم وضعفهم، الحياة فرصة، وإن كانت للعيش فقط.

لم تستمر هذه التفاعلات طويلاً، غلغلي منها ميلر.

جيمي طلب منه السماح له بزيارة الكابتن هاري في مستشفى

الوحدة الثامنة والعشرين، وصفته الحقيقية كمراسل صحفيي يقوم بدراسة ميدانية حول أنواع الإصابات المتكررة لجرحى الحرب. كان الكابتن محتجزاً تحت التحقيق والرقابة الطبية في آن واحد، ممنوعة زيارته إلا بموافقة الطبيب المشرف أو الميجور ميلر.

أثار الطلب غضب ميلر، كان بلا سرور معقول، بدل أن يكشف جيبي عن رجله، وكان بمتناول اليد، يساهم بتهدئة الوقت، بالتجول في أقسام المستشفى، ليختصمها مع الكابتن النائم هاروي الهاني بأحلامه الدموية، وبشرط أن يفضوا النظر عنه أطول فترة مسكنة داخل غرفته!!

ما الذي سوف يحصل عليه من رجل، إذا صحا لن يعترف، بل ليهذي من جديد، هل تظن أنه سيخضك بسبق صحفيي؟! إزاء إلحاح جيبي، لم يكن بوسعها الرفض، وقدم له مضطراً ما وصفه بالخدمة لقاء خدمات كثيرة قدمها إليه بلا مقابل.

هل كانت خدمات حقاً؟ ما قدمه له ليس إلا متاهة ضاع في داخلها، وهدر عليها الكثير من الوقت الثمين، وقت لم يبق منه سوى نزر يسير، بضع ساعات لا أكثر، وبدورها في طريقها إلى الضياع حتى تنتهي الخدمة الممنوحة له. كان على يقين أنه بعدما طلب التأجيل مرتين، لن يمنحوه فرصة ثالثة أخيرة.

وساوس ميلر عادت إلى العمل وتفاقت طوال الليل وهو في انتظار جيبي، مع أنه أسقطه من حسابه، بلغت به الظنون اعتقاده أنه مدسوس عليه من جهة ما، خصوصاً ميترا كورب. إحساسه ترسخ بأنه محاصر من الجميع، كي لا يكمل مهمته. صمم قبل أن يتسحب على أن يشن هجوماً معاكساً على الجميع من دون

استثناء، ويكتب تقريراً مفصلاً حول ما واجهه من عراقيل مقصودة، معلناً استكفائه عن الاستمرار في تحقيق تواطأت هذه أطراف عديدة، واختر إلى أبسط مقوماته: السرية.

ثم لعانا التحقيق ما دام هناك استباق لتأججه بالإصرار على ضمان تيرزة المشبه بهم، قبل البت به ١٢ لا عجب، التحقيق كان تُسراً من متفلي شركة ميثرا كورب.

في الوقت الذي كاد أن يستلم لهذا الطريق المسدود، اقتحم عليه جيمي مكتبه حوالي الساعة العاشرة صباحاً، وطلب منه مغادرة المقطورة خشية وجود أجهزة تنصت. وافقه إلى الحديقة الخلفية. كان الحر شديداً، وبقا تحت ظلال شجرة. سأله جيمي:

«هل سمعت بحشى الزرقاوي؟».

لوى ميلر رأسه مستغرباً، كان اسم الزرقاوي وحده يشير الحشى، لم يجر جواباً، وإنما حذق إليه مستظهماً. فسر جيمي:

«هناك الكيرون مصابون بها».

لم يأت جيمي إلا ليقول له إنه عثر على الدافع!!

«الزرقاوي، هنا ما كانوا يحنون عنه».

كان هو الباحث على تجريد الإغارات الليلية والتعذيب والقتل والتمثيل بالجنث!! لم يعثر على الدافع فحسب، بل والحلقة المفقودة أيضاً، من سلسلة مجازر بدت بلا سبب ولا غاية، ظهرت أتعبراً، مع أن الهدف كان مبثوثاً على الشفاه وفي الهواء

وعلى الجدران، وفي نشرات الأخبار، كيف فاتهم فيما كان المفترض أن يكون أول ما يخطر لهم؟! كانت المعاصيات تتشكل داخل بغداد وخارجها من الأميركان والمغامرين والمتعاقدين المدنيين وغيرهم، كرسوا جهودها لملاحقة الزرقاوي والتبض عليه طمعاً بالجائزة...

«بينما نحن غافلون!!».

كانت سلطات الاحتلال قد وصدت جائزة مائة تقدر بـ ٢٥٠ مليون دولار للتبض على أي مصعب الزرقاوي حياً أو ميتاً.

وانفضح سر ملايين الدولارات التي كانوا يتقاسمونها.

«لم يبق أحد لم يعلم بالجائزة».

أثارت السلايين جمشع المرتزقة العاملين في العراق، وصاروا يحلمون بالحصول عليها. وما سوف تمنحه لهم من ثراء يسمح لهم بتقاعد مبكر مريح، يضحج بالبلذخ ويوفر الرفاهية، مما حرك خيالهم صوب شواطئ الكاربيبي وكازينوهات لاس فيغاس وفنادق الكوت دازور بصحبة النساء عارضات الأزياء وفتيات الكومبارس.

فكثرت المعنويات بمطاردته، والبحث عن الوسائل الكفيلة بالعثور عليه، ما اضطر بعضهم إلى إيجاد قنوات مع عصورهم المتمردين ممن هم على عتاء مع الزرقاوي، من بينهم زعماء عشائر وقادة أحزاب وهمة ومرتكبو جرائم مخضرمون، وعدوهم يتقاسم الجائزة معهم. أخذوا بتجميع كل ما يتعلق به، أفلام فيديو وصور

وبيانات وتصريحات، واستأجروا عملاء لجمع المعلومات عنه، وجواسيس يشتقون أخباره وتحركاته. وغالباً ما بدت لهم احتمالات القبض عليه واردة خلال فترة وجيزة، بضعة أيام لا أكثر، إلا إذا عاكسهم الحظ وسبقهم غيرهم، أو قتل قبل وصولهم إليه.

إبراهيم كان الناشط الرئيسي في المجموعة، والأكثر كفاءة للحصول على معلومات لا تتوافر لغيره، تساعد على القبض على الزرقاوي، اعتمادهم كان عليه، مقابل حصة معقولة وبشرط أن يوفر له سبل الهجرة إلى أميركا مع ضمانات أمنه الشخصي. حدد المناطق التي يتحرك فيها الزرقاوي وجمع أسماء بعض الأشخاص الذين اجتمعوا معه، وربما يعرفون مكانه، بعد ذلك بدأت رحلة اقتفاء آثاره.

كانوا على سباق مع الآخرين، فلم يتورعوا عن التنكيل بأي شخص أو عائلة صادف أن ربطتهم بالزرقاوي صلة ما، أو حتى يعرفونه أو تعرفوا إليه في زمن ما.

لا رحمة، ولو على شبة تافهة.

وكان من بينهم الشيخ عبد الرحيم الذي اجتمع مع الزرقاوي مرتين ونصحه بعدم المغالاة في القتل. قادتهم أشياء هذه الخيوط إلى قتل عائلات بكاملها، والنشيل بجهتهم، لئلا وكأنها عمليات إرهابية تدور رحاها بين الطوائف.

بدا التفسير لسبب معقولاً جداً، على الأخص توزيع حصص لا تقل كل منها عن مليون دولار للشخص الواحد.

الزرقاوي كهدف، بالنسبة إلي لم يدُ معقولاً، فلم أعلق، لأنني لم أفهم إلى أي حد استغل الأمر كيون أسطورة الزرقاوي، هل يعقل أن هؤلاء تورطوا بملاحقته بناء على شائعات؟ ماذا لو كانوا يحثون عن شبح فعلاً؟

كانت الأسطورة مكلفة جداً.

أما كيف حصل جيمي على معلوماته؟ فالأمر بسيط، عايش هذهانات هاري، ولم يكن هذا الأمر ليتم لولا تعاون طاقم التمريض، الطبيب لم يمتنع، والممرضة المناوبة سمحت له بالتنصت إليه طوال الليل، فاستنطقه، واستدرجه إلى معاركه المظلمة التي دارت في البيوت الأمتة مستغلاً ساعات الظلام الطويلة. ومنلما تدخل في كوابسه، استمع إلى جسيماته، وأعاد تصوير مشاهد القتل السريع، البطون المقورة والأحشاء المدلوقه، وأضاف إليها موسيقاها التصويرية، الرصاص وأصوات الاستفائة والتوسلات والنحيب، مستعيداً ديكوراتها المتفحمة والأثاث البسيط ملطخاً بالدماء المسفوحة.

... ونجح في تركيب قصة مقننة.

«تصدق أنك استقيتها من هذهانات هاري».

بل وتمكن أيضاً من سد ثغراتها. لم يكن جيمي مراسلاً صحافياً فقط، كان يكتب القصص ويرسلها إلى بعض المواقع الإلكترونية، وقد حقق نجاحاً ضيقاً، اتبع بمراسلة بعض المجلات التي تهتم بالقصص والروايات.

«لكن هذا تحقيق صحفي». اعترض ميلر.

«ولهذا لن أرسله إلى الجريدة قبل استكمال فصوله الأخيرة».

المشكلة من سيصدفه في أميركا التي نتحدث عن بطولات الجنود الأميركيين في العراق وليس عن جرائم؟

«لا يمكن الاعتماد على شهادة تحتوي على أي قسط من التأليف، مهما كان ضئيلاً».

قال ميلر وأردف محتجاً:

«أنتعرف أيها الروائي، ماذا يعني التأليف؟ إنه قصة، ماذا تكون القصة؟ الخيال ولا شيء آخر».

«ليست قصة، إنها حقيقة».

«هل تستطيع إقناع هاري بالاعتراف بما اقترعه مجرمته؟».

«وضعه يتدهور، لن يعيش طويلاً، إصابته مميتة».

في ذلك المساء، مات هاري... فذهبت حتى القصة أتراج الرياح.

ومع هذا تحرك ميلر فوراً، اعتبر إعلان المكافأة على القبض على الزرقاوي دليلاً دامغاً، واعتقل القسيس باركلي، جاء به إلى منطوره، واتهال عليه ضرباً. لم يصب إلى احتجاجاته الدينية ولا الكونية، ولا اهتم بالحرب على إمبراطورية محمد، أو ما رسمه

الله للبشرية من الأزل إلى الأبد. سرعان ما انتهت حفلة التعذيب، بتورهم عينه، وكسر فكه وقصبة أنفه، مع شلال صغير من الدم، لم يتحمل أكثر، اعترف بموضوع الزرقاوي. ورغم أن باركلي وقع صاغراً على اعترافه، حاول استرضاء ميللر كي يطلق سراحه، مقابل غفرانه له ما أصابه من صفعات وركلات ورفسات.

ترك ميللر مقبلاً إلى السرم المبدئي، وحمل اعترافه ووضع على طاولة رئيس الكولونيل، وطالب بتوقيف المجموعة كلها. بعد أقل من ساعة انتحمت الشرطة العسكرية المنقطورة، أطلقت سراح القبس باركلي، وكفت يد ميللر عن التحقيق.

اجتمعت مع ميللر مساء، بعد أن أوقفوه عن ممارسة عمله. بدأ شامداً وكثيراً، دون التنازل عن إصراره. كان عازماً على توجيه الاتهام لمجموعة الكابتن هاري. لم يحفل بما سيواجهه، نعم هناك صرامة شاقة بانتظاره، غير أنها لن تجدي معه، ولو انتهت بترحيله إلى أميركا. للأسف لن يستطيع شيئاً حيال قضيتي، إن أكثر ما يمكن أن يعندي به، هو مساعدتي على العودة إلى سورية.

في تلك الفترة، أي قبل أيام قليلة، لم يستطع ميللر أن يكون صريحاً إلا مع شخص واحد، وكنت أنا، حتى رسالته إلى زوجته كانت مخالطة وباردة، لم يقل لها شيئاً عن مناعه، لكنها أحست بما يبرز تحته من هموم، فطالبته بالعودة إلى الوطن. لم تعد صدماته مع الشركة سراً، وكانت مشكلته أيضاً مع نفسه، كان بحاجة إلى طبيب، لكنه لم يرغب بتقديم نفسه لقمة سائغة إلى خصومه، كان متأكداً أنه سيتماثل للشفاء إذا نجح في القبض على مرتكبي الجرائم، وإثبات نظريته في مسؤوليتهم عنها. كان

مجرد التلويح بإيقافه عن القضية بشكل إغراقاً ذريعاً لإنجازاته طوال مدة وجوده في العراق.

لم يتخاذل، ورغم أن هناك من قال له، فليذهب العراق إلى الجحيم، ولم أكن أنا طبعاً، لأن العراق كان في الجحيم. كان يعني هذا المأزق، ويأمل بخروج أميركا من هذا الجحيم بأقل قدر من الخسائر ليس المادية أو الأرواح فقط، وإنما المبادئ التي جاء الجيش الأميركي على أساسها إلى العراق. الأمر الذي لم يدركه أن سمعة أميركا لم تكن في الميزان، بل كانت في الوحل. كان يقول، وكان المشكلة هي مع المرتزقة فقط:

«لماذا ترك هذه الحرب للمجرمين والصوص؟».

«وقد عدتني بصلايته بينما كانت حاله تتدهور».

بعد إصابته بهذه الضربة القاضية، أوقف فعلاً عن العمل، لم ينفج معه أي عزاء، لا أبالغ إذا قلت إنني كدت أن أتشاجر معه، عندما طالبته بالكف عن تشجيعه، القضية منتهية، لا دور له فيها، سوى في تسريحها وإغلاقها كما يريدون، يوماً ما لا محالة ستكشف.

في اليوم التالي، بدا وكأن تغيراً طرأ عليه أو حصل بمعزل عنه. بدا لاسيالياً، القضية لم تعد تهمة، حتى أنه لم يرغب في الكلام عنها. كان طموحه خلال الليل قد تعداها إلى القيام بفعل مؤثر، قال إنه لن يتراجع عنه!! اعتقدت أنه يريد القيام بفعل أعرق، ولم أدر أنه قد تجاوز هذا الفعل بمراحل، قال وهو يحدجني بنظراته، عندما سأله عما يقصده:

«تحويل المنطقة إلى الديمقراطية».

ظننت أنه مزح، لكنه كان يتكلم جاداً، آماله كبيرة بدلاً من أن نتعجب، هل يعقل لأي غي تصديق أكاذيب البيت الأبيض؟ كان العراقيون ووسائل الإعلام في العالم يسخرون منها. تخيلت أن ما اعتراه من انقلاب، شيء أشبه بالجنون وهو يؤكد:

«لقد وضعت أمامي تحدياً، إما أن أموت وإما أن أخلق من جديد».

كان مصعباً، ومثلما خشيت عليه، كنت غاضباً منه، يتخيل أن ما فقدته في مكان، سيجر عليه في مكان آخر:

«أنت هنا تستطيع أن تضع التحدي الذي ترغب فيه، ما دام الأمر بعينك وحملك، لكن إذا كنت تبحث عن المجد فعلاً، قلن تعثر إلا على الهزيمة. هناك على بعد عشرات أمتار مأساة بلد لا ينفع معها أي مجد ولا تضعفها أية هزيمة، هذه التشنجات مزاعم، لم تأت بأي مردود سوى الفوضى والقتل اليومي، وذهبت بالعراق إلى الدمار، وجعلت العراقيين يكفرون بالحرية ويهزأون من الديمقراطية».

«إنها تضحيات زهيدة، ما دامت تسمح لنا، أنتم ونحن، بالدخول إلى التاريخ».

لم يكن المسجود أحسن فقط، كان هناك عطل في رأسه، بل واستحوذ عليه الجنون، حتى يطمح للدخول إلى تاريخ لن يشرف أحداً، لا نحن ولا هم.

رثيت له، واتته الآمال الكبار بعدما أضعف في تحقيق الحد الأدنى لعدالة لم تتحقق ودفع ثمنها ضحاياها، لم تردّ لهم ولو جزءاً بسيطاً مما لحقهم من شقاء، العدالة قد يسمح بها القبر، لا الميجور الذي يعرف أن الحرب لا تسمح إلا بالمزيد من التكيل. فلماذا لا يأمل العراقيون بيوم الحساب، هناك جهنم تقصص لهم، والجنة جزأؤهم.

وربما كان أكثر ما أذاني لحظتها، أن أصحاب النوايا الحسنة هم الذين يتعاطفون معنا، والأسوأ أن السذج منهم يرغبون في الحقيقة. والأكثر سوءاً: هل على الجندي الأميركي ألا يكون سليم العقل حتى يكون إنساناً طيباً؟ الميجور لم يكن واحداً من أي منهم، كان الأسوأ بالمقارنة معهم. بات موسوساً بالديموقراطية، ديموقراطية لا تُطال. بينما كان الشعور بالأمان، هو المطلوب.

على كل حال، الأحداث سبقتنا معاً، وإذا كان ميللر لا يعرف مصيره، فأنا حددت طرفي خلال الفترة القادمة، ولم يكن العودة إلى سورية.

موقف ميللر مهما كان، أو ما سوف يؤول إليه وضعه، لن يضرني أو يؤثر على ما اتخوته. اليوم قبل أن أراه، تلقيت إشارة مبشرة، عطيني بدأت بالعمل، لقد استجيب لطليبي، نصر الرسالة على هاتفي الجوال كان:

(إن كنت ما تزال مصراً على فرارك، هناك جماعة قبلت بتسليمك للجهة المطلوبة، لقد استمزجوا رأيهم قبل قبولهم القيام بدور الوساطة).

تحتها رسالة ثانية بعد ساعتين:

(في حال موافقتك، فالتسليم سيجري غداً بعد الظهر في مقهى
الشاهين).

الرسالة الثامنة عشرة

سأضطر إلى التوجّب بضعة أيام.

لن أوافيك خلالها بأية رسالة، فلا تقلقي.

أعتقد أنني نجحت في تحقيق خطوة إلى الأمام.

أتمنى أن أدركه، تعرفين من أصد...

قل ألا يفتحي الندم.

كلّمتي الأخيرة، حافظي على الجنين.

□ □ □

من الآن فصاعداً، حياتي لم تعد لي، باتت في حكم المجهول.
ما دمت استسلمت لهذه الحقيقة، فلن أتحكّم بحياة الجنين، ما

دامت حياتي نفسها لم تعد ملكي.

كانت هذه وصيتي، كتبها قبل الرحيل.

اتصل بي ميلر ثلاث مرات ليلاً. في المرة الأولى، كان مضطرباً على نحو لم أعهد، مشتت الذهن ومشوش الأفكار. كان مهتماً بتسريح نفسي بمثابة العقوبة، وإذا عاندتم أو حاول التمرد على قرارهم، فسوف يهبطون أسراً بإعلانه إلى أمير كما مقبداً تحت الحراسة والمحاكمة. لقد استطاعوا النيل منه. في المرة الثانية، كان أهدأ قليلاً، قال إنه لم يتخذ قراره الأخير بعد، على أساسه سيتحدد مصيره. نصحته بعدم ارتكاب أية حماقة. لم أقل له هذا إلا لأنني شعرت أنه لا ينوي الاستجابة لهم، بل يُعدُّ الأمر سيئس به. في المرة الثالثة، اعتذر مني، وأعلن عجزه، وحسنتي علي التصرف وحدي بحزل عنه، لن يستطيع أن يقدم لي شيئاً أبداً، وإن كان يسوعي جوناثان بمساعدتي على المغادرة.

صباحاً، لم أذهب إلى جوناثان لمساعدتي، فصدته لأنني لم أرغب في الخروج النهائي من المنطقة الخضراء، قبل أن أتبعه إلى أن حالة ميلر تير القلق.

في المقطورة، كان جوناثان وحده، وملامحه تسيء عن كارثة!!

عطر لي فوراً، أن الإجراءات التي نالت من ميلر، قد أصابه جزء منها. ثم تذكرت أن جوناثان لا نهمه ترقية ولا عقوبة. لا، لم يكن هذا ولا ذلك، وإنما العملية التي كلف بها في مدينة الصلر، كانت قد انتهت البارحة، مضى الليل ولم أعرف عنها شيئاً.

أحسنت أنني أريد بالفعل الاطمئنان إلى الشاب سلمان وأصدقائه. لم يتح لي ذلك مساءً بعدما تابعت نهائياً معركة ميلر مع الإدلة، فيما كان جوناثان كما الترضت منشغلاً بتدبير ما يرى للشبان، حسباً أتذكر كان عندهم لا يزيد على عشرة، سيؤمن لهم أيضاً احتياجاتهم الأخرى من ملابس وطعام بالتنسيق مع ديمي التي ستقتهم بطلب اللجوء إلى أحد البلدان الأوروبية.

سأته عما جرى، وكأنه كان ينتظر أحناً ليلته كي ينهار أكثر. في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس، كان أحد شهود الإجراءات السريعة لدفن سلمان!!

كانت عملية الإنقاذ محكمة تماماً، لكن ما جرى كان غلاقاً لها.

في الموعود المحدد، وصل جوناثان والمنقوبة ديمي، مع قوة نارية من مفرعتين برادلي وفصيلة من المارينز وشاحنة، ورافقتهم جواً طائرة هيلوكبتر أباتشي هجومية. أمام باب المسجد كان المنظر الذي لا يمكن توقعه ولا تصوره على الإطلاق؛ الشاب الجميل سلمان ملطخاً بالوحل، مشلوحاً على الأرض، ملوئاً الفراعين والقذمين، طلقان في الرأس، وعدة طلقات تثبت بطنه ودلقت ما في داخل أحشائه، الرائحة البشعة الفاتحة منه، كانت رائحة الفائط. على وجهه وصنبره ورفته وبديه كدمات زرقاء، وعطوط غائرة تغطيها الدماء، الحمرمشات العميقة تدل على آثار أظفار، وكان سلمان أجهد نفسه في تمزيق وجهه وجسده قبل أن يلفظ أنفاسه.

تشخيص الطبيب أكد تعرضه إلى تعذيب شديد من نوع مختلف حتى عن الحائوف الذي أصبح متعارفاً عليه ومتداولاً، إذ جرى

الغصابه بأثيوب معدني عدة مرات. بعدها وضعوا في مؤخرته مادة لاصقة قوية جداً تُعرف باسم «الصمغ الأميري»، أغلقت الشرج تماماً، بحيث لا يمكن فتحه إلا بعملية جراحية، ثم أعطوه جرعة من مسهل فعال، أدى به إلى إسهال شديد دون إخراج، وانفتحت تشنجات معوية حادة، وآلام لا تطاق، دفعته إلى تمزيق جسده. ويبدو أن التعذيب اتخذ شكل التسلية، تارة يجبرونه على تناول الطعام، فيتقيؤه. وتارة أخرى يعطونه سهلاً، فتشدد الآلمة. توقعوا أن يموت ببطء من جراء انفجار في الأمعاء لانسداد المنفذ، لاحظوا أن العملية طالت أكثر مما قدر لها، أو أن هناك من قال لهم بأن موته قد يأخذ وقتاً طويلاً، فأشفقوا عليه وأراحوه بقتله.

لم يعرف الطبيب أن الخاطفين لم يشفقوا عليه، كانوا مضطربين إلى قتله وبطريقة استعراضية، استغلوا زحام المعتقلين، رموه قبل الموعد المحدد، في الفسحة المجاورة للمسجد لكي يراه الخارجون من الصلاة، وهو يقفز ويتلوى كالقرود، من شدة ألمه. كانوا قد قطعوا لسانه، لم يخطر لأحد ما الذي يربطه هذا العصي السكنين المحاصر بالمطحين، وهو يعوي كالكلب، أخيراً صوب أحدهم رشاشه وأطلق عليه زخعة من الرصاص، كانت رسالة إلى القادمين لإيقاظه.

لم يتجرأ أهله على عمل عزاء له، ولا حتى دفنه، بعد أن تلقوا أمراً بإعادة جسده إلى الشارع، وأن تعلق على عمود كهرباء لمدة ثلاثة أيام، عيرة لغيره. طوال الليل جرت اتصالات مع أعضاء في الحكومة، قاموا بتورهم باتصالات مع المرجعيات الدينية، تمكنوا من التوصل إلى حل مع المجموعة المتطرفة التي تولت تعذيبه، بعد أن أرضوها بشيء ما، مقابل عدم عرضه في الشارع، قبلت

على ألا يدفنه أهله في المقبرة، بل في مكب للقمامة دون أن يخل أو يهلى عليه.

البارحة ليلاً تحايل جوناثان ودفع لهم بكفن محشو بالحرق ليدفن في مكب القمامة، بينما قبل شروق الشمس، اصطحب الأب والأم والأخوة، ودفن سلمان تحت الحراسة المشددة في المقبرة، وترك الأب يكي ابنه والأم تكي ابنتها. قبل قليل اتصلوا به، القبر نيش وجثة سلمان تُسحط في الشارع.

تركت جوناثان في حالة يرثى لها. وهو يلوم نفسه! كان من الممكن أن يحول بين سلمان وهذا المصير اليشع. لقد أرسله إلى الموت عندما لم يدعه ينام هنا على الأرض، سلمان كان قد نبأ بنهايته.

سأرحل دون أن أسف على شيء.

ألقيت نظرة أعيرة على المنطقة الخضراء، كانت هادئة تحت الشمس، أقرب إلى أنها نائمة، إذا حالفني الحظ، فلن ينع عليها بصري ثانية.

في طريقنا إلى مقهى الشاهيندر، بذل فاضل جهده من جديد كي يشيني عن قراري، لا سيما أن الجهة مجهولة، لا يمكن الوثوق بها، الحزب لا يستطيع ضمان سلامتي. هذه الاتفاقات تجري عادة في الظلام ومن السهل التكويس عنها. لا بد من ضمانات، تأخذها على عاتقها جهة معروفة. كنت شارفاً عنه.

«هل أعلمت سيلر بالأمر؟»

انتبهت إلى أنه كثر سؤاله مرتين.

«مبطل ليس في وضع مريح، سيجرونه على الاستقالة».

أكدت لفاضل بأن خروجي من المنطقة الخضراء هو خروج بلا عودة. لقد قطعت صلتي بهم، لم تعد لديهم مشاكل، وإنما مآسي، لا أريد تحميلهم مسؤولية بقاتي أو رحيلي. إذا نجحت، فلن نعدم القاعدة القادرة على توصيلي إلى الحدود السورية.

ركن السيارة في أقرب مكان لسفهي الشاهيندر، وجلسنا في انتظار صديقنا البعشي. لم يكن السفهي غامساً بالزبان، كان الجو ملامساً، توقعت أن تتم العملية دون أن تثير فضول الجالسين القلائل. لم أكن مقدماً على عملية تسليم فقط، سأودع فاضل أيضاً، الاحتمال الأكبر إذا سارت الأمور على ما يرام، ألا يرى أحدنا الآخر بعد اليوم. لم تفارق ملامحه أمارات الحرج، كان يرغب في حدوث شيء يعرقل اللحظات الأخيرة.

«سأرتفق عن بعد بالسيارة، ولن أدعك تذهب عن بصري».

استمر شكوكهم، ويظنون أنهم ملاحقون وأن العملية كلها عبارة عن كمين مدمر، لئلاك وفعل شيء من هذا القبيل، تعرف أنها مخاطرة قاتلة».

في غمرة محاولتي إقناعه ومحاولة إقناعي، رن الهاتف الجوال، كان على الطرف الآخر الهاتفات جوناتان، قال لي بأن مبطل نقل قبل قليل إلى المستشفى في حالة سيئة، يعتقد أنه حاول الانتحار. كان الخير صدمة فظيعة، كنت أظن أن مبطل عصي على

الانتحار. كان جوناثان يريد الاستفسار مني عما قاله لي ميلر البارحة. هناك رسالة قرأها قبل قليل على هاتفه، تطلب منه الاتصال بي.

«كان يريدك أن تساعدني، لا موجب لهذا، لقد غادرت.»

«هل تعني...؟»

«لا تسألني، سأدير أمري. إذا احتجت إليك اتصل بك. هل حالك خطيرة؟»

«لا أعرف، أتمنى أن ينجو، أعشى أنه...»

لم يكمل، أحركت من غمغمته، أنه ربما تعرض إلى محاولة قتل.

«هل أنت متأكد؟»

«كان قد أغلق الهاتف.»

لم أنتبه إلى أنني كنت مراقباً، وأني كنت أتكلم بالإنكليزية، صوتي رغم أنه لم يكن عالياً، كشف عن أنني لم أكن عراقياً، مع أنني توخيت المحيطة. أحسست بشيء غريب، يلهم على المكان، دون أن أتمكن من تحديده، فلم آبه به. الرجل البدين الذي استند إلى الحائط وأرغى رأسه، وأخذ يشرب الشاي الأسود بشراقة، لم يرق لي، العرق ينضح من وجهه ويسيل بشكل غزير ومنقر، وكلما رفع رأسه، يجيل بصره بحذق ويشمل الموجودين بنظرة سريعة، وهو يحاذر أن تلتقي نظراتي بنظرته.

اعتقدت أن ما شعرت به كان من قبيل ذلك التوجس الذي يدهني عادة عندما أكون لققاً، انشغال بالي بحالة ميكلر شوشني، كذلك عشتني أن تخلف الجماعة موعدها معي، أو لا تمضي العملية على ما يرام، لم أستبعد على الإطلاق حدوث مانع يؤجلها، لا سيما أن صديقنا البعثي اتصل وقال لفاضل بأنه سيرسل رجلاً من قبله، سيتولى دور الوسيط بيننا، وسوف نعرفه فوراً، سيأتي برقعة ثلاثة مرافقين.

وفي لحظة كانت متأخرة جداً، تذكرت أنني رأيت الرجل المتعرق من قبل، ربما في المحفهي نفسه أو في القنفذ، أو الشارع. ولكني أطمئن نفسي اعتقدت أنها مجرد تخمينات. لكنني لم أشعر بالارتياح، حتى عندما دخل الوسيط بصحبة مرافقيه، جلس معنا، بينما انتحت عناصر المرافقة الثلاثة جانباً في مدخل المحفهي وجلسوا إلى طاولة بجوار الواجهة. بينما نهض الرجل المتعرق وقد زادت إفرزات وجهه، كان يمسك بيده مندبلاً يمسح به جبينه وذقنه، بدأ ضخم الجثة يتحرك بتثاقل. راح إلى الداخل، ثم عاد بعد قليل. هنا ما استرعى انتباهي، ما الذي يوجد في الداخل؟ لا شيء غير المراحيض.

كان الوسيط يقول إن الحزب لم ير ضيراً في مساعدتي، للأسف هذه قدراتهم، بقية الإجراءات تعتمد على قيام الطرف الثاني بالتنفيذ حسب الاتفاق. أما بخصوص القاعدة فالأمر عائد لهم تماماً، ولا سلطة لهم هناك.

كان يحاول أن ينجز شيئاً قبل التسليم، نظر إلى الساعة:

«لن يتأخروا، بقي أقل من عشر دقائق».

ونصحتني بشدة ألا أذكر شيئاً لأي طرف عن إقامتي في المنطقة الخضراء، وعلاقتي الجيدة بالأمر كان.

«هنا أمر لا يتسامحون به. قل لهم إنك كنت بحماية الحرب».

تلاها مجموعة من الإرشادات كي لا أحبب الظنون لنفسي، كان أمرها:

«عندما تنهي مهنتك، غادر العراق بأقصى سرعة».

لم يته كلامه، عندما انتدفع من الباب ثلاثة عشرين مسلحين، أطلق أحدهم النار على عناصر المرافقة، رأيتهم كما يحدث في السينما يسقطون أرضاً، الأول منهم، ساح الدم تحته وهمدت أنفاسه، كانت إصابته سيئة، الاثنان الباقيان ركعا على الأرض وقد تخلوا عن أسلحتهما، وجحظت عيونهم.

بينما رفع الوسيط يديه إلى أعلى، وفاضل بنا مبهوتاً، أما أنا فلم أعرف ماذا أفعل. اكتفيت بالمراقبة، وكان الأمر لا يعني. وقف الملتزم الثاني مصوباً رشاشه إلينا، وحلرنا من محاولة المقاومة أو إخراج سلاح. قال الوسيط:

«لقد أعطاكم الهدف، نحن أصدقاؤه».

لم يكن الملتزم راعياً في إطلاق المزيد من الرصاص، أو التورط بالمزيد من القتل. تابع الوسيط قائلاً:

«لم يكن هنا اتفاقاً».

«أنت المخطئ، ليس يتنا اتفاق».

ضرب الوسبط على جبهته، أدرك أنه إزاء عصابة عطف. وكنت أنا الهدف.

الترب مني المعلم الثالث، شدني من كتفي، ودفعني نحو الباب، التفت، كانت فوهة الرشاش قد التصقت بظهري، نغزني بها، استرقت نظرة نحو فاضل... وداعاً، يبدو أنني قلتها له. ورأيت في الوقت نفسه، الرجل المتعرق الجالس إلى جوار الحائط، يقف. كان يحمل بيده المنديل وقد ظهر منه هاتفه الجوال، ويخاطر المكان معنا. كان العلاس، كنت قد وقعت في قبضته. اعتباً في المرحاض واتصل بهم، ثم غادر معهم، لتلا تعثقه جماعة المرافقة.

جلست بين اثنين في المقعد الخلفي، بينما جلس العلاس في المقدمة، وانطلقت السيارة بنا، بعد أن وضعوا قماشاً على رأسي. أتحفوا يطلقون النار في الهواء ويشقون طريقهم وسط الزحام والناس المتراكضة. بعد قليل انعطفت السيارة نحو زقاق جانبي وتوغلت فيه، نزل العلاس بعد أن همس في أذن السائق، دفعوني خارج السيارة، وأوقفوني مواجهة حائط باعت اللون متآكل وقفر، رائحة القمامة والبول تهب منه، كتب عليه «يسقط صدام» بخط نازل، وفوقه بخط صاعد «يعيش صدام». كان هنا آخر ما رأيته من بغداد قبل أن تهرب بناي إلى خلف ظهري وتمصب عياني بقماشة سوداء، وأحشر في صندوق السيارة. وإذا سمعت صوت غطاء المؤخرة يسقط في أذني، لتدرك أنني أصبحت حالة احتطاف حقيقية.

الجزء الثالث

تمت أن ينتهي ما تذكره هنا، خاصة أن غائمة رحلي إلى العراق كانت سعيدة، ألم أنج من الاحتطاف والموت معاً. لماذا أحيلها إلى مأساة؟

لا أنكر توارد بعض الصور إلى ذهني، ولقد ألصبتها عني، وما أفلحت في الإفلات منها. لا تفتأ تأتي متقطعة من سياق لا أرتب في متابعتها، وقد يخطر لي تأمله، مع ما في ذلك من قسوة أكثر مما يحتمله أب لم يفقد ابته لفظ، بل وفجع به أكثر من مرة، وعلى أكثر من نحو، ولا يدري بعد ما قد تحمله له الألام من أشياء تزيد الفقدان ألماً.

لكن من باستطاعته التحكم بما يرهق أو لا يرهق؟ أو بماذا أفسر. مقاومتي التي تحللت إلى هباء؟ هل أقول، إن للذاكرة تداعياتها ومعالجتها؟

ها أنا أسلمت أمري لها، وأسلمت قبادي للرعب.

أدرك، ولد فوات الأوان، أنني ممسوس بما هو قادم، لن
أطمئه، بل سأعيثه لآتية.

حافة الجحيم

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

رغم إحساسي بالاعتناق الشديد، لم أفقد وعيي. المكان ضيق بالكاد يتسع لي، أعصابي مشدودة ومتنبه إلى أقصى حد. لم يساورني الندم على تهورتي. ارتحت لفكرة عطرت لي الأقدار الغامضة التي لا راد لها، تتحدى عدم إيماني بها، رحيلي النهائي عن المنطقة الخضراء، كان لا بد أن يحدث، وحياتي لا تنفج معها أية محاولة لتحويلها عن خطها المرسوم، والخاطفون مثلي لا حول لهم ولا قوة، بل ورهائن لمصري أنا.

هل يموت الأمل مثل هذا التفكير؟ ليس أكثر من لحظات.

شُفْتُ من دون جدوى بتحديد وجهة السيارة. كنت أجهل شوارع بغداد، وأجهل كل مدينة وقرية خارجها، ومن العبث نخمين أي منطقة يقصدونها. كانت السيارة تسير على طريق معتد، تعترضنا بعض المطبات، أحياناً تنعطف نحو اليمين،

وأخرى نحو اليسار، إلى أن انتظمت سرعتها وانطلقت في طريق مستقيم، ثم انحرفت نحو طريق ترابية، تفادياً لحاجز أو دورية، اضطرت مرة إلى التسهيل والتوقف طويلاً. يبدو أننا كنا نسير على مبعده وراء قافلة أميركية، تتقدم ببطء شديد. سمعت هدباً قوياً لآليات ثقيلة تتقدم بمحاذاتنا بسرعة كبيرة، عادت السيارة بعدها إلى سرعتها المنتظمة. مررنا على بعض الحواجز الصديقة من المشاة، ومن الشرطة أيضاً، سمعت صوت السائق يصرخ معرناً عن جماعته: «مجاهدون»، وهناك من يصرخ مرحباً بهم ومودعاً لهم: «انصركم الله».

ساعات طويلة من الزمن، تخيلت خلالها أن الليل قد حلَّ، على الأرجح لم تتجاوز أربع ساعات أو أكثر قليلاً. لدى إخراجي من الصندوق، كان النهار رغم المعصاة السوداء ساطعاً، والهواء نقي مشبع برائحة الأعشاب البرية!! جرتني أحدهم من يدي بضعة أمتار، ثم دفعني إلى الأمام، تعثرت ووقعت، شدني من ياقتي، فوقفت بصعوبة.

فتشوني بخشونة، أصواتهم عالية، وانتزعوا مني كل ما كان معي من أوراق. توقعت أنني في مكان عبارة عن بيت منزل، دفعني أحدهم على الدرج، أنزلي درجة درجة. أمرني بخفض رأسي، وأدخلني إلى مكان تفوح منه رائحة عفونة. فك عفتة الحبل عن يدي، وكشف عن عيني، وتركتني في ظلام.

بعد قليل، ألفت عيناي العتمة، غرفة فارغة جدرانها عارية بلا نوالذ، ليس فيها سوى بطانية ممدودة على أرض إسمنتية، قعدت فوقها، وأسندت ظهري إلى الحائط، ولم أتحرك من مكاني. بدأت

بترتيب أفكاري، المرحلة الأولى أنجزت، الخطأف اشتراكي من العلاس. سئلبها المرحلة الثانية، الخطأف سبولى عرضى للبيع على عنة جهات. كان هذا ما أردته، أو ما تمنيت أن يحدث لى، تلك حكاية الأقدار الغامضة، ثم أنها تلك الفكرة التي دارت مرة فى ذهنى وطسحت إلى نفضها، تعرض نفسى للاختطاف، ترى هل تحققت فى ظرف ملاحم، أم غير ملاحم؟

أملى الوحيد أن تشتري الفاعلة، عندئذ ينقلب وضعى السى، مع قلبل من الحظ إلى وضع جيد. هنا إذا كان سامر ما يزال على قيد الحياة، أما إذا كان قد لقي حتفه، فما الذى سيجعلهم يصدقون أنى أبوه؟ لم أطفال، كان تخبياً... وفى علم الخب.

عدت بأفكارى إلى الوسيط البشى الذى تركته واقعاً بديه إلى الأعلى، لا أستبعد أنه الآن يعانى من موقفه المخزى، المخرج أنهم لم يطلقوا عليه النار، سيدو المسكين شريكاً لهم، وكأنه هو الذى سلسنى إلى العصابة. كنت متأكدأ من براءته، وإذا حاول إصلاح ما حدث، فليس قبل أنهم، مجموعات الخطف كثيرة، ولن تعرف من خطفتى إلا إذ تعرض على الحزب شراكى، فى هذه الحالة، هل سيقضون مالاً كى يشرقونى، ثعناً لا يقل عن آلاف الدولارات، لا يمكن تعرضها إلا بادعائهم تحرورى. فى الحقيقة، لن يقبلوا منى سوى فى التكفير عن خطيئهم، هنا إذا اعتقدوا أنى كنت تحت حمايتهم.

دخل أحدهم وقطع على حساباتى، أشعل الضوء، لمحت قبل أن أغمض عينى من وهج النور المفاجئ، كان القادم ملثماً. عندما فتحتهما بدأ الرجل ضحكاً، وتوضحت هيئة تحت النور الذى

بات عافئاً، كان كتلاً من اللحم المكسمة بعضها فوق بعض،
 قرص، ودون كلسة واحدة، ضربني بقبضت على جيني، فاصطدم
 رأسي بالحائط، شدني من شعري، ووضع السكين على عنقي،
 وزجر في أذني. لم أفهم ما قاله، كانت رائحته كريهة، أحسست
 بدوخة، المنقطت بعض الكلمات، كانت تعني أن أجلي قد حل،
 وأنه سيقطع رقبتني لو كذبت عليه. لم أشعر بالخوف، كان
 نهديله مجرد تمثيل. حياتي نهته، وثمني بهمة أكثر، وروحي
 معلقة على بقائي حياً.

أبعد السكين. فرد أوراقني، وبشرها على الأرض، وأبت جواز
 سفري الأمريكي، وبطاقة دخول المنطقة الخضراء. أسكهما ولوح
 بهما، كانا أكبر اتهام لي. صفعني على وجهي وهو يشتمني:
 عميل، كلب، جاسوس، طليعي، زنديق... قلت له:

«أنا مسلم».

«كافر نجس».

رمى بالبطاقة وجواز السفر في وجهي:

«ما الذي جئت تفعله في العراق؟».

حاولت أن أكون هادئاً.

«لأبحث عن ابني، علمت أنه انضم إلى المجاهدين».

«لا تقنعي بأن ابنك الأمريكي مع المجاهدين».

«تابع منظمة القاعدة».

«تكذب».

ضربني على أنفي، فسال الدم على فمي.

«صدفتي أنا لا أكذب».

خرج عن طوره ووجهه لكلماته إلى وجهي وصدري، تفوقعت أرضاً تفادياً لضرباته، ركع فوقي، وأسند ركبته اليمنى إلى صدغي وضغط على رأسي، أحسسته انهرس تحت ثقله. ثم نهض واقفاً، ورفسي بمقدمة حفاته، معدني تتعرق، بعد ذلك لم يوفر أخلاعي وأطرافتي من الرض، إلى أن خرج.

عاد بعد قليل، ما زلت مرمياً على الأرض، منهكاً مطولاً، جسدي يؤلمني. رمى نحووي بزجاجة بلاستيك: هذه للبول، ثم كيس أسود: وهذا للفاظ. لم يخرج قبل أن انهال عليّ بالشتائم.

في حفلة التعذيب التالية، أصررت على ما قلته، وحاولت إقناعه بأنني اضطررت إلى شراء جواز سفر مزور من بيروت لأنكمن من دخول العراق. لم يتوقف عن ضربني، كان الوسيلة الوحيدة لإجباري على الاعتراف بأنني أنا الأميركي فا الأصل العربي، صاحب شركة مفاوضات، جعلت إلى بغداد لاسترجار عقود من قوات التحالف. لقد سحت دهنني وعرويتي، واستخدمت معرفتي باللغة العربية لأقدم خدماتي إلى القوات الأميركية في إدامة الاحتلال، وأنا واحد من النهابين الأشرار لثروات العراق.

أصبح مستجوبي الدين الملتزم على شخصي الضعيف أغلب المواصفات السبئية وضكمتها، وكان اعترافي بها بشكل حجباً بفري الميليشيات بشراتي. مواصفات على هذه الشاكلة، كانت من النوع المطلوب، وتكديسها يسهم في ارتفاع ما أساويه من دولارات، مع الأخذ بالاعتبار ملكيتي لشركة لن أتأخر عن بيعها لاقتداء حياتي بشنها. كان رافضاً أن يفهم أساوي، ومحصلاً على مواصلة تعذيبي حتى أعترف بالحقيقة.

ما الذي أعترف به، إذا كانت الحقيقة هي أنني جاسوس وخنزير؟

خطر لي جونتانان، ترى هل عرف أنني اختطفت؟ ربما فعل شيئاً من أجلي؟ حتى لو عرف فهو عائق بكارثته، من المحتمل أن يحاول إقناع رؤسائه بالبحث عني، لكن ما دمت من اختصاص ميللر فلن يتشجعوا على الاعتحام بي. الأفضل ألا أعلق حياتي على أمل واه، بل العمل على رفع معنوياتي والتفكير بشيء يفتح الخاطفين ببني إلى القاعدة، ليت هناك طريقة توصل غير اختطافي إليهم. لن يتقذني غيرهم.

عاد بعد حوالي ساعة، وأعاد الكرة، ثم ذهب وعاد... ما المعلومات التي كان يريد الحصول عليها، أشك في أنه كان يعرف. عاكستي الحظ خلال دورات التعذيب، لم أنهر كلية، تسببت أن أنقذ وعيها كان الإغماء بعد المثال. لكنني لم أرغب في إيقاف الأكم، ولا التخفيف منه. أشعر مع كل دورة تعذيب أنني أساهم بتعصيب مما يقع على غيري، كنت واحداً من مجموعة هائلة من البشر تعرض لهذه الآلام.

لم أرغبه متحي استراحة ولو ليضع لحظات، كان هو الذي

بشريح فأخذ نفساً، يطلب مني الجلوس لمواجهة الحائط وألا أدير وجهي نحو الخلف. ينزع عنه اللثام، يغسل وجهه وشعره. لا أسمع سوى صوت تنفسه العالي، وأحياناً حواره.

مضى اليوم الأول، وبقي ما حصل عليه من معلومات على حاله دون زيادة. أتاح لي وقد ظهر عجزه، التفكير بمسحرج لكلينا، عسانا نصل إلى نهاية المطاف. وكانت الفرصة تقترب، بعدما تعب من تعذيبني، وانطرح لاهثاً مواجهتي، قدمت عرضي إليه: إعلام القاعدة بأمرني، إذا أراد أن يكون على يثة من هويني.

طلبي لم يخف مخاطرتي بحياتي، كان المشتطون أنثالي يتحنون ألا تكون الجهة الأسرة هي القاعدة، الوقوع بين أيديهم، أكبر داع لفقدان أدنى أمل بالنجاة. وبما أنني غامرت برأسي، فلا بد أنه سيكون أميل إلى تصديقي مؤقتاً، ربما يأتيه الجواب من حيث لا يأتي غالباً إلا الموت.

اندفع نحوني زاحفاً على يديه وقدميه، وقد فقد صوابه، كأنني أعطيته سبباً لمعاودة ضربي، أطلق على رقبتي يديه، وأخذ يضرب رأسي بالأرض وهو يضغط على عنقي، وقبل أن أُلغظ أنفاسي مختنقاً، أفلتني. أتحركت خططي بعد فوات الأوان، كان غيبي قد أنقذني القاعدة، أملي الوحيد، بعدما نهته إلى الاحتراس منها، لو كنت صادقاً بادعائي، وعلمت منظمة القاعدة بأمرني، فسوف يخسرون الصنفقة، كان في اعتنائهم شخصاً يموت بصلة إليهم، لا يُعد تمديماً عليهم فقط، وإنما إشارة سافرة لا تنقل عن إعلان حرب، لا يمكن تجنبها إلا بتسليمي إليهم مع الاعتذار. لماذا يترعون بي؟!!

اقتصر آخر الليل على وجبة العشاء، عجز يابس وعياله. رمى بهما على الأرض وهو ييلخني بعثورهم على مشر لي، فأدركت لحاذاً توقف عن ضربي. نمت بعمق وإن كان بشكل منقطع إلى وقت متأخر إلى أن سمعت جلبة فصحوت على أذان الظهر قادماً من بعيد.

تذكرت أنني لم أتناول وجبة العشاء، لأنه أضاف إليها وجبة الإنطار، شاماً بارداً ووجبة وعيزاً وصراصير.

الإعياء وهلوساتي المشتتة أفقدتني الإحساس بمرور الزمن.

انفتح الباب بعد قليل، أو بعد ساعات.

دخل مختطفني برفقته رجل معصوب العينين، أزاح عن وجهه العصابة، ونفخني بقدمه، فتعدت. كان الرجل الثاني ملتجئاً، يلبس شرة فوق جلابيت القصيرة، ويحيط خصره وصلوره بأحزمة من الرصاص، ومن دون سلاح. تخيلت للحظة أنه مختطف مثلي، لكن لماذا تركوا ما يحمله من ذخيرة بحوزته؟

تأملني الرجل باهتمام، وأخذ يعاتبني، لم يكن رفيق سحني ولا مثلي مختطفاً، كان مرسلأً من الجهة التي ستشتريني، تحسبت عيناه كي لا يستدل على مكاني. ناوله اليدين جواز سفري والبطاقة، تفحصهما الرجل على مهل، مقارناً بين ملامحي وصورتي. تفرس في طولياً، نظراته ثاقبة، اقترب مني وكأنه يريد أن يشمني، لكنه رفع يده وسلط إصبعه على وجهي وعقبهما،

موشكاً على الخلاع عيني من محجرتيهما، وسألني:

«هل صحيح أنك مسلم؟».

هزرت برأسي. فقال:

«استعد لمأواك جهنم وبئس المصير». وابتدأ منذ الآن بالصلاة على روحك النجسة.

والفت لمحتظني الدين، وافق معي على أن يتسلمني غداً.

أعاد الدين وضع العصاة على عيني الرجل وخرجنا معاً. عاد بعد حين وحفظوني من التلاعب مع الذين اشتروني. كان قد باعني لمنظمة مجهولة ستعلن عن قيامها بعملية أولى: قتل علي الملا أمام عدسة الكاميرا.

كنت والفتاً، فراجعت إلى الخلف، أرتج على المكان، أعضائي ترتجف، أسناني تصطك، فدمعائي لا تحملتني، استندت إلى الحائط وتهاككت ببطء. دهمني إحساس بالخوف والاستسلام لمطارق ضرب رأسي، وحدي ضجيج هائل، أصبحت جزواً منه.

بفصلتي عن الموت يوم، أو يومان... مهما طال الزمن، فأبام حدودات. الشاري الذي نصحتني بالصلاة على روعي النجسة، لا يعرف أنني قطعت صلتي بالدين، ولا تخالجتني أية رغبة في استعادة إيمان فقدته منذ زمن بعيد، ولا الاستعداد ليوم القيامة، ولو كانت الجنة نهاية المطاف. إذا كان الله يعاقبني، فهو يعرف أنني جئت من أجل ابني، فلماذا جزائي اليأس والتعذيب؟ لن

أستغفروه، أو أسأله الرحمة. وإذا كان عاقلني يمتحنني، فليفعل بي ما يشاء. وإذا كان ينتقم مني، فلا فلتة لي على رده، منحني حياة، لست أسفاً عليها، كانت عناء وحيرة وتردداً وخيبات وإحباطات وهزائم وعسائر... وبحثاً بلا جدوى، ووجوداً تافهاً بلا معنى. هنا هو الحال، تعذيب وإهانات وسجن وطعام جاف يسري فيه النمل، وتحريم حوله الجردان وتشمس الصراخ، وفي الزاوية كيس القائط والمبولة البلاستيك. هذه حياتي العظيمة، مجرد سخام... خذها، لا أريدتها...

الخواء يحثوني، وهذا الشيء القليل المتبقي مني، يتصدع ويتشقق في داخلي. أما روحي فتتفتت وتتلاشى، وينسحق في كل ما تمنيت أن يساعدني على المقاومة: مكابرتي وإنكارتي، عنادي والإحادي... كرامتي وكيابتي، لم أعد إلا شيئاً يريد التمسك بأي شيء، فلا أجد سوى الفراغ، أمضي فيه، أو أسقط... ما الفرق ما دلم ملجئي الأوحاد فرائحاً محتماً بلا حدود، جفت منه وأذهب إليه. إذا فُتّر لي مواجهة العدم، فهذا أنا، مستسلم وبلا أمل، أضح عمي العمياء في عينه السوداء. لا أرى سواه. فليطلني ويتكلم مني، أنا القائط الأعزل.

لم يطل صمودي اليأس، أعقبه دفعة واحدة، دون أن أعي، انهيارني المفاجئ، جفّ ريقني، وزاغت عينايت، دارت الجدران بي، وتقطعت أنفاسي، وكأن هناك في رأسي من يطارذني، من مكان إلى مكان، دون أن أبرح مكاني!! لا، لم أتخلص من الخوف، أو أتبع منه. بل أطبق عليّ. لم أتحرك من المنية، ولست جاهزاً للموت. الحياة هي أناي، إن ذهبك أذهب، وإن متك ماتت.

أراني كما لم أر نفسي من قبل، إنساناً عارياً مطروداً، ذليلاً ومذموراً، ساجداً لله، أصلي وأسأله بكل حرارة طلباً مستحيلاً، أن أعيش. ترى هل يقبطني في عتاد المؤمنين؟ ربي، انظر لي أعطائي وعظماي، سوتني وزلاتي (من أي ذاكرة جاتني هذه الأدعية). أتأشده بلسان يأس وقلب يحرق أن يقبني على قيد الحياة.

الساعات تمضي بطيئة وبليدة، وليل يمتد أصم، بلا حس ولا نبض، سكون عامد الأنفاس يشغل الفضاء بوطائه. غلبي الإرهاق مرار ومرات، أنام وأصحو وأنا أحمد الله وأرجوه، ملتصقاً منه الشفقة، هاذاً أطلب الرحمة، أسأله اللطف بي. أنقذني، لا تخفني يا رب، وكان الإيمان لم يفتقر قلبى قط، لساني يلهج بذكر الله، أبهر قلبي بسامره، أريد معرفة ما حلُّ به، وأوفر الأكم على ابنتي وزوجتي وسناء...

في هدأة الليل، سمعت هدبياً قطع السكون، آليات مدرفة، وطوافات تحوم، الأصوات تقترب، ونباح كلاب. أصرخ وأهتف صائحاً بأعلى صوتي، أنا هنا. أعبط كالمجنون على الباب والجدران، لا جواب ولا مجيب، إلى أن كَلَّتْ يداي وتراخت قدماي، وتناظت على الأرض أجعر بالبكاء.

ترى متى تماكنت نفسي، واستردت وعي، هل كنت أحلم؟ ما الذي صوره لي اليأس؟ التجاة. لماذا؟!!

كل ما أريده هو الموت، لا عذاب. كنت محموراً.

ترامى لي أنني لم أتم لحظة، وأنتي فضيت الليل بطوله دون التوقف عن الصلاة، أتعرق متقلباً بين علوساتي ولذعمني ورعبي وهذيانتي. بللت فمي بشيء، ربما كان شايهاً أو ماء، أو سائلأ له طعم المرار. وأنا شبه غائب عن وعيي أسبح في تهيؤاتي، لاح النهار من شق الباب مشرقاً، كان مجرد تخيل، في قبوي لا شروق ولا نهار. أعذتني غفوة كانت عنيفة، وربما ساعة أو أقل من الزمن، أنهكتني ما ترامى لي من مطاردات لا تبدأ إلا لتبدأ ثانية، لاحقتي خلالها المشكور، وتم فيها قلبي مرات ومرات.

عندما أيقظني كان نور شاحب، أدركت بأنني نمت ذلك الوقت الذي يفصل الليل عن الصباح. اليوم لم يضرمني، أمرني بتناول فطورتي. لم أصبح ثانية إلا حين تبهت إليه بربط يدي إلى خلفي، وبمص عينتي. كنت ذاهباً إلى سوني الأخير.

رغم وهني وهواني، تحاملت على نفسي، واسترددت قواي المتهكفة، لن أضعف، سأواجههم بلا مبالاة، وأموت بكرامتي، كرامتي التي لا تعني شيئاً لهم، لكنها كل ما تبقى لي من كل شيء. فلأصبر، لن أستسلم لمخاوفي، ما زال هناك فصل واحد. لكن هل أصمد؟ سألت الله منحي الشجاعة في مشوار النهاية.

مخشرت في الصندوق الخلفي. تحركت السيارة، اتخذت طريقاً متعرجاً، وكان مليقاً بالحفر. استقام بعد فترة قصيرة من الزمن، خرجنا إلى طريق معبد، ضوضاء السيارات العابرة تطرق سمعي، إلى أن انعطفت السيارة وسارت فوق طريق ترابية، بعد قليل سمعت ضجيج البشر وصخبهم، كنا نسير قرية، فلدت أنا انعرتنا سوقاً للمبيع والشراء، أصوات عراف وساعز وتعاينات، الأصوات تتخافت. تابعت السيارة سيرها، راقنا بعد قليل صوت الأذان، إلى أن غاب عن سمعي، وارتد صوت عديم المحرك قوياً. السيارة تخفف من سرعتها، تتقدم على مهل، ثم تتوقف، انطلق صوت المحرك، لبث ساكناً أتصت سابعاً في عرني، عدة دقائق وأنا أنتظر، أسمع دقائق قلبي. كانوا كما يبدو مثلي ينتظرون، إلى أن سمعت أبواب السيارة تنفتح، نزلوا منها وأخرجوني من الصندوق.

أزبحت المعصاة عن عيني، قرص الشمس يلتهب محمراً. كنا وقوفاً أمام منزل من طابقين، حولي البدين ومعه رفاقه الثلاثة، داخل بستان اكتظ بأشجار النخيل. بينما على الطرف الآخر، بعيداً إلى جوار شجرة تين باسقة، سيارة سوداء شبح، وقف إلى جانبيها ثلاثة رجال بلبسون دشفاشات بيضاء اللون وعلى رؤوسهم كوفيات حمراء، كانوا قد أنهوا صلاتهم لتوهم، رابعهم

ما زال يصلي، في وضعية القعود لم يته أذيعته بعد، يبدو أنه قائد المجموعة، الجميع ينتظرونه، من بينهم الرجل الذي عاينني البارحة. عندما أنهى قائد المجموعة صلاته، نهض يهدهو وانتحى به جانباً، ثم ذهب إلى السيارة وأعطاه حقيبة يد سوداء، كانت الثمن المتفق عليه. ووقف جانباً يراقب سير العملية. حمل رجل البارحة الحقيبة وتوجه نحو بالمعي اليمين الوائف خلف سيارتنا الكبار، سلمها إليه بعد أن تبادلنا حديثاً قصيراً. رأيت وجه الرجل اليمين لأول مرة وأخر مرة، كانت ملامحه غليظة ومتضخمة.

اتخذني رجل البارحة معه إلى الجانب المقابل، أدخلني إلى السيارة السوداء الشبح، جلست في المقعد الخلفي بين اثنين من الشبان الملتحين، رشاشاتهم مهيأة وأصابعهم على الزناد. احتل رجل البارحة مكان السائق، وجلس قائد المجموعة إلى جولوه واحد من هؤلاء المجانين سيفتني. وانطلقت بنا السيارة.

خرجنا إلى الطريق المستقيم، أخرج قائد المجموعة سبحة وأخذ يسمل. كان شاباً لم يتجاوز الثلاثين من عمره، فاسي الملامح وهادئ الأعصاب، لم يلتفت نحوي. لكن عندما أمرني السائق أن أغلق عيني، ريشما بعيد الجالس إلى يميني وضع العصا على وجهي، نهرهم قائلاً، دعوه يودع الحياة. كان كرهماً معي، فأخذت أودع الحياة وأتملى طريقاً مهماً طال، فلن يمتد إلى ما لانهاية.

استسلمت لموتي المنتظر... بعد السكين، ففري غير الغامض الذي لا مهرب منه، لن أواجهه وحدي، استعنت بالله، وبني لا

أسألك رد القضاء، أسألك اللطف فيه. اعطأت نفسي، في هذا القضاء العظيم والموت الوشيك، لا وجود إلا لله.

لاح السراب البعيد المخيم على الأفق متألقاً، كما لوحة مرسومة بجمال دقيق وسالم، مجللة بصمت بهي، تنزل ألوانها ثم تتحلل إلى لون واحد، بلا لون، غيوم تعبر على مهل زرقاء سماء صافية، لوحة تتجاوز بعنفوانها الهادئ، سحف الأسلحة والقنابل والملحي... من الأفق لا منها، بأنني موتي هائلاً وخفيفاً، يتهادى على أمواج الأنهر، يمضي كما العبير، يمضي من يأسى ويعصني من ظنوني، أنه، لو كان لي قبر في هذا الغيش لا في ذلك التراب.

تخيلت موتاً سريعاً، دون اعترافات أو طلب للرحمة، بلا شكاوى ولا أنين أو بكاء، لن أسألكم الشفقة بي، ما سأطلبه ذهبي وأنا مفضض العينين، دون رؤية ما حولي، لا العناصر المسلحة الملتهبة ولا كاميرا الفيديو، لن أسمع صيحة «الله أكبر»، أو أتربق اليد التي ستمتد، وتلتف من الخلف حول رقبتني، أو أحس بالذعر والنصل الحاد يحز عنتني. وذهب بي التمني إلى ما بعد الموت، لن يشوهوا ملامحي أو يحتلوا بأعضائي، وأكثرت بالتمني، سيتمكن شخص من العثور على جسدي قبل أن تتضخج. ويصادف من يتعرف إليها، ويقرأ الفاتحة على روحي، وربما أرسلت للدفن في مقبرة العائلة بدمشق.

كان الموت هكذا حلماً مترفاً ولا أجمل، هل سيمن الله عليّ بتحقيق أمنياتي، يا إلهي، لقد بالغت في التمني. لا أطلب سوى أن ترافق عنابتك يا ربي بعض خطواتي، ويكون الموت العاجل من نصيبي.

فجأة علا صوت السائق، سيارة تبعنا. لاحظت سيارة رباعية الدفع متطلقة بسرعة كبيرة ومتجهة نحونا، تنهب الأرض وتشير الغبار وتفرق قطعان الغم إلى جانب الطريق، ظهر منها ملحمون بلوحون غاضبين بالرشاشات، يشيرون إلينا كي نتوقف، فزادت سيارتنا من سرعتها. زمجر السائق: بل سيارتان. كانت الثانية رباعية الدفع أيضاً، ظهرت وتجاوزت الأولى، وبدأت تقترب منا، ثم حادثنا وضبطت سرعتها على سرعتنا.

العرق يتصبب من الشابين اللذين يحيطان بي، أخرجنا قوهات رشاشتهما من النافذة، التفت الشاب قائد المجموعة نحوهما.

«أعفوا أسلحتكم، لا تستزروهم، إنهم من القاعدة».

تفتت الصعداء، هل هي فرصتي؟ هنا ما خطر لي، لكن كيف، إذا كانوا على وشك التصادم وتبادل إطلاق الرصاص؟!

استحث الشاب السائق: تخلص منهم. فزاد من سرعتهم ثم ناوهم قليلاً، وانعطف بالسيارة ودخل في طريق جانبي. وكان سائقي السيارتين توقعاً هذه الحركة، وانعطفوا معه. سارا محافظتنا على وثيرة السرعة نفسها، وإذا انفتح الطريق الجانبي على مدى شاسع، بنا وكان المطردة لن تنتهي، لكنها انتهت.

تجاوزتنا إحدى السيارتين واعترضتنا، أطلق المسلحون عدة رشقات من رشاشاتهم أمام عجلات سيارتنا، ما جعلها لتتفادى الرصاص تنحرف نحو الثراب. أمر الشاب قائد المجموعة السائق بالتوقف، فيما أصدرت السيارتان زعيقاً حاداً وتوقفنا على مقربة منا، الأولى أمامنا والثانية خلفنا، وهبطت منهن ستة مسلحين أحاطوا

بنا وسعدوا رشاشاتهم إلينا. ثم نزل من السيارة الأولى رجل عاري الرأس، حافي القدمين، لا يلبس سوى جلابية. أشار لرجالنا بالابتعاد إلى ماوراء السياراتين، رفع يديه عالياً، إشارة إلى أنه لا يحمل سلاحاً.

بعد قليل نزل قائد المجموعة من سيارتنا بعد أن أمر رجاله بالبقاء في الفاعل، لم يحمل رشاشه، تقدم منه الرجل عاري الرأس، وألقى عليه السلام. تبادلنا بضع كلمات تحت الشمس الملتهبة، ثم نشأنا معاً، لم يد على أي منهما ملامح الغضب، كأن الواحد منهما يعرف الآخر. بدت، والجميع على نار، مساومة هادئة وشاقة، لو أنها تعطلت، لا محالة سنفتح أبواب جهنم. لكنهما توصلا إلى تفاهم بينهما. التفت الرجل عاري الرأس وهتف بأحدكم، فجاوبه بحقيقة، كانت الحقيبة السوداء نفسها التي تحتوي على ثمننا، ملطخة بالدم.

تمت المبادلة، استعادوا حقيبتهم مقابل التخلي عني، وسرعان ما جرى نقلي إلى السيارة رباعية الدفع. جلست في المقعد الخلفي إلى جوار رئيسهم الذي احتل مكاناً إلى جواري، كان نحيلاً، على وجهه سحابة رقيقة، تفصح عن نسوة لا تفضها الطيبة!! مد يده بعيداً وشكر الله العزيز القدير، كانت اللهجة حجازية.

واسمي أبو الحارث.

وأنا أبو سارة.

اتسم من حفلة اسمي. وقال، احمد الله، تمت الأمور على خير.

كانوا قد ذهبوا مكان احتجازي صباحاً بعد مغادرتنا بنصف ساعة، وجدوا شاهياً صلباً السن، لم تنفعه مقاومتهم، باح بمكان البستان الذي سيجري فيه نسلهم. أتركوا الخاطفين، كانوا علي وشك الصعود إلى الطريق المستقيم، قتلوا ثلاثة، وأبقوا واحداً اعترف لهم بالطريق الذي اتخذه الشارون، بعدها لم يعد الأمر سوى أن يسرعوا.

أردت الاعتقاد أن الله هو الذي استجاب لدعائي، ووفر عليّ موتاً مهما كان سريعاً، لا يقاس على الإطلاق بسرعة إرسال رجل أنقذني من الموت، ساعة إيماني حلت، لكن الرجل قال لي إن أبو مصعب هو الذي أرسله.

والزرقاوي!!؟.

هتفت مدعوشاً. هزّ مرافقي برأسه موافقاً، كان قد ردني إلى واقع يخلو من الله، بتحول الزرقاوي إلى حقيقة!! ومع هذا لم أقتنع، لدى القاعة أسبابها أيضاً لإنكار موته. وحتى إذا كان حياً، ما الذي يريه مني!!؟

واللحظات، استعاد الله موته، الزرقاوي أو بديلته تلقى إيعازاً منه، فأرسل رجاله، قتلوا الخاطفين بسبب تلاعبهم وكذبهم، واستولوا على حقيبة الدولارات، ثم لاحقوني ونجحوا باشتراكني ممن اشتروني.

كان ثمة ارتجاج في رأسي وعدم تركيز، كنت بحاجة إلى تفسير . لا يذهب إلى الغيب ليحد أجوبة عن أسئلته. حاولت التفكير، لا بد أن سار ضالع في إنفاذي.

سأله عن أبي. قال لا نسألني العزيم.

كنا في طريقنا إلى مواقع القاعدة، وكان أملي كبيراً بقاء سامر.

انفصلت السيارة الثانية عنا، وانطلقت إلى مهمة أخرى. تابعنا طريقنا ومررتنا بأمان من الحواجز المنتشرة على طول الطرقات الرئيسة والفرعية والمناطق، أغلبها حواجز غير مرتبة، بعد أن نجنازها ببرز من وراء الأكمة، أو من خلف شجرة، رأس رجل ملثم يشير بيده أن امضوا في الاتجاه نفسه، أو لرجعوا عنه واسلكوا غيره.

قال أبو الحارث، هذه المنطقة سقطت الأسبوع الماضي بأيدي المقاومين الإسلاميين، ولا تحكمها منظمة القاعدة وحدها. كنا قد أشرفنا على سهول امتلأت على مدى النظر ببساتين النخيل والكروم والحمضيات، وإلى الشرق امتدت التلال جرداء. أشار أبو الحارث إليها قائلاً إنها تحتوي تحتها على معابد وقصور وتمائيل وثنية.

لم يكن شعوري بالأمان طامعاً إلا لأنني قاربت على الوصول، فأغمضت عيني، لتهدئة ما يعج في رأسي من عواطف، لم تطل، فتحنهما على صوت طائرة، رفعت نظري إلى السماء، فلم أرها، لكن من ملامح أبي الحارث، وقد عقد حاجبيه، بدا وكأنها ستقضى بعد قليل فوق رؤوسنا. عبرنا بسرعة كبيرة الخلاء الذي يفصلنا عن القرية وكانت على بعد أقل من كيلومتر واحد، دخلناها، بدت خالية من أهاليها. أوقف السائق السيارة بين الأشجار، والتجأنا إلى جدار طيني، لبنا منبطين، ملتصقين به، حتى غاب عنا صوت الطائرة.

والقد رصدوا المنطقة، سيعدون بعد قليل.

وطلب من المسلحين الذي كانوا معنا، الالتحاق بمواقع المقاتلين، وكانوا على الجانب الآخر من النهر، وهرر عدم مشاركته، بأنه تعهد بأهالي سالماً.

كان أبو الحارث يعرف دروب القرية. تسللنا بين الأزقة الترابية نحو أحد البيوت المشرفة على الجانب الذي بدأ القتال يدور خلفه، المكان يخترقه جدول مائي، أصوات المضخات تباطأ ثم تتوقف، وعلى الأطراف تراسي الأشجار والأعشاب كثيفة، تتصل بسهل امتد أمامنا إلى حيث يلمع السراب ويرتفع الدخان.

كان البيت لواحد من المجاهدين، أرسل عائلته إلى الحقل، رحب بنا، ألقي نظرة من النافذة، وعاد إلينا. لم يكن من القاعدة، وإنما من التنظيمات الإسلامية الأخرى. حفرنا من أن بعض العمليات ستدور على مقرية منا. كانت الطائرات الأمريكية قد بدأت جولتها، وأخذت تسقط قنابلها على البيوت الواقعة عند مدخل القرية،

كانت البيوت فارغة، أغلقت ليلاً. بينما كانت طائرات الهليكوبتر تترش الأحراش برشقات كثيفة ومستتالية من القنابل والرصاص وكانت تترش مبيدات حشرية.

شعوري بالأمان لم يكن في محله، كنا نعبّر نقاط التماس.

قال المجاهد إن الاشتباكات يومية، نخف وتشتد، حاول الأمر كان والجيش العراقي العليل طوال اليومين الماضيين الإطاق عليهم من الجانبين، لكنهم ارتقوا على أعقابهم إلى مواقعهم غير البعيدة، وكانت ثكنات قديمة من العهد البائد، أعيد تجهيزها.

«مناوشات اليوم عفيفة جداً، أشبه بالمزاح».

وعلق مبسماً:

«في الأسبوع الماضي اشتد القتال، كان ضارياً جداً، وبلغ أشده يوم الخميس. قتلنا ثلاثة منهم، حاصرونا، أصبحنا نراهم بالعين المجردة، نطقنا بالشهادة استعداداً للموت. فقدنا في ذلك اليوم أربعة شهداء».

تركنا وتسلل إلى السطح يستطلع الموقف من العالي، عاد بعد دقائق، لاحظ عرقاً في الجهة الغربية، سرية من الجيش العراقي تتقدم، تدعمها مدرعتان أميركيتان. ودعنا وسارع يتخذ موقفه على الطرف الآخر.

لم يسمح لي أبو العارث بالفرجة حرصاً على سلامتي. بينما كان يتابع ما يجري متفلاً من نافذة لأخرى. أعدت أتلصص القصف

الشديد مهد للمتسللين من الجيش العراقي دروباً محروقة صالحة للانتشار السريع. ظهرت العربتان المصفحتان، فتحت كل منها بابها الخلفي، وقفز منه بعض الجنود الأميركيين، انبطحوا أرضاً خلف الجنود العراقيين. واجههم المجاهدون بنيران الكلاشنكوفات والرشاشات والبنادق الآلية والقنابل اليدوية، رافقها أصوات المقاتلين الحماسية يشدون أهازيج الشهادة.

دام التراشق قوياً وطويلاً، ثم تفتح إلى رشاش متباعدة، إلى أن هدأ تماماً نحو ربح ساعة. انكشف السورف، بدأ وكان تقدماً حصل من القوات المهاجمة، سرعان ما عاد الاشتباك أقوى مما سبق. تميز أبو الحارث أصوات قذائف الأر بي جي، والقنابل الثقيلة، تلاها أصوات رشاشات عربيات هملي آتية من الغرب. يبدو أن قذيفة هاون أصابت هدفها، وأن تراجعاً حصل. سمعنا على الأثر تهليل المجاهدين، عرفت بعده حدة القتال إلى أن تلاشت.

عاد المجاهد صاحب البيت، كانت الحصيلة شهيداً واحداً، كما استشهدت أم وولدها بالنيران العشوائية المتبادلة. على الأغلب الأميركيين هم الذين قتلوهما، كانوا يطلقون النار على أي شيء يتحرك. بعض الفصائل المهاجمة تراجعنا، شاهدتهم يخلون جرحاهم، ويجزؤون وراهم مدرعة برادلي محترقة. كانت لديهم إصابات ممتدة، لا تقل عن ثلاث.

خلال الاستراحة تنادى المقاتلون، أدينا صلاة العصر معاً، ثم تناولنا الطعام على عجل، بعدها استأنف التراشق عفيفاً ومتقطعاً حتى الساعة السابعة، إلى أن توقف نهائياً.

في الصباح الباكر، نجحنا في التسلل، وانطلقنا بالسيارة وحدنا، كان أبو الحارث قد تبليغ أسراً بترك الصفاتلين الذهن وافقونا للمشاركة في الدفاع عن القرية. لم يكن أمامنا طريق للخروج سوى ممر ضيق مستور بأجمات من الأعشاب، يقع على طرف السهل الذي حاول الأمير كان الدعول منه. المعركة خلفت أشجاراً محترقة، وشاحنة مدمرة، حفرتين عميقتين، أشلاء حيوانات، دجاج بقرتين وحمار وأرانب، باصاً للركاب نذلت منه جثة السائق، حاول الانتحاء إلى القرية، لكنه أعفق. امرأة مكففة على وجهها، جثة غير واضحة المعالم، أشلاء ربما كانت بشرية. غلاء مخيف، البيوت الفارغة كانت مهدمة، بعضها أصابته شظايا، الكثير من المخلفات باتت رماداً. لم يدعني أبو الحارث أنقرب منها، كل كوم قمامة، أو كيس زباله، أو كوم تراب قد يخفي عبوة ناسفة، ولم يستن البقرة المنفوخة ولا جثة الحمار. على الجدران كتابة باللون الأسود: «أخرجوا من بلادنا».

بعد مسير عدة ساعات على مهل، ظننت أننا ضلنا في متاهة المذقات الترابية، كان أبو الحارث العليم بها قد اضطر إلى الكثير من الحركات الاكتفافية عشية وقوعنا في قبضة الدوريات المعادية.

توقفنا عند مزرعة بدت مهجورة، أرض جافة غير صالحة للزراعة، البيت الصغير يتألف من قاعة وغرفتين ومطبخ. كان واحداً من المخابئ السرية المموهة للقاعدة، لا حراسة ولا حماية سوى بعض الأبقام المزروعة حوله، كانت لدى أبو الحارث خريطة بأماكن توزيعها، مع تعليمات بقضاء الليلة في البيت ونفقته!!

رأفته في جولته، ظاهر المزرعة لا يدل على ما تحويه، تحت

أرضها قبر يحتوي على أثاث قديم يخفي وراءه باباً سرىً يقود إلى نفق ومنه إلى مستودع ضخم يختزن بين جدرانه كميات كبيرة من المتفجرات البلاستيكية وقنابل صناعة يدوية، وبنادق آلية طراز «إيه كيه ٥٤٢»، وكميات كبيرة من ذخيرة البنادق، وقاذفات آر بي جي، وجهاز للتدريب على إطلاق صواريخ أرض جو. كان أغلبها من بقايا أسلحة وذخائر الجيش العراقي، وبعضها زودتهم بها فصائل المقاومة، والقليل منها استولوا عليه من مخافر الشرطة.

استيقظنا صباحاً، صلينا صلاة الفجر، وانطلقنا بالسيارة في طريق الحترق السهول والبساتين وحقول النخيل. قمنا بمسيرة التفافية تحت الشمس الحارقة ووصلنا إلى مقصدنا قبل الظهر بقليل. كنا متوجهين إلى المنطقة التي استولت عليها القاعدة حديثاً.

تمهّلنا عند مشارف ساحة القرية، الأهالي متجمعون فيها، وأونا فباعدوا مفسحين لنا الطريق، نزلنا من السيارة إلى حيث وقف وسط الساحة ثلاثة شبان في العشرينيات من أعمارهم، وصبي لا يتجاوز عمره اثنتي عشرة سنة، مكيلي الأيدي مطأطئين برؤوسهم أرضاً، بينما شيخ بلحية ضخمة علا بصوته، يقرأ من ورقة يحملها بين يديه. الشبان الثلاثة والصبي قبض عليهم بتهمة بيع أقراص مضغوطة لأفلام منافية للأداب. لم يكن إعلاتهم التوبة، وتوقيع العقوبة عليهم بجلد كل واحد من الشبان مائة جلدة، والصبي خمسين جلدة، أكثر من احتفالية شارك فيها الجمهور بالتهليل والباركة. كان الاستعراض بلاغاً لأهالي القرية بالتحول من حكم القانون العراقي المدني إلى حكم الشريعة الإسلامية.

تلفتُ حوالي، عاد السوق بعد الهرج والمرج إلى حاله الطبيعية،

المحلات والبسات مكنظة بالزبائن والمتسكمين والمجاهدين ومنصيدي الأعبار. وكان لبيع الخردوات، وأخر للأدوات الكهربائية، محل لبيع الأسلحة والأدوية الزراعية، المعنى شبه حال من الزبائن، في داخله ثلاثة أشخاص، محل الإنترنت مطلق، وكان حلاق علفت على واجهته الزجاجية بانقطة كتب عليها «حلاقة على الطريقة الإسلامية»، وبالطه أخرى تحتها «لا نطق اللحمة ولا نأخذ الخيط».

في الفسحة البعيدة، كان الأطفال يتقاذفون بأندامهم كرة من قماش.

خرج أبو الحارث إلى الشيخ وعانقه:

«عمل تجرون عليه».

سلم الشيخ علي، ثم أمسك بيد أبي الحارث ودعانا إلى الغداء. مشينا في زقاق ضيق، متفرع عن الساحة. أبواب المنازل الرثة تتوالى غائرة على الجانبين، دخلنا إلى منزل ذي باب حديدي، انفتح على فسحة واسعة، توحشاًنا وصلينا معاً. انتقلنا إلى صالة الاستقبال المسروقة بالديوانية، ربما كان المقصود بها المضافة، كان آخرون قد سبقونا بعد أن صلوا فيها جماعة.

الرجال ملتحمون، يتجاوز طول شعر لحاهم الطويلة غير المشذبة قبضة اليد، يرتدون الثياب الشرعية، ثوباً فوقه معطف كاكي أو أسود، أو القميص الطويل والسروال الفضفاض. الشبان منهم احضروا طاقة سوداء تيمناً بالزرقاوي.

يتبادلون رواية الأحاديث النبوية، أغلبها يدور حول الأحكام الشرعية لتارك الصلاة، واختلفوا على حد الزنى. لم يسأل أحدنا عن صفتي، مرافقي لم ينصح عن سب وجودي ولا عن اسمي، سوى قوله بأنني ضيف عزيز، فلم يسأل أحد المزميد. دُعينا إلى غرفة الطعام، وكانت تفصلها عن المطبخ وبقيّة المنزل ستارة، يأتي من بينها شبان صغار في السن يحملون أطباقاً وزعوها حول صينة الكبة. عرفت أن الشيخ هو صاحب المنزل، لأنه لم يأكل معنا، وإنما أخذ يخدمنا عملاً بتقليد صحابي، أو حسب عادات المنطقة.

بعد الطعام، استرخوا بشربون الشاي بالنعناع، والشاي الأخضر، وصبي يدور عليهم بدلة القهوة. بينما انتشر الآخرون خارجين إلى أعمالهم. انسحبت مع مرافقي أبو الحارث، إلى حيث أعلى لنا الشيخ الغرفة التي صلينا فيها، لتسريح بعد سفرننا الشاقة، استراحة امتدت ما يزيد على ساعة من الزمن فضيحتها نائماً بعد أهام لم أنعم فيها بالراحة. مع حلول المساء أيقظنا الشيخ، كان علينا التحرك فوراً.

تقدما مضيئنا الشيخ متلسماً طريقه في الظلام دون أن يحمل معه مصباحاً أو شمعة تضيء الممشى الذي سلكتناه، خرجنا منه إلى الحقل وغضنا في الماء. ثم سعدنا إلى جرف صخري مرتفع، وأخذنا نمشي وراه في ملاق ترابي ضيق ومتعرج، التصفنا بالحائط، الجانب الآخر شديد الانحدار، وتوقفنا أمام أكمة ضخمة، التفتنا حولها ودخلنا لوهة أشبه بكهف، وبض في مدخله رجال ملتحمون وسلاحون، أبو الحارث لم يدخل، دخلت وحدي.

في الداخل، كان هناك مترجماً على الأرض، على رأسه طائفة
السوداء، مستنداً بظهره إلى الصخر، ونحته حشية رقيقة من
الإسفنج، وأمامه عدة صحنون صغيرة، لبن مصفى، جبن، بلح
وتبن، خبز وكأس ماء.

كان في انتظارى أبو مصعب الزرقاوي، الرجل الذي ثمنه خمسة
وعشرون مليون دولار.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

وصل الزرقاوي بعد الظهر، كان في طريقه إلى مكان آخر، توقف قليلاً للاستراحة، كان ينوي أن يترك عبراً لنا في الموقع كي نتابع طريقنا، وكاد أن يفكر لولا أنني وصلت، فأراد رؤيتي، كي يهتني على سلامتي.

في العتمة الخفيفة المخيفة، فصل بيننا النور الواسع المنبعث من مصباح الكاز، وأضاء وجهينا. لا بد أنني بدت متفاجفاً، كان الزرقاوي يلحمه دمه، كما رأته مراراً في صورة القليلة المنتشرة في الجرائد، لم يكن شبحاً، ولا شبيهاً به، أو بقايا شائعة مخيفة، كان هو بالذات. الأسطورة المرعبة تجسدت في رجل بدا هادئاً ومتعباً ومنشغل البال، رغم أنه كان يتأملني بأنارة محدداً إلى وجهي، قال:

«ابنك أخ عزيز علينا».

فألها بصوت لا يخفي ما يحمله من لوم، وكان ما فعله اضطر إليه اضطراراً. وكانت كلماته بعدها تصديقاً لما خاطرنى.

«نحن لا نرفض له طلباً».

كان إنقاذي إكراماً لابني، ولو ترك له الأمر لما فعل شيئاً من أجلي. خطر لي أن أقول له، إنني دعوت الله وأنقذني، ولا منة له عليّ. لم أخاصر بقولها، الإنسان الذي يأتي به الخوف، يذهب به الأمان، ويتنكر له العقل.

لم أفه بكلمة، أعذتني الرعية، لم يكن مجرد شخص جالس مواجهتي بسكينة مخادعة، كان الشخص نفسه المثلث الذي ذبح بسيفه العميل الأمريكي أمام الكاميرا. تلك اللحظات التي مثلت الحدود القصوى غير المتوقعة للنسوة وبأشع تجلياتها.

كانوا خمسة ملثمين وقفوا خلف الأمريكي الجالس على الأرض، برندي ثيابا برتقالية، قال إن اسمه نيك بيرغ، وأباه هو مايكل، وأمه سوزان وأخاه ديفيد وأخته ساره وأنه مقيم في فيلادلفيا.

تلا أحد الملثمين بياناً، ثم صرخوا معاً: الله أكبر. دفع أحدهم بيرغ إلى الأرض، بينما انحنى عليه الآخر وقصل رأسه عن جسده.

الأخر كان الزرقاوي، رفع قبضته القويتمين المشدودتين، هاتين اللتين أماسي الآن... الأولى بالرأس عالياً والثانية بالسيف يقطر دماً.

كان الزرقاوي في هذه اللحظة، حقيقة لا تقل عن بركان دمار قد

بنفت حممه في أية لحظة، ولم أعش أن يصيبي !! ما كنت أعشاه، أنه لم يعد بإمكانني أن أضع الله في حسابي ولا في صفي. ومع هذا رفضت تلك المقايضة، لن أدع إنقاذي يكلفني ابني. قلت له بصوت منخفض:

«لم تكن مجرماً، حياتي لا تهمني».

جلب واحد من المسلحين إبريقاً من الشاي، وضعه أمامنا. أشار له الزرقاوي بالانصراف، فخرج. بقينا وحدنا. ظننت أنه يريد أن يلغني عبراً سيئاً. فبادرته:

«هل سامر مصاب؟».

«إنه في أحسن حال. أبلغوه أنك بخير. ستراه غداً، وتطمئن إليه، وتقضي أياماً بضيقه».

أراد أن يفهمي بأن سامر لم يكن على قائمة الانتحاريين، وإنما مسؤول في القاعدة. أحسست بالارتياح، ما زال في الوقت متسع.

ومثلما انفردت أسابري انفردت أسابريه، صب كأساً من الشاي وقلعه إلي. وقال:

«ندعوه عبد الله، هو الذي اختاره. وبما أننا كلنا عبدة الله، أضاف إخواننا إليه لقب السوري، فأصبح عبد الله السوري».

شكرته على إنقاذي، لكنه لم يعبأ بما قلته، وكأنه ليس هو الذي أمر بذلك:

«عسانا أحسن العمل».

قلت له، كان يوسعكم معاقبة الخاطئين، وليس قتلهم. لكنه اتهم مستهيناً بما قلته:

«لقد نالوا جزاءهم».

«الله وحده الذي يحيي ويميت، ولا يحق لمخلوق الحكم بالسوت على أحد».

أردت منذ البداية الإعلان عن موقفني تجاهه، فلا يظن أنني أوافقه على مسلكه، تحت أي مسوغ، ولو كان من أجلي. قال بصوت حازم:

«الشرعة كلها، مصالح تُجلب أو مفسد تُدرأ، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة».

«درء المفسدة لا يأتي بالقتل وحده».

بما وكأنه يشاور نفسه في ما ينبغي أن يكون عليه رده. كنت متنبهاً، لم يكن من الرجال الذين يتحيرون بأمرهم، ومع هذا لم أشأ عداغ نفسي، فتناخ التروفي الذي ظهر على ملامحه وفي سلوكه الغفوي، لم يحجب عني أعماله الوحشية.

«بل بالقتل، لا بغيره، نحن في حرب».

كان يجب أن أوقفه عند حده، وأتكلم عن هذه الحرب التي يخوضها على طريقته:

«لا ينبغي المبالغة في القتل، الذبح عملية شائعة، لا يجوز التحرف فيها».

«أعطني دبابات وطائرات كي لا أذبحهم».

«إذ وجدني جفلت، تابع».

«ما يحق بهم اليوم لا شيء، إزاء ما ذقناه من ذل وهوان. طوال عشرات السنين وهم يرتكبون المجازر ضدنا في فلسطين، والشيشان وكشمير. ألم تر ما يفعلونه في العراق».

«كان من الغباء مناقشته، ما الذي فعله لتابلهم البشرية في دفع غارة جوية واحدة توقع العشرات والمئات، وربما الآلاف من القتلى الأبرياء؟ قلت له:

«لا تحتلوا البشر فوق طاقتهم».

«هذا امتحان لنا جميعاً».

«الأمير كان استدرككم إلى العراق كي يفضوا عليكم».

«هل نحن الذين استدركناهم، ونحن الذين نستزفهم. إنها حرب عالمية، حرب اتفلمت ولن تتوقف، سعوا إليها ونحن أردناها، فرصة رهانية، أن نخوض معركة مع الشيطان الأكبر. معركة بقدر ما تقدم تضحيات وأضحيات نفوز بها».

«نفرتي الثقة التي يتكلم بها، وكأنه قادم من عالم آخر، عالم من فروسية وشجاعة وتضحيات!!

لم يكن السيف مواجهة السيف ولا البندقية، بل مواجهة الصواريخ العابرة للقارات والقنابل النووية واليورج الضخمة والطائرات الجارة.

«حرب من الصعب أن تفوزوا بها».

«نحن أهل الإيمان، توكلنا على الله».

«إذ رأني مدعوشاً تابع قاتلاً»:

«استهزمهم في العراق، تغلب بعدها لتحرير سورية والأردن ومصر من الطغاة، ثم نطلق إلى القدس فاتحين بإذن الله».

نظرت إليه، أحسست أنه لم يكتف بما قاله، ثمة المزيد، وقد برعجني، قلت له:

«لا تكلم!».

امتنع عن الجواب، لم يشأ أن يصطدم بي، كنت ضيفه وكان مضيفي ومفذي. في الواقع لم أكن سوى أسير. لكنه امتنع بكل هدوء عن إظهار غضبه. متانة أعصابه لفت انتباهي أكثر من عضلاته البارزة. ولم أتأجأ عندما غير اتجاهه نحوي، كان قد عزم على مواجهتي، وقال بملظة:

«وفر على نفسك مقابلة عبد الله».

«لو علمت مقدار ما تحملت من مشاق، وعانيت من كرب وعوف، وأشياء فوق طاقتي، لما طلبت مني هذا الطلب».

«لا أمتك عنه، هنا مطلبه».

«لقد اضطررت إلى القبول بكل ما رفضته في حياتي، جواز سفر مزور، والتعامل مع المخدرات بأنواعها، والأميركان الأجانب، والبعضين المطلوبين. صدقني، لو أتيح لي التعامل مع الأبالسة لما ترددت، لن أعود دون أراه».

«ما الذي تريد منه؟».

«إفخاخه بالعودة معي».

«لقد هجركم».

«لا تكلمني على هذا النحو. افهم أنا أب».

«أنا أب أيضاً، لدي أربعة أولاد».

«أنت لا تراهم، لديك قضية أمتك عنهم. أنا لست لدي قضية».

«لديك قضية عسرتها».

لم أرد الدخول معه في مساحكة لن تنتهي على غير. كنا على طرفي نقيض. كان يعرف عني أكثر مما توقعت، وكان عليه أن يدرك أنني أعرف عنه شيئاً بالمقابل.

«ألم تتمرّن أملك لو أنك تعود عن هذا الطريق؟ ألم ترغب في رؤيتك قبل موتها؟».

«رغبت وأنا رغبت، الطاغوت حال بيتاء.

«لكنك عدت إلى عمان متخلياً، وقرأت الفاتحة على قبرها».

لا بد أنني فسوت عليه، لكن كان يجب أن يعرف، أنه حتى هو،
غير محضن من عاطفة البوة ولا الأبو».

«سألتها بالجنة في الدار الآخرة».

«الآباء والأمهات لا ينظرون إلى الأمور بهذا المنظار».

«أندري أنك تعرف عني الكثير، غير أن ما أعرفه عنك بطالك دون
رحمة، لكن عبد الله يشفع لك، ثم إنك بحمايتاء».

«إنا أردت التراجع فلا بأس، كنت ذاهباً إلى الموت».

«لقد أبحرناك، ولا أندم على ذلك».

«أحرمت دون عنا، أن ليس لي خصم سواه، وأن معركتي كانت
معه وحده».

«لا تسلبني ابني ولا تفاسمني عليه، ليس لدي شاب غيره، لن
أعطي لك، لديك رجال كثيرون».

«أمره ليس بيدي».

«إنه مفتون بك».

«هل مفتون برب العباد».

من يكون خصمي؟ إذا كان الله!! فأبي إليه!! المتسامح، أم
الجبار!!

وفي محنتي دعوت الله، فاستجاب لي.

«رأفة بابك، لا شفقة عليك».

تابعا شرب الشاي بصمت، كنت متأكداً أن لديه ما يقوله،
ويخفيه عني، ولن أنجح في استرجاعه. كان بلا ملامح في العنقة
التي بدأت بالتأكل. لم يغب عني أنه قد ينقلب ضدي، لكنه كان
متحكماً بنفسه مثلما كان متحكماً في كل كلمة قالها. ولن أنظر
منه بشيء.

فجأة عرج عن صمته، وقال بعنف:

«عد من حيث أتيت، ابنك لن يدعنا ليذهب معك».

كان قد قال لي ما حافظ قوله. لم أتجاهل ما سمعته منه، وخطر
لي أن اشكو له شيئاً مما دار في ذهني قبل يومين، ولو كنت
سأصطدم به:

«وأنا في بغداد، خطر لي سؤال، لماذا كل هذا القتل وهذه
الفسوة، إلى متى؟ ألا تشعر أنه أن الوقت لتسأل نفسك هذا
السؤال؟».

«لن يحين هذا الوقت، لكن أعلم أن فسوتي لم تكن أكثر من
فسوتهم. أما القتل، فنحن نقتل بالأحاد وهم يقتلون بالمتنات،
قدرني تقصر عن مجاراتهم».

وربما لأعفف ما نشأ بيتنا من توتر، عاطبت فيه ذلك الجانب
المجهول والسري من شخصيته، الذي لا يعرفه إلا القلة:

«قرأت عنك بأنك تحب أن تلعب بالغريب».

رفع رأسه ورفقت عيناه:

«أنا هو الغريب».

«مع أنك في قلب العالم والأضواء مسلطة عليك على الرغم من
تواريتك».

«عشت غريباً وسأبوء غريباً. لم أؤمن شيئاً قدر الانقطاع إلى
الآخرة. رجوت الله أن أرحل عن هذه الدنيا بلا اسم، أن تقضي
عليّ قبلة، ولا يبقى مني شيء. أن يتلاشى هذا اللحم والعظم في
ملكوته أسوة بالذين يتفجرون، وتصعد هذه الروح إلى بارئها. لكن
الأمر لله وحده، إنها مشيئة».

«ألا تخاف من شيء؟».

«لا أخاف من أحد على وجه الأرض، وإذا كنت أخاف فمن
عذاب نار جهنم، عذابها لا يهمني شيء. أنا ملاحق في كل عمل
أقوم به، وكل خطوة أعطيها، الكثيرون يريدون تسليحي إلى
الأمير كان، لكنهم لن ينالوني حياً. إيماني أن الأعمار بيد الله،
ولدي يقين بأن رحلة الأنفاس قاربت على النفاذ، سأقبل قريباً».

نظرت إليه غير مصدق، كان يتبأ بموته الغريب!! انبسم وتابع
قائلاً:

«البارحة اجتمعت بابتك عبد الله، قلت له إنني حلمت حلماً، رأيت نفسي أركب الأمواج المتلاطمة، والأنواء تعصف بي، كنت وحدي أشق البحر، والليل يهرق ويرعد، لم أكن خائر القوى، بل بكامل عزيمتي، إلى أن لمحت نوراً من بعيد، اقتربت منه، أو أنه اقترب مني. قبل أن يبلغني سأكنه، إلى أين؟ فسعته يقول، إلى منزل الصميم. سألت عبد الله، ما تفسيره؟ قال لي، الحلم الرباني لا تأويل له، سترحل إلى منزل التور والسعادة، فاستعد، والله طمّح بي السرور واستبشرت، الشهادة موعدي القريب».

«لماذا تقول لي هذا؟».

«حتى في حال موتي، لن يتفرقوا من بعدي».

بعد صمت طويل، صب الشاي ثانية، ونظر بعيداً إلى خارج الكهف، حيث الظلام، لا أشباح ولا عيالات. ظلام أسود تماماً، حيث غاب بصره هناك. اتسقت ملامحه، بدا وكأنه طفل يلهو بالموت والغيب معاً، فلم أجد بأساً في مناشدته ثانية.

«أبني صبر السن لا تطلب منه ما لا قدرة له عليه».

لرّد بصره نحوي.

«أنت تجهله».

«هل نظني جئت كي أتعرف إليه؟».

«وفر على نفسك أمراً لا جدوى منه».

شربنا الشاي من دون كلمة، أشحنا بوجهينا عن مصباح الكاز،
وأضنا النظر في الظلام. ولقد ترايت لي أشياء وأشياء، لا يحكمني
الفصل فيها. وكان إلى حوالي تراهي له أشياء وأشياء خشيت أن
تقاطع معي.

قال وهو ينهض من مكانه:

«هيك أشد غربة عنى».

قبل أن يخرج التفت نحوي قائلاً:

«ولد الإسلام غرباً وسعود غرباً فطوبى للغرباء».

وغاب في تمرجات الظلام، نظرت حوالي، كان النور قد بدأ
يشع.

دخل أبو الحارث وقال لي، سبات الليلة هنا، وفي الغد ستابع
طريقنا للفاء أسر المنطقة: عبد الله السوري.

طوال الطريق لم يبارح المزرقاوي ذهني، كان وانفأ من إخفاقي، نصحتني بالعودة، ولم يمنحني عن ابني. سامر ليس أحد تابعه أو أعوانه المقربين فقط، كانت مكانته كبيرة، وكما عمت، ليس في دولة العراق الإسلامية المرتقبة، أو تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين. بما ما قيل لي في دمشق صحيحاً، أن له دوراً مستقبلياً كبيراً في التأسيس لعمل القاعدة في بلاد الشام. معركة المقبلة وإن بدت مع سامر، لكنها في الصميم معركة شاقّة مع المزرقاوي، هنا المرءل يحتجز ابني، ويجتذبه بالإنكاره وأسلوب تدينه وأعماله الدعوية. كان دون ريب المثال الذي يرغب سامر في الاقتفاء به.

اضطررنا لدى ظهور الطائرات الحربية الأميركية في السماء إلى التوقف عدة مرات في الطريق، كانت تحلق على علو مرتفع، فيما طائرات الهليكوبتر على علو منخفض، ترصد حقول الذرة والخضار والأشجار، ويساتين النخيل الخضراء والطرق

المكشوفة والأراضي الواقعة على أطرافها، كل شيء تحت سيطرتها. اختبأنا بين أعود القصب، أحياناً كان انتظارنا يطول نحو ساعة وأكثر، وأحياناً أخرى نلتجئ إلى البيوت التي نصادفها، ليستقبلنا الأهالي بخوف وعلى مضض.

تفادى أبو الحارث خلال رحلتنا، الطرق الرئيسة واعتمد المسالك الجانبية، سواء عندما نصادف وثلاً عسكرياً أميركياً، أو يتوقع حاجزاً معادياً. لم أسأله عن القرى التي كنا نمر بها، كما لم يعلمني عن الأماكن التي ستفصدها، وإذا سأله يعتمد ألا يجيبني، لم أكن مستنى من الاحتياطات الأمنية.

وصلنا إلى مقر سامر بعد غياب الشمس، استقبلنا شاب جزائري يدعى أبو صالح في الخامسة والعشرين من عمره، لم تفارق وجهه الانبساط، عندما تكلم بلهجة الجزائرية البسيطة والفرقة لمعت منه الفحبة. كان مكلفاً بتأمين حاجياتي، ذهبنا معه، كانوا قد أفردوا غرفة خصصت لي، متصلة ببيت يقع إلى جوار ساقية، مجهزة للمجاهدين الضيوف. بعد أن اطمان إلى أنني لن أحتاج شيئاً أبلغني بأنني لن أتمكن الآن من رؤية أمير الموقع عبد الله السوري، قبل وصولي بنصف ساعة غادر القرية على عجل بعد أن أوصاه بي. اعتذر أبو صالح عن تناول العشاء معي، لم يتركني إلا بعد أن سكب لي بيده الطعام في صحنني، كان لديه عمل سينجزه ليلاً قبل أن يغادر صباحاً.

بقيت مع أبي الحارث، سأله، أين نحن؟ قال لي، سنحرف فيما بعد.

ما زالت الاحتياطات الأمنية تشلني. وأبلغني أنه لن يراني غداً،

لقد كلفوا رجلاً آخر بمراقبتي. شكرته على عنايته بي، وإحصالي إلى ابني معززاً مكرماً، قلقتها ضاحكاً. فقال متعجباً، هل عبد الله ابنك؟ فأومأت بالإيجاب. وكفي أزيد من تعجبه قلت له، لبتك ترافقنا في طريق الرجعة، كما رافقتني إلى هنا. بنا على وجه الاستغراب، لم يفهم ما أقصده، فقلت له، جئت إلى العراق كي أعود بابني إلى سورية.

أطرق برأسه، وعندما رفضه، كانت عيناه قد خفت برهقهما:

«لبتك لم تأت».

وإذ لاحظ الفلق على ملامحي، هؤن علي:

«وهل يملك نفسه؟».

كنت قد عييته، غرّ أني اتحاري سأضي بالقليل مما تبقى من حياتي، فإذا بي أزيد إقناع ابني بالنكول عن عهدته، ومن يكون ابني؟! ليس أي شخص، وإنما أمير الموقع!! فرّدت عليّ بعودة لن تحلق.

سأته كي أغرّ الحديث عن عمره. قال إنه بلغ الخامسة والثلاثين قبل أيام. قلت له، يبدو عليك وكأنك تجاوزت الخمسين سنوات. قال، لقد منّ الله عليّ بأكثر من حياة.

خلافاً لما توقعته، أبدى الرجل الصموت خلال تناولنا العشاء وغبته في الكلام. اتحلّت عقدة لسانه، وبقيت تجاعيد وجهه الغائرة مطفودة.

ترك الدراسة ولما بلغ العشرين من عمره، سافر إلى أفغانستان، وتكرب في معسكرات المنتطوعين العرب، قاتل قوات الاحتلال السوفياتي، وحضر أغلب العمليات الكبرى، من فتح جلال أباد وخوست إلى كابل. بعد سقوط النظام الشيوعي، حصلت الفتنة والقتال الداخلي بين المجاهدين، لم يأخذ جانب أحد، اعتزلها مع الكثيرين من رفاق الجهاد. شجعتهم الانتصارات التي حققتها في أفغانستان على ملاحقة الروس الملاحقة في طاجيكستان، كان القتال دائراً بين المجاهدين المسلمين الطاجيك وقوات الحكومة، فأضروا نحو سنتين يقاتلون في أصعب الظروف، أغلب المعارك التي عايشها كانت ساحاتها الجبال الوعرة المجلجلة بالثلوج، وصمدوا رغم النقص الفادح بالسلاح والذخائر. انتهت الحرب بعد اتفاق بين المجاهدين والحكومة، فعاد إلى أفغانستان.

لم يبق طويلاً، اكتسحت أعين الشيشان العالم، الجيش الروسي يمارس الفظائع ضد المسلمين العزل، ففكر بالذهاب إلى هناك.

«كأننا نخصنا بقتال الروس».

ما شجعه فعلاً هو القائد العربي عطاء، الملقب بأمد الشيشان، وكان قد التقى به قبل سنوات في معسكرات التشريب في أفغانستان، بالإضافة إلى ما أثارته فيه الفنون الغنائية والمواقع الجهادية من حمية، وكانت تنقل صوراً لرجال المقاومة الشيشانية يلحاهم الكثيفة في كهف يصطلون حول النار، وقد لفوا رؤوسهم بمصاهات سوداء مكتوب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي الغابات يحضنون أسلحتهم ويهتفون الله أكبر... كانت أكثر من نداء للجهاد، فلم يتوان عن تعقب أثر عطاء أمد الشيشان.

وأخذنا على عاتقنا نصرة إخواننا المسلمين المستضعفين، والدفاع عنهم في مشارق الأرض ومغاربها.

التحق به وحارب تحت قيادته، في القرى والجبال والغابات، رغم قسوة الشتاء الباردة التي بلغت درجة حرارتها ما تحت الصفر. شارك معه في عملية كمين اشانوي، وكان إلى جانبه في الهجوم على غروزني. ولم يتأخر عن أية عملية عسكرية دعي إليها. وكان الخيال القائد عظام مسموماً ومواراته في التراب جنوب الشيشان، فقداناً لرفيق الجهاد والإيمان والسلاح، وإيماناً بالرحيل.

توجه بنظرة نحو بلاده، كان الأمير كان قد توغّلوا في الحجاز، فقرر العودة. رجع إليها مسلّماً، كانت السلطات قد اعتقلت رفاقاً له سبقوه. اتصل بأصدقاء قديما، وتدارسوا من جديد فكرة الجهاد، وخططوا لمهاجمة المنشآت الأميركية في الداخل. ورغم أنه انكشف بعد فترة قصيرة وبدأت قوات الأمن بملاحقته، لم يرحل. كان معرضاً للاعتقال والسوت في أية لحظة، فعزم على ملاقاته ربه طاهراً متنعماً واجباته الدينية. عرج على مكة المكرمة حاجاً، حجة الوداع، ناشد الله أن يرزقه الشهادة.

أثناء طوافه حول الكعبة الشريفة، صادف شيخه وأستاذه، أخذه معه إلى بيته، وسأله، ماذا تنوي فعله. رد عليه، الجهاد. قال له، أنتم دينك إذن. زوجه ابنته، ثم أبلغه بنسب ابن لادن بالتوجه للجهاد في العراق. سأله، وماذا عن الأمير كان، أليس الأولى طردهم من بلادنا، أم ندعهم يرتعون فيها، ويدنسون الأرض التي باركها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟ أجابه، امتناع فقال العدو الغريب، لا يحذر من مقاتلة العدو البعيد.

ودّع زوجته الحامل، وسافر عن طريق الأردن. في سورية قبل الدخول إلى العراق، سجل نفسه مقاتلاً، وتبرع بكل ما بحمله للمجاهدين.

وكانت رحلتي الأخيرة، لم أتوقع أن حياتي ستطول أكثر من أيام، لكنها امتدت وقاربت الستين.

بعد أسير على دخوله العراق، التحق بالمقاتلين العرب في الفلوجة وخاض معهم معركة الثانية. حرب لا تختلف كثيراً عما صادفني في أفغانستان وطاجيكستان والشيخان. الحرب ضد الأميركيين لم تنقل عن الحرب مع الروس، بل زادت، الأميركيين مدججون بأحدث الأسلحة، لا يتقدمون خطوة إلا بعد قصف كثيف، يدعون البيوت التي تحصن فيها المقاتلون، تحت زعم أنها عالية من المدنيين، بينما أغلب الضحايا منهم، يرزحون السكان وينقلونهم إلى الهرب، ثم يقتلونهم. أحياء بكاملها هدمت، وشوارع سميت منازلها بالأرض، وحولتها الجرافات إلى ساحات مستوية، المساجد والمدارس أصبحت إصابات مباشرة، القنابل لم توفر منزلاً في الأحياء المستهدفة. ومع هذا كان المقاتلون يخرجون من ملاجئهم، ويتصيدون الدبابات والمدفعات، ويهاجمونهم بأسلحتهم الخفيفة، الرشاشات والقاذفات يدوية.

الفلوجة مدينة المأذن، مدينة تحترق، ألسنة النار والدخان تتعالى، القصف لا يتوقف، الشوارع تحولت إلى قبور مكشوفة، والجرمي يتسلون لإنقاذهم من دون جدوى، لا أحد قادر على إسعافهم، الجث متآثرة تنهش أشلامها الكلاب.

ساعات وقف النار القليلة عصمت لإخلاء الشهداء من تحت

الأنقاض، كما نلتهم بالعشرات.

عَلَّفَ صمودهم الدمار وآلاف القتلى والجرحى والمهجرين. أما الدمار الأكبر، فهو أنهم أصبحوا محط كراهية الأهالي الفارين منها والمحاصرين فيها، أولئك الذين استقبلوهم، واعتبروهم ضيوفهم، باتوا يلقبونهم بالأغرب والأجانب وسارقي السيارات!! لم تعد لديه أدنى رغبة بالموت فوق أرض بات حتى أهلها لا يجدون لهم مأوى فيها سوى العراء. عزيمته أصابها الوهن. فقرر مغادرة القلوجة، ربما نهياً له طريق آخر.

عندما لم يبق أمامه سوى عبور النهر، رأى امرأة ومعها ابنتها، تجلسان بحوار ركام من الحجارة، تكيهان وهما تقرأن القرآن. كان الركام بيتاً سقط عليه صاروخ أميركي، فأدرك أن شخصاً عزيزاً عليهما مدفون تحته. فرق قلبه عليهما. اقترب من المرأة، وسألها عما إذا كان الميت هو زوج أو أخ، ردت بالإشارة إلى الطرف البعيد من البلدة حيث المقابر: قبر زوجي وأبي هناك. قال، هل لك أحد هنا؟ مسحت دموعها وقالت، أقام في هذا البيت ثلاثة مجاهدين عرب صفار في السن، دفنوا تحته بلا شاهقة، لم نعرف أسمائهم ولا بلدانهم، جاؤوا بلدانهم عن الإسلام وأعرض النساء فاستشهدوا. يا حسرتي عليهم، ترى ما حال أمهاتهم؟ ألا تؤنس وحشتهم بقراءة القرآن على أرواحهم؟

«كأنت عندما يهدأ النصف، تأتي وتقرأ لهم ما يسمح لها به الوقت من القرآن».

فعاد أدراسه، ما دام هناك امرأة في العراق قد تقرأ يوماً على روحه الفاتحة، فنعم الشهادة، واستعاد نزلاً مبيتاً حتى الرمق الأخير،

وكاد أن يلاقي حتفه لولا نجاته من انفجار طوح به إلى حائط سقط فوقه، فغاب عن وعيه. عندما استيقظ وجد نفسه ممدداً على عتبة منزل، وإلى جواره جثة رجل، يده ممسكة به، كان الرجل المسجي بلا حراك إلى جواره، قد سحبه من بين الأتقاض، وحاول إخلائه إلى الطرف الآخر، فأصابته قذيفة قتله. الله أرسل له رجلاً مات من أجله ليعيش، هنا بلاغ مبين. لم تعد لديه عشية من العتية لم تحن بعد. نهض وركض مخترقاً الغبار والأتربة وشظايا المعادن والحجر، واصل الجري عبر الشوارع تحت نيران القناصة الأسمر كان، دون أن يصاب برصاصة أو شظية، واستعاد موقفه بين المجاهدين، وبقي يقاتل إلى أن خرج معهم من الفلوجة.

لم يتأجل موته إلا لكي يقاتل الزرقاوي، وينضم إلى القاعدة.

وفقدت عظام في الشيشان فموضي الله بأي مصعب في العراق. هنا ما شاءه الله له.

وشاء له أمراً آخر، جند عهده مع الله، ليس على القتال وإنما على الشهادة. فوضعه الزرقاوي على قائمة الاستشهاديين على أن يقوم بالعملية في أقرب فرصة.

لكن تأخرت، الزرقاوي استمهله، كان قد وثق به وحوله إلى المهمات الخاصة، وأعدت بكلفه بالمهمة تلو الأخرى. لكنه لم يستجب للكثير من الأمان والقليل من الخطر. ما زال مصراً على عهده. لا رجاء إلا بالشهادة، ولا أسل بلوح، إذا لم يضح عو وغيره بالحياة نفسها، وجزأهم عند الله.

لا، ليس البأس، بل الحياة، الحياة التي هي جهاد، الله جعل الإنسان خليفة على الأرض، ألسنا نحن الحافظين لها والأمناء عليها؟ ما جعله يزداد إصراراً على الشهادة.

«كان لا مفر من القضاء على عصومتنا مهما كانت صفتهم أو أديانهم».

«وزداد إصراراً أيضاً على الفهم».

«لماذا تقودنا الحرب من عنف إلى عنف أشد؟ كنا نقتل كل من يتعاون مع الاحتلال، وأصبحنا لا نوفر الساكنة على المحتلين، بات كل من ليس معنا ضدنا!!!».

شجعته ووالد زوجته أرسل له رسالة، ليس فيها سوى هذا الحديث: قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، من أذى مؤمناً فلا جهاد له.

«هل كنت على صواب، لم أني عصيت الله؟».

البارحة كانت مهمته ما قبل الأخيرة، حسب اتفاقه مع أبي مصعب.

«فتلث عاطفتك الثلاثة. حتى ولو كانوا مجرمين، فأنا لا أبرئ ذمتي منهم، وحسابي عند الله تعالى. حان وقت مهمتي الأخيرة، طلبت من أبي مصعب أن يستمهلني فأذن لي، بتت أوري على أن استخير الله، لم يسألني على ماذا، وأنا لم أقل له».

في الحقيقة، لم تكن استشارة بقدر ما كان حاجباً أعانه، كيف

بعد كل هذا الإقدام، بصيحه التردد؟! عشي من التراجع عن بيعة
استشهاده! ثمة سؤال وربما أكثر، فكان لا بد من الخلوة.

اليوم، بعد أن أوصيتي سالمًا، أصبح حرًا. غداً باكرًا... سباري
إلى مكان لا يشغله شاغل عن الله.

هأن ستجد خلوة تعتزل بها البشر وتتفرغ لله، في قلب هذا
الهبول؟!.

لا تسلي، لقد وجدتها.

ثم عانقتني وودعني.

إذا كنت لم أنتبه إلى مراده، فلأن ما قاله لي قلب ما في ذهني
إلى نقيضه، وانصرف لوجهة أخرى! كان يطلب الشهادة، فلذا به
يطلب الخلوة والعزلة... ما أشق الأُسطة!!

جافاتي النوم مع أنني كنت متعباً، غير أن النعاس دهمني، لم يكن نومي عميقاً، شردت في كاهوس تقطعت أوصاله بين المنطقة الخضراء وشوارع بغداد وقناديلها، ومناطق أجهل أين تقع سوى أنها في الثلث السني. ميلر وجوناثان علي بعدة نبي يتهددهما الموت بحياة ناسفة، أو على مقربة مني يتهددهما نصل الخنجر. كانت محنتي، لا محنتهم، ليس بوسعي إنقاذهم، وليس بوسعهم إلا الموت. يتبدل موقعي نارة إلى شاهد ونارة أخرى إلى مراقب، لا أتجرأ على الدفاع عنهم. أتنقل من مشهد يركعون فيه، إلى مشهد تُجرأ أعناقهم وتسيل دماؤهم، موقعي المتردد والجهان يكرر نفسه. حاولت الهرب، كانوا لي بالمرصاد، أركعوني إلى جوارهم وسط بحر من الدماء، خطر لي أن دمائي ستختلط بدماهم. والخنجر على وشك أن يقطع رقبتي، علق الشهيد في صفوي، سحبتني في هذه اللحظة من الاختناق والكاهوس معاً، دعول سامر.

لم يسبحني، كان معي في مكان ما داخل عالم الدماء والخناجر، يراني دون أن أراه، لم يدعني أكابد ما يشبه الموت. فكان ظهوره حلاًماً. انحنى عليّ، واحتضنتي، لاس وجهه وجهي، ثم أمسك يدي وقبّلها، اطمأنّ نفسي بين فراجه. أتهدد، الكابوس يتلاشى، والحلم ساري المفعول، خشيت عندما ابتعد عني قليلاً أن يذهب بنهايه، نظرت إليه أناشده البقاء غير أن سار خرج من الحلم، وجرني معه إلى الواقع.

سار بفاتمة المشوطة ووجهه الجميل، لحيته طالت، ملامحه لوّحها الشمس، نظراته حانية، وجبته خالطه سواد. شدته نحوي وعانفته، فبكي وبكيت معه، سمعت صوته يتردد في أذني:

والحمد لله الذي أكرمني بك سائماً.

لم أقل له بأنه أكرمني أكثر منه، لئلا تخيبه التوقعات والنتائج، فيظن أنني أعترف لله بتدبير هذا اللقاء، وليس المصادفات الغامضة لهاها. لا سجل لهذا الكلام ولا لغهرو، قررت نفاذي تسجيل معجزة سيّدعي أن الله ورايها، ولا يلقى بالاً لتصميمي على الوصول إليه.

أعدت النظر إليه، سحته شاحبة، عيناه أصبحتا أكثر نفاذاً، تقاطع وجهه حادة، تغيرات لم أرتج لها، بنا لي قوياً على نحو لم ألقه من قبل. كان ابني، رغم كل هذه المظاهر الخشنة، ولدي الطيب والضعيف... والضال.

ما أغرب ما نحن فيه الهداية هي الضلال!!

أعبار سورية لم نهمه. طمأنته إلى أمه التي تحجبت حسب وصيته، وأخته التي ستحجب، إن لم تكن قد تحجبت أثناء غيابي. لم أخف عليه عدم ارتياحي لهذه التحولات، وإن كانت أنه مستعدة لها، لكن صعب عليها حالياً ألا تصافح الرجال بسبب وضعها الاجتماعي، غير أنها ستفعل أي شيء مساهرة له. ثم ابتسمت ومازحته:

«لما أنا فلن أسأبرك، لن أقدم على شيء تحت ضغط هذه الظروف».

تابعت وصارحته بظروف مجيبي، وما لاقيته طوال ساعات احتطائي التي أمضيتها بالأسوأ وفانطاً. أعلنت بها عن قصد، كي يدرك أن كل ما عانيت، لم يردعني عما كنت أسعى إليه، وكي يدرك أيضاً أن لا شيء سيجول يتنا بعد اليوم، لن أعود من دوني.

لم يعلق، لكنه عندما تكلم كان صوته منخفضاً ومتعجباً في لفظ كلماته، متجنباً إعطاء أهمية كبيرة لما سمعه. لقد رأى صورتي في قناة الجزيرة بعد احتطائي، اتصل بمصاحبات الخطف من دون فائدة، إلى أن عرف بأن منظمة جديدة تدعى «سرايا الانتقام» ستشتريني، فاكشف هوية الخاطفين وطالبيهم بتسليمي، حسب اتفاق كان معمولاً به، لا يحق لأي جماعة اختطاف أي شخص على صلة بهم، وإلا أعلنوا الحرب عليهم، فأنكروا وجودي لديهم، فلا يخسروا عشرة آلاف دولار.

«فماضطرتنا إلى قتلهم».

قالها ببساطة شديدة، وكأنه حسم خلافاً ثانياً لا يستحق التوقف

عنده. لكنني لم أشأ أن يمر:

«الضيقُ يومين تحت التعذيب، وكرهت أحدهم إلى حد أنني تمنيت موته، لا أن أقتله. لئلا لم تستهمل هذا الفعل، كان عليك التفكير بحلٍّ آخر».

«لقد عرقتوا عهدهم معنا».

«قالها كأمر متبر. لكن ملامح وجهي نبتت إلى استنكاري لفظه».

«أبي، هل أنت راضٍ عني؟».

«لا أدري فيما إذا كان راضي أو عديم يهمني».

«رضاك يهمني».

«هل يهمنيك عما أكرهك أن تمتنع عنه؟».

«إذا كان لا يتعارض مع ما يريد الله».

«معنا لو كنا نعرف ما يريد الله».

«أنت لا تعرف، أما أنا فأعرف، أدري أنك غير مؤمن. أستغرب لماذا كنت تصلي طوال طريقك إليها؟! إيمانك مشكوك فيه».

«كأنت على إجابتي تتوقف بعض الأمور، وربما علاقتي معه، لكنني لم أشأ أن أحده».

«لقد راعيت مشاعر من كنت برافقتي، وهؤلاء الذين حلت عليهم

ضيفاً، لم يخل عليّ واحد منهم بالمساعدة، فلماذا أؤذي مشاعرهم؟! لم أورد الظهور وكأني أجامر بعدم إيماني، بينما هنا لا يعني أحداً سواي، وليس من المهم أن يطلع عليه الآخرون. ما يجب أن نعرفه أنه ليست لدي مشكلة مع الدين ولا مع الله، إلا عندما يستغلّان لأي غرض، مهما كان هذا الغرض. تربطني مع الدين علاقة أنا لا أفهمها، ربما أتبح لي الوقت يوماً لأدركها، عندئذ لن أخفيها عنك.

الإيماني يمنحني ما أنت تقفر إليه.

«لا أتزعجك على الإيمان، هذا شأنك. وإنما على القتل، وأنت لا تجهل، أن الإسلام يحرمه وينهى عنه، لا تغل لي إن ما تفعلونه جهاد، إنه القتل، أكبر الكبائر عند الله، الجهاد شيء آخر...».

لم يدعي أتابع شرح معاني الجهاد في الإسلام، فاطمني:

«الجهاد، ليس طلب العلم، أو الدعوة للإسلام، ولا العمل الصالح، أو النهي عن المنكر فقط... الجهاد هو القتال في سبيل الله، لا شيء أوجب منه، ما دام بإمكاننا حمل السلاح، فهو فرض عين على كل مسلم إلى يوم القيامة، ولا يعقر تاركه، ومن يلق ربه دون أن تكون البندقية في يده سوف يلقاه أتماً. راية القتال ستبقى مرفوعة في أية بقعة إسلامية على وجه الأرض تدنس من الكفار أو يقتل فيها المسلمون. نحن مسؤولون عن كل دم يسفك وكل عرض يتهك، أو أي أرض تسلب».

«هذا جهاد أعني».

تراجع نحو الباب، ٥٧٦:

واسرح الليلة، سأراك غداً.

كان النزاع قد بدأ يتنا.

بين النوم والصحو، طرق سمي نداء: «الجنة، الجنة يا طالبها» تلاها سكوت، ثم علا الصوت «يا مجاهد وخذ الفايده، ذكروني بالمسحر في شهر رمضان. اشتد الصوت «قم يا مجاهد، اليوم يومك»، تكرر عدة مرات، اعتقدت أنه دعوة لصلاة الفجر، لكن ما زال ليل، الفجر لم يطلع بعد. أو أنه نداء يستحث أحد المجاهدين ليستيقظ من نومه، لا بد أنه صحا الآن، كي يستعد للانطلاق إلى عملياته الانتحارية. بعد قليل سمعت أذان الفجر، اعتقدت قبل أن أعط ثانية في النوم، أنني تخيلت سماع النداء الذي سبقه.

أيقظني بعد ساعات أبو معاذ، شاب سوري قادم من قرية تقع في ريف مدينة حلب، كان كثير الحركة دائم الأتسام، طيب القلب وأقرب إلى السفاجة، كان مكلفاً بمرافقتي، وتلبية طلباتي. فرسناها بأنني أصبحت مهتته. بعد قليل تبين أن لديه عاهرة، أصابع يده

البيتي متقبضة إلى كفه، كان أبو معاذ أكتع.

بدا هو الآخر متحفظاً تجاهي، غير مسموح له بالاسترسال في الحديث معي، لم يكن مكلفاً بمراقبتي فقط، وإنما بمراقبتي أيضاً، وإن قال لي إنه سيكون دليلي ويساعدني على التصرف، فيما لو ظهرت طائرة في الجوى، أو أليات أميركية في المنطقة، وكنت واثقاً أنني أنا الذي سأساعده على التصرف.

ذكرني صوت أبو معاذ بنداء الجهاد قبل الفجر، سألته هل كنت أنت؟

أطلق أبو معاذ نداءه وهو في طريقه إلى المجاهد، لكي يوقفه، لكن الاستشهادي كان صاحباً يقرأ سورة الفتح، بقي معه ثم وافقه بالسيارة إلى مشارف القرية، وتابعه حتى غاب عن عينه. لم أسأله المزيد.

سأمر لم يأت. ظننت أنه يتفاداني. سألته عنه، فقال لي إن جماعة من المجاهدين المتطوعين وصلوا البارحة في ساعة متأخرة من الليل، سهرروا إلى الصباح، صلّوا الفجر معاً، ودّعوا المجاهد، ثم ناموا واستيقظوا قبل قليل، وهم الآن معي في المضائق.

قضيت الوقت أتجول في أنحاء الموقع، الأكتع يسير على مقربة مني. البيوت المشاعدة لا توحي بشيء مختلف أو غير عادي، تبدو امتداداً للقرية المجاورة، وتشارك معها مساحة واسعة تصل بينهما، تضم مستوصفاً ومدرسة ومسجداً ودكاكين بعضها مطلق. كان الموقع الذي يحتله المجاهدون أشبه بمزرعة واسعة الأرجاء بلا أسوار تسيطر على مساحة كبيرة نسبياً، تتوزع داخلها بيوت

من حجر وبيوت من طين بعضها متلاصق، ثمة بناء من طابقيين
 بعد قليلاً، تحفّ به الأشجار والمزروعات المتنوعة من الخضار،
 وإلى الجوار مطحنة قديمة. في الخلف تمتد حقول الفرة وبساتين
 النخيل الكثيفة، ثم تلّ لا يزيد عن مرتفع من الصخور، بشكل
 كهوفه وتعرجاته وانحداراته مآري صالحاً للاجتهاد فيه.

جلست مع أبي معاذ على ضفة الجدول نطللنا سفن النخيل،
 الأراب تتسارع راكضة بحرمي أبصارنا وتختبئ بين أجمات
 الأعشاب، وصوت المضخة يأتيها من بعد.

عندما عرف أنني والد عبد الله السوري انفرجت أساريره وانطلق
 لسانه.

وصل الأكنع إلى السوق منذ ثلاثة أشهر، بعد أن باع دكانه
 الصغير في الضيعة ليوثن نفقات وصوله إلى العراق، عائلته
 تساعد زوجته وابنه الرضيع، لم يترك لهما سوى القليل، الله لا
 ينسى أحداً. بمجرد وصوله سجل نفسه في قائمة الاستشهاديين،
 وحتى الآن لم يُدع للقيام بعملية، وضعوه في الاحتياط، جاء بعده
 كثيرون، كلفوا بعمليات ونفذوها وهو ما يزال ينتظر دوره. كان
 متشوقاً للقيام بأية عملية، بعد أن تدرب عدة مرات على ارتداء
 الحزام الناسف وتفجيرها، لكنهم كما قالوا يلزمه المزيد من
 التدريب. الأوان لم يحلّ بعد. كان عاثفاً أن يموت بقصف
 عشوائي أو بشظية طائفة.

الواضح أنهم لم يطمئنونوا لحسن أدائه، ذكائه لا يجاري حماسه.
 باعتقده أن يده هي المانع، وإن كانت أحد دواعج جهاده، على
 الأقل يتخلص منها، كان ثوقه لتبل الشهادة هو الغالب. تهاهى بأنه

لم يؤذ أو يسرق، أو يؤذ أحداً طوال حياته. كان يحلم بلقاء وجه ربه طاهراً، كما ولدته أمه، دون أن يرتكب معصية.

تعجب من عدم سعيي إلى الشهادة؛ بعد أن سهّل لي الله الدخول إلى العراق، وأوصلني إلى من يزودني بما يلزم من معدات للجهاد.

«ما دام ابنك عبد الله هو المسؤول، فسوف يستثيك من الدور، كيف تتهاون؟!».

قلت له لن أركب طويلاً، جئت لأطعمن إليه. فاستغرب: كيف تعود، وقد أصبحت على مسافة كبة زر من الجنة التي وعد الله المؤمنين بها. ألم ينصحك ابنك بهذه النعمة، وهو الأقرب بالجنة وما فيها؟! يعرفها عن ظهر قلب، أكرمه الله بزيارتها في أحلامه، كأنه عاش فيها زمناً وجاء ليخبرنا عنها.

قطع حديثنا صبي جامعا واكفياً، حان موعد الغداء، قفلنا راجعين إلى المضافة، أُلقيت السلام وقعدت. المضافة واسعة، بأبوابها النور من شبابيكها الثمينة، مطلّة على أشجار يابسة أوراقها صفراء. الجميع جالسون فوق البسط الممدودة على الأرض، وأسندوا ظهورهم إلى الحائط، الهواء الساخن يهب موجة إثر موجة، والحر نشر سدومه الخانق. لم يكن الطعام قد حضر بعد، سامر وإلى جواره المتطوعون الخمسة الجدد، تونسي ومغربي وجزائري وسعوديان شقيقان، انضم إليهم بعد دخولي بقليل متطوع عراقي شاب في حوالي العشرين من عمره، وصل لتوه، نُقب بأي عبادته. أخذ رجل من رجال الموقع يسجل أرقام هواتفهم في بلدانهم لإبلاغ أهاليهم عن وصولهم إلى العراق، وفيما بعد عن وفاتهم، عبر عنها الرجل بالرفاعهم إلى الجنة. في حين أخذ ثلاثة صبية

يقومون على خدمتنا، ويجهزون الصحون لتناول الطعام. أبو عبادة الوحيد الذي لا رقم هاتف بحوزته، إذ لم يبق لديه أهل في بغداد.

الشاب التونسي أبو حذيفة كان أكثرهم تحمساً لوجوده في العراق، لم يخف فرجه، عرب من بلده قبل أن يقبضوا عليه، كان سحكهم عليه بحقوبة حيس لا تفل مثنها عن ثلاث سنوات، لا شباهم بعلافة شبكة تساعد على تفسير المجاهدين. فاضطر للاعتفاء عن الأنظار. أموره سيئة قبل شهرين إلى العراق واستشهد في معركة الرمادي.

لا يزيد عمر أبو حذيفة على ثلاثين سنة، يمتلك سيارة نقلات صغيرة، تازل عنها لأغية الأصغر المتزوج حديثاً، ليحل أسرتهما. أب ثلاث بنات وامرأته كانت حاملاً، تلقى بشري ولادة حذيفة قبل قدومه إلى العراق.

والله لم تكن فرحي بحذيفة إلا شداً لأزري على السوء.

أما الجزائري أبو الأيهم، فكان على خلاف مع سامر حول العملية الاستشهادية، جنسية فرنسية، ولد في باريس، لم يكمل تعليمه، عاد إلى الجزائر وانضم إلى المقاتلين، تلقى تدريبات على استخدام الأسلحة وصنع المتفجرات وحرب العصابات. قال إنه سيباع سامر على القتال.

حاول زملاؤه إقناعه بأن العمليات الاستشهادية تعطي نتائج أكبر، شخص واحد يحقق وحده عشرات الإصابات ما بين فتيل وجريح، عدا الذعر والهلع الذي تبثه في قلوب العملاء والكفار،

ولا يفيض على المجاهد أو يتعرض للتعذيب، بينما الاشتياك يكلف رجلاً أكثر، ولا يحقق إصابات مضمونة. الصغري والسوديان بايعا أمير الجماعة في بيروت على الشهادة، واشترط الشفيقان السوديان تنفيذ عملتهما في يوم واحد.

لم يتدخل سامر في الحديث كثيراً، كان يراقب عن كثب. عندما أصبح الطعام جاهزاً، قطع حديثهم، ربت على كتف الجزائري أبو الأيهم قائلاً:

والخيرة فيما اختاره الله.

وبدأنا بتناول الطعام. ومثلما لم يشارك أبو عباده بالحديث لم يشارك بالطعام، ادعى بأنه أكل خلال طريقته إلينا، وبقي مطرفاً رأسه لأسفل.

قبل أن ننتهي من تناول الطعام، دخل شاب مسلح هرع نحو
سار، انحنى عليه وهمس في أذنه، فاشرب برأسه وبشرنا:

«الحمد لله، كان يوماً مباركاً».

تبلغ للثو أعباراً عن تنفيذ عمس عمليات استشهادية، ثلاث في
بغداد، وواحدة في الحلة، وأخرى في الموصل، أسهمت إمارته
بواحدة منها. كانت مناسبة عظيمة لآتي على ذكر منقلب الشهداء
وشجاعتهم، كان يعرف ثلاثة منهم. العملية الأولى تفجير
استشهادي لنفسه في سيارة مفخخة عند حاجز وزارة الداخلية رداً
على اغتيال اثنين من رجال القاعدة وإطلاق الرصاص عليهما وهما
مفلولا الأيدي ومعصوما الأعين في أقبية الوزارة. والثانية نفذها أخ
مات أخوه تحت التعذيب في سجن أبو غريب منذ شهر ونصف،
والثالثة الباقية رداً على تعاون الشيعة مع الأمريكان؛ نفذت أمام

مركز للشرطة، وفي مفيى برتاده العملاء، والأخيرة في محطة للباصات، الصليات كلها كانت جهاداً لوجه الله.

طفرت دموعاً من عين سامر، سالت على عفة. البارحة كتبوا وصاياهم الأخيرة، وكانوا في منتهى السعادة، وسألوا الله أن يتم نعمته عليهم، يقتل أكبر عدد من الكفار والعملاء، وأن يرزقهم الجنة جزاء عملهم.

لم يؤثر في منظره. اعتقدت أن الموقف يملي عليه المبالغة في الرثاء، لكن مع استرساله فيه وحرارة كلماته وسيلان دموعه، لم يخف علي تأثره الشديد، كان طفلي الذي أعرفه، طفلي عندما يحس بالفقدان والخسارة، لكن ماذا كان ذلك الفقيدان أو تلك الخسارة؟! قطاره الذي تحطم وكان في الخامسة من عمره، فعلاً البيت عموماً، أم نجاحه بالشهادة الثانوية بمجموع متدنٍ، فأجهش بالبكاء، أو حبيته التي هجرته ولم يكن قد دخل الجامعة، وفيما بعد حبيته التي هجرها، لأنها لم تعد تلي طموحاته في حياة غيرت وجهتها. والآن، بعدما تمسح وتدمن وتقفق وتسلح، ينرف الدمع على من انتحروا، وقد استأثر به حزن بات وقوداً للمزيد من التصميم.

مشاعر كان يعاني منها، ويحاول ألا يظهرها، لكنها تغلبت عليه. لم يعد معناه، كان على اتصال بهم، يودعهم بقلب مكلوم، وبكلمات ملؤها الأسى والإكبار، لسانه يحسدكم على سيفهم له. يمسح عبراته مستعيداً مواقفهم الصادقة وينعاهم إلى جنان الخلد. كانت لحي الجالسين من حوله مبللة بالدموع، وقد اكفهرت ملامحهم، ثم أشرقت وهو يدعو للمجاهدين بنوال نعم الجنة. أما

أبو عباده فقد بقي مطرقاً برأسه، والدموع تقطر من ذقنه.

قبل أن نعاود الحديث، فاجأتنا النشرة الإخبارية بزعميق سيارات الإسعاف، وألفت علينا العمت، عيقت سكينه شابهها التوترا التلفزيونيون ينقل صوراً عما تخلف عن انفجار السيارة المفخخة في المحطة... الباص المنقلب على جانبه، وقد خرجت من نوافذه الأيدي وتهللت الرؤوس. جدران الإسمنت المتهاوية، بعضها تحول إلى غبار. واجهات المحلات والمنازل مهشمة، الأكوام الخشبية محترقة، ما يزيد على عشر جثث تناثرت بينها حبات البنسورة والباذنجان والخيار والتمر المتدحرجة على الأرض الكاميرا تلتقط بعض المناظر من وسط الحريق والدخان: امرأة تلطم وجهها إلى جوارها ولد صغير شعره منكوش ونهايه مخرقة، جرحى يزحفون، يصرخون من الألم ويستغيثون، رجال يغطون الجثث بأغطية بيضاء، برك الدماء اختلط فيها الزيت والشحم بالأوساخ، أحذية رجالية ونسائية معترقة، شاب يفتش بين الضحايا، بعض الأشلاء أرسلها الانفجار إلى أعالي الأشجار وشرفات طوابق الأبنية المجاورة، رجال ونساء يحملون أطفالاً وبهرعون بهم إلى السيارات لنقلهم إلى المستشفى، رجال الشرطة يتحدثون في الهواتف النقالة، طائرة هليكوبتر تدور فوق الساحة وتكاد أن تلامس أسطحه الأبنية...

المذبح يقول إن المحطة في هذا الوقت من النهار تزدهم عادة بالعمال وباعة الخضار والألبسة المستعملة وحلالي الأرصعة وصباغي الأحذية.

الكاميرا تقترب من السيارة المفخخة المنقلبة على قفاها ودواليبها

إلى الأعلى، واستحالت حطاماً، لا شيء في داخلها، سوى ما تبقى من جثة الاستشهادي، متفحمة ومعجونة بالحديد الأسود.
هاتف سامر:

«رحم الله أبا صالح، وجعل مثواه الجنة».

اعتقت صرعة في حلقي كادت أن تغلق مني، كان هو الشاب الجزائري الذي انطلق صباح اليوم من الموقع ورائفه الأمتع حتى غاب عن عيني. استعدت بلحظة أريحته وبساطة تصرفاته عندما سكب لي الطعام، وناداني يا عم، بلهجته الجزائرية الخجولة. حدثت إلى الشاشنة، أبحث عما بقي منه؛ تخيلت شيئاً لمع، وكأنه تلك السن الفعبية التي كانت تتلاصق من خلال ابتسامته العريضة، لكن وسط هذا الدخان والذعرول والموت والجنون، لا أثر لسماحة وجهه والصفاء في عيني، وذلك النقاء البسيط في تواضعه. كأن غدبة الإيمان تقود إلى العناء، وغدبة الشهادة إلى التهلكة، وغدبة الله إلى هنا الكم العظيم من الأذى!!

تلفتُ حوالي، كأن جولة الشجاعة والشهادة فارقت المجاهدين المتطوعين.

حدثت إلى سامر، فالتفت نظراتنا علسة، كأنني ضبطته، أدار وجهه عني. ما الذي يجول في رأسه وما كنهه مشاعره؟ وأبنا المنظر نفسه، هل خطر له ما خطر لي؟ أعرف أنه أحس بما أحس به، لكن على نحو آخر، ليس بوسعي تصوره.

الأمر لم يكن متعلقاً بي، وإنما بمعنويات الاستشهاديين التي اعتزت، وكان لا بد من أن ينادر إلى شيء ما. تسلل صوته من

خلال الصمت كسراً، محققاً بالبهجة، ومثلاً:

أين شهداؤنا الآن؟

كان السؤال موجهاً إليهم، يحمل نبرة ملامة لا تخطئها الأذن، وعلى ملامحه استهانة لا تخطئها العين. كان السؤال الذي بقي معلقاً، أصبح اتهام، أجاب عنه، وقد التفت نحوي ونظر إليّ بتحد:

لقد ظفروا بما سعوا إليه، ونالوا ما تمنوه، وهبهم الخالق حياتهم فوهبوه موتهم، هل هناك أكرم وأجل من هذا الموت؟ موت فيه حياة للإسلام والمسلمين، باركهم الله وأسعدهم. كل منهم الآن في غرفة من غرف الجنة.

ثم عقب متعجباً بصوت عال، أيقظهم مما نذاعت إليه فوضى عواطرهم:

وما لأراكم ما الجنة!!؟

جنة ترابها زعفران وطينها مسك، وجدرانها أبنية من فضة ولينة من ذهب، خالدون فيها أبداً، شهداؤنا عباد مكرمون فيها، وجوههم مشرقة بنضرة النعيم، لا يرهقهم قنر ولا ذلة، لا يخافون ولا يحزنون، ومن الموت أمتون، ينعمون ويأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها لبناً وحمرأً وعسلأً. أنهار أرضها من فضة وحصياؤها مرجان، على منابر من باقوت أحمر في خيام من لؤلؤ رطب أبيض، على الأرائك متكئون، يحف بهم الطمان والولدان، يطوفون عليهم بأباريق من صين يضاء لفة للشاربين، وأكواب من

فضة مرصعة بالدر، فيها الرحين المختوم المزوج بالسبيل
العذب، بشرق نورها من صفاتها، يلبو الشراب من ورائها برفقه
وحمرته.

شهادتنا الآن في شغل فاكهون، بجالسون الحور العين من
الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمئنن إسن
قبلهم ولا جان، عليهن من طرائف الحرير الأبيض ما تحير فيه
الأبصار، مكملات بالتيجان؛ غنجات عطران، أمات من الهرم
والبؤس.

فيا عجباً من دار هذه بعض صفاتها، هل يطيب لنا العيش من
دون السعي إليها؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع
الأمن من المصائب والجوع والعطش، لكان جديراً بأن نهجر من
أجلها دنيا مصرها الخراب. كيف وأهلها في كل يوم يفتاء العرش
بحضرون إلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر ما لا
يضامه سائر نعيم الجنان. وهم على القوام بين هذه النعم
يتراخون ومن زوالها أمتون.

لم أشاركهم في التخليل. كان قد نجح، وبث فيهم روح الشجاعة
والشهادة معاً، لحظات الصمت تجيش بالحمامة. هللوا مكبرين،
ووجدوا تعبيراً عما امتلأت به قلوبهم من تضحية، بصوت أشبه
بالدمعة صفر عن الشقيين السعوديين، وإذا ارتفع كان قوياً:

ضع لي يدي السيد الهب اخلمي بالسرور

ضع عنفي على السكين

سرعان ما انضم إليهما البقية:

لن نستطيع حصار فكري أو نزع إيماني ونور قلبي
فالنور في قلبي، وقلبي في يدي

ربي... ربي وناصري ومعيني سأعيش معتصماً بحبل عقيدتي
وأمرت مجتسماً ليحيا ديني

نظرت إلى سامر بخشيفة، لم يكن ابني، كان الآخر، الأمير عبد
الله السوري، داعية الانتحار، هذا الشاب أجهله، غريب عني،
غريب عن نفسه، لا شيء يجمعني به سوى رابطة الدم الفاسد.
كنت كمن فقدت ثانية، وفقدت معه الأمل. ينتمي إلى عالم أنا
ضده، بيع أحلام القصور والحدود العنق، مقابل الأجساد والأرواح،
ووهم عالم جميل ومجهول، هو القناء ليس غير.

نهضت دونما كلمة، وخرجت.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

أرسل لي سائر الشاب الأكتع، والشمس مني الحضور، لم يكن
بوذي رؤيته. كان الوقت مساء، الحر شديد مع نسبة رطوبة عالية.
أرسلت إليه أنني سأنام مبكراً. زعل الأكتع وألح، طلب منه عبد
الله السوري ألا يعود من دوني. فاضطرت إلى الذهاب. عندما
رأني قادمًا، انفصل عن الجماعة الملتفة حوله، تمسحينا معاً في
الغمة نحو الأحرار وتوغلنا فيها.

لم أزد سماع شيء منه، لم يعد هناك ما يبرر لي المحاولة معه.
كنت أرغب في التنفيس عن شعوري بالاعتناق، أن أتكلم أنا لا
أن يتكلم هو، أن أسمع صوتي لا أن أسمع صوته، أن أشكر دون
مجيب، وأنخفف مما يعجزني في ذاتي من مرارة وعجيبات...
وتسبات ذهبت بها.

«جئت إلى بغداد لأعود بك إلى دمشق، نلح عليّ شعور راسخ،

أنني أعطت حياتك. ألمني أنني أهملتك سنوات، كان ينبغي خلالها أن أكون مرشدك في الحياة. أردت إصلاح ما اقترفته بحفك، ولو على حساب حياتي، اعتبرت ما سأقوم به أفضل نكفر عن تجاهلي لمسؤوليتي تجاهك، وهذا ما أقضي بصواب ما أقدمت عليه، وإن كان لا يبرئني. اليوم رأيت منك ما جعلني أتيقن أن لا سبيل لاسترداد ما أفسدته، أوصلتني إلى بأس ما بعده بأس، ألا تواسيني بكلمة تجعلني أمل، أو أحس مجرد إحساس، أنه ما زال لدي رجاء، ولو كان ضئيلاً؟ قل لي، هل تستطيع؟».

«فات الأوان».

«أعرف، لقد بلغت مبلغاً يشق عليّ ردك عنه».

حاول أن يقاطعني، منعت نفسي من الصراخ، من شدة لا ميلانة بشاعري، وتابعت غامضاً، وقد تحشرج صوتي في حلقتي:

«ما تفعله هو الجريمة بعينها، ماذا تكون هذه التمثيلية، تمثيلية الجنة؟! من ذهب ورأها، ثم عاد ليصفها بهذه الدقة؟ هذه الكذبة تعادل القتل العمد».

«هؤلاء تركوا الأهل والزوجة والولد، الوطن والعمل والأصدقاء وجاءوا من أماكن بعيدة ليضحوا بأنفسهم. هل تعتقد أنه لا تأتي عليهم أوقات يخافون فيها، ويصيبهم الذعر من هول ما هم مقدمون عليه، دون التجرؤ على التراجع، هل أدعهم لمخاوفهم، أم أثبت قلوبهم، وأشد عزيمتهم، وأقوَى إيمانهم بما ينتظرون من ثواب، أليس جزاءهم الجنة؟! هؤلاء هم شرارتها، أما أوصافها، فلن يختلف عليها، هي النعيم، تصور النعيم كيفما نشاء».

«ما أدراك وأندراهم بما ينتظروهم؟».

«القرآن، كتاب الله، هنا ما أدراكي وأندراهم».

«أليس هناك آية في القرآن تحثك على طاعة الوالدين؟».

«لماذا؟».

«أرأيتك أن تعود معي».

«متى فرغ تغير الجهاد، فلا إذن لوالد علي ولله... ولا طاعة
لسخوق في معصية الخالق. إن أطعك وأعصي ربي».

«لكنك تعصي الخالق وتطيع الشيطان، تحض المجاهدين على
ارتكاب كبيرتين، قتل الغير وقتل النفس. لا شرعية تجيز القتل. ما
أعرفه أن القرآن كتاب سلام لا كتاب حرب، كتاب رحمة ومودة
لا كتاب عنف وتعصب، انظر إليه على هذا النحو، وسوف
تستبد روح الدين الحقيقية».

«لماذا لا تلتفت إلى روح هذا العالم؟! نحن نقلهم كما يقتلوننا».

«ماذا عن البشر الذين تقتلونهم غيلة؟ مدنيون أبرياء، شيوخ ونساء
وأطفال، غالباً لا يقتل غيرهم».

«حفظ الدين مقدم على حفظ النفس».

«بوسعك حفظ النفس والدين معاً».

«الواجب شرعاً مقاتلة العدو بغض النظر عن سقوط كلّي أبرياء أو

غير أبرياء، بذنب أو بغير ذنب؛ دون مسؤولية علينا أو حرج، كانوا في المكان الخطأ، وربما المكان الصحيح، من يعرف؟! نحن جميعاً بين أطياف الله وهو يتولانا بعنايته، حسابنا وحسابهم عنده، العليل إلى جهنم، والشهيد إلى الجنة.

لم يحجب الليل ملامحه عني، وربما كنت أتخيل التقاطيع غير الصارمة لوجهه الذي كنت أعرفه وصرت أجهله. عيناه تخترقان العنمة، تنظران إلى شيء ما لا أراه، فشعرت بالرهبة لمجرد الإحساس بأنه صمٌّ أذنيه عني. صوتي يرتجف، فيما كان صوته يتهدى بعنق، والثأً وقاطعاً. لا شيء يزعجه عما يؤمن به. جاء دوري كي أحس بالفقدان، كان ابني، وأعدت عني، وأصبح بعيداً عني، يعاندني ويقاومني في أن واحد، أمسى ضدي، ما الذي يفعله توسلي لزاء عناده؟ قلت ساعراً من نفسي:

«لطمتُ مسافة طويلة كي أتتبعك عن طريقك هذا».

«لقد حلزتك وطلبت منك العودة».

أثار تأكيده في داخلي شيئاً غامضاً، تراهي لي أنه حدث فعلاً، ألم أتلقَ تحذيراً بعدم البقاء عندما كنت أتمشى مع فاضل في شارع الرشيد؟

«أنت الذي أرسلت الرجل الذي اصطدم بي في زحام الشارع».

«ومن يكون غيبي؟! عرفت بوجودك عندما تحرضت علينا صورتك، فأردتلك أن ترحل بأنفسي سرعة، لكي أوفر عليك وعلى هذا النقاش».

«لماذا أنقذتني [٢٥]؟».

«ترقعت من إصرارك على البقاء أنك جعلت لتزويدني وتفخر بي، وربما تشاركني في ما أنا ماض فيه».

«عقلك مشغول لأنك أي، لا أرني لك بل أرني لنفسي».

«لذا ابحث عن عزاء آخر، ولكن عظيماً».

«ما الذي يهزني عنك؟».

«لا تكمل، حتى لا أعسرک».

«من يهزني عنك؟».

«لو كنت مؤمناً لأدركت أنه نعمة ظفرت أنا بها، ولما احتجت أنت إلى أي تعويض، ولا ملأأت نفسك بالغيطة، غبطة لا شيء يفوقها، أو يعادلها. لكن ما أهلك عنها، أنت لا تعرف طمانينة الإيمان».

«ماذا عني أنا أهالك؟».

«لا تهددني بأبوتك، أنت ترعب في جهلك».

«للا تتفائل، هنا عالم بلا إله، والأغلب أنا سندب إلى حيث لا حساب ولا جزاء، فلا تخدع نفسك ولا الآخرين».

«اسأئرها لك، واسمها مني: أنت ملحد».

«لا تكن والتقاء، أنا نفسي لا أتدري ما في قلبي، سأطلعك على سري، الذي ألقيني وحيرني، وأردت أن أعقبه حتى عن نفسي، ظننت أنني تخلصت من الإيمان منذ آمنت بالعقل، لكنني عندما اعشقت، استعدته تحت تأثير الرعب. آمنت بالرغم مني!! لم تكن تجربة خوف فقط، كانت تجربة معرفة مروعة، أعشى أن أهاج، أو أعطي في تفسيرها، هل كان ذلك الإيمان الذي نخفه مكابرة عن أنفسنا، ونجهل أنه ما زال يمكن في أعماقنا، ظهر في ذلك الموقف؟ لست متيقناً، لا أريد استعادة ما جرى ولا تذكره، لئلا يتكشف ويدمر شيئاً أنا حريص على الحفاظ عليه، أريد التفكير به فيما بعد، وليس تحت ظروف قاسية لم تفارقني وطأتها بعد. لا أريد أن أعرف، لكنه حدث.»

رفت عينا سمر في الغلام، وهلل فرحاً:

«أبي، لا تنكر ما حصل لك.»

«أنا لا أنكره، بل ويخطر لي الآن شيء، لن أتردد في قوله....».

في تلك اللحظات، كنت متأكداً من أن الفرصة تهيأت لي، فرصة لم أتر إن كانت حقيقية أم مستهلكة، لم أوفرها، سارعت إلى استغلالها.

«ماذا لو كانت تلك التجربة من فعل الله، تجربة لم أكن أنا المقصود بها. وإنما أنت!! ماذا لو كانت رسالة من إليك، حثني لها في دمشق، ووفر لي السبل للقيام بها؟ خاطرت بقطع مسافات لولاه لما تمكنت من اجتيازها، متخطياً العقبات والمصاعب والحواجز والحدود، وها أنا نجوت من القتل. أليس

كفي أبلغك لها لتتردد عما أنت فيه؟ وضعها الله على لساني
لأقولها لك أنت الذي تحيط نفسك بمشرات التفسيرات التي تبرر
الانتحار والقتل والدماء والضحايا، وتحجب عنك الله العادل
الرحيم.

«كان الله أرسل غيرك. وأنا كان أرسلك، فلماذا يملك على
العراق المستقيم، أنا لم أعطى طرفي إلى التوراة.

ولدت يدي وأشرت إلى الفضاء:

«هل هنا هو التور؟».

كانت العتمة ساهبة. تابعت سجيناً:

«تحت هنا الأعداء، تستغل هؤلاء المساكين، ونحولهم إلى
انتحارين قلة».

«هنا عيار المؤمن المجاهد».

«أنت ترسلهم إلى الموت، ألا ترى؟».

«أنا الذي أرى».

«أنت في ظلام دامس».

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

في الظلام الدامس تابعتا المشي بين الأشجار. أمسك بيدي كي لا أتعث، أنا الذي كان عليه أن يمسك بيده كي لا يضيع. قادني إلى البيت الذي يسكنه، تميزت مدخله من الضوء الناصب المتخائل من نافذته الصغيرة. نقر على الباب عدة نقرات، فظهرت صبة نحيلة لا تتجاوز العشرين من عمرها، وجه أسمر مدور، هذا في الظلمة المخيفة ضارباً إلى الصفرة، وعينان واسعتان وباهتان رغم سوادهما القاسق، وعقدود غائرة، على رأسها غطاء أبيض. حدجني بعين كسيرة وتراجعت إلى الخلف.

أدعطني ساسر إلى غرفة أثاثها قليل، وجدانها عارية. الإضاءة ضعيفة، التور يأتي من شمعة صغيرة بجوار القرآن الكريم الموضوع فوق مسند خشبي، ثم طاولة إلى جانب الحائط يعلوها كومبيوتر وتلفزيون. كان يستعمل الكهرباء لتشغيلهما فقط، أما الإضاءة فبالفاتوس أو الشمع. على الأرض ثدٌ بساط ملون، اقترشناه واتكأنا

على حشاها الفخ. نادي العبيبة وطلب منها إعداد إبريق من الشاي.

باسمها هذه.

لم أسأله عنها، أو عن سبب وجودها معه في مكان إقامته. قال إنها أمانة في عنقه. فاعتقدت أن لديها قصة من تلك القصص المؤسفة والكثيرة عن فتيات فقدن عائلاتهن بقصف أميركي عشوائي، أو بتصفيات طائفية، أودى بهن حفظهن العائر إلى احترام الضياء في أسواق دمشق وعمان والخليج، أو صادفهن الحظ ووجدن من أوامهن لديه.

«كانت الناجية الوحيدة، بعد أن فقدت عائلتها بالكامل».

حزري لم يكن في محله. حكايتها تختلف عن حكاية مثيلاتها الرئاسات المنكوبات، هذه اغتصبها ضابط وجندبان من المارينز مفخرة الجيش الأميركي، ثم مرروها لأصدقاء لهم في الشرطة العراقية العميلة. فذهب بها طلب الانتقام إلى الانتظام في سلك الانتحاريات.

أُرسلت إليّ كي أوصلها لعملية استشهادية، فأردت التأكد من سلامة دينها، وأن تكون رغبتها في الاستشهاد لله وحده، لا دفاعاً للعار. وجدتها حاملاً، فأشفت عليها، تحملت الكثير من التكيل، احتجزت شهرين في أقبية سرية، ثمة وقت كي تتخذ قرارها وحدها، تزوجتها لئلا تحس أن ما أصابها يشينها. أما الجنين فسوف يخلصها من طيننا في الموقع».

نظرت إليه مستغرباً، ولم أجد نفسي إلا وأنا أستشهد بالقرآن:

«ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق».

«إنه أسوأ من ابن الزنا».

وكان الاتهام كان موجهاً إليّ. فأردت أن أزعجه وأواجهه بقسوة وبرود:

«لا بد أن تعرف شيئاً، ارتكبت أبوك عطيقة الزنى، علمت وأنا في بغداد أن عطيتي أكرمت حيناً، فنتبه قبل أن تصدر حكمتك، أن لك أعماً ابن زنى».

«انظرو».

«قبل مغادرتي المنطقة الخضراء، أرسلت رسالة أوصيت بالجنين خيراً، لن أحرمه من الحياة».

«ما نجم عن فاسد فهو فاسد».

«سوف نختلف على تعريف الفاسد».

«أنت تمس في الخطيئة، واختلط عليك الحلال والحرام».

«نحن لا نهب الحياة، فلا تماكسها».

«ابسم باستهانة، لم يرغب في مناقشتي، تابع كأنه لم يحصل بيننا جدال»:

«الفاعلون كانوا يعرفون أن أهل هند قتلوا جميعاً، وأقربائهم البعيدين تركوا المنطقة وفروا هارين، فلم يابها لما جنته أيديهم، العراقيون لم ينجوا بفعلتهم، استطعنا الوصول إليهم، وقتلناهم عن بكرة أبيهم، فجزنا المخفر بمن فيه. أما الأمير كان يسوف نزال منهم أنفسهم أو من غيرهم».

جاءت هند بالشاي وجلست صامتة، قال لها سامر، هذا أبي. رفعت نظرها إلى عاتقة، جسدها يرتجف، أرغت بصرها، صدرها يعلو ويهبط. دموعها تسيل بصمت على عديها، كانت تمنع نفسها من الصراخ. أخذتها بين ذراعي واحتضنتها، فأسكت يدي، قبلتها ووضعها على عدها، ولم تتركها، أرغت رأسها على كفي، لم أسمع سوى صوت تنفسها، بعد حين، علا صوت نسيجها، الأم الصغيرة التيمة لم تشع بعد حزناً ولطماً.

نسلت نسمة حارة من النافذة الصغيرة، فاهتز بصيص الشععة، وسقط خيالها على القرآن الكريم، وتلوى مرتعشاً فوق غلافه المنعبد. هبت رائحة بخور زكية عيقت في الغرفة. صبت هند الشاي، لم يتناوله أحد منا. حاولت أن أطيب خاطرها، لكنني لم أفعل، لماذا أواسيها، هل بغير تلك الكلمات الغبية؟ وفرتها عليها وعلى نفسي.

ولفت وودعت هند، توجهت نحو الباب، رغبتني المضي وحيداً، مثقلاً بألم جامع. لم أحس من قبل بمثل هذه النقمة على الأمير كان، ما سبتركونه وراهم من مأس، أكثر من قدرتنا على علاجها.

لحق بي سامر، واستوقفني في الخارج، لم ينظر إلي، قال لي:

«لا بد من رحيلك قبل نهاية الأسبوع».

«هل من خطر؟».

«الأفضل ألا تبقي».

«أعلم، وجودي غير مرغوب فيه».

«كان اليوم هو الاثنين، منحتي مهلة ثلاثة أيام».

«ارتدّ إلى البيت، وتركني في الظلام».

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

هنا الظلام، أعذني إلى ظلام أشد.

لم أحس بالعممة، إنما روحي كانت مظلمة، كآنتي في حلم
ضعيف الإضاءة، وتراني لي شهيد الإظلام، على صفحته انفتح
مشهد، تملكني وأعذني إلى عالم آخر، ما حدث في داخله لا
يمكن توقعه، لكن في الأعلام يمكن توقع أي شيء، جمعني
ببناء موقف ملتبس شعور هائل بالحب نحوها أكثر مما يتسع له
قلبي، وفي الوقت نفسه، أستعد لخوض صراع معها، كأنه لم يعد
عناك سواها أمشي حسبي معه، أتفرغ بعده للأخرين، كانت هي
العقبة التي لا بد من إزاحتها كي لا أفكر بالعودة. لم يخب عني
مأزقي، إذ كنت في مأزق فعلا، روحي وجسدي بين يديها،
وكان عليّ انتزاعهما منها رغماً عنها.

قلت لها: لماذا الحب، ألم نعان منه؟

قالت، لكنه يستحق فرصة أخرى.

وقالت إنها لم ترفض عرض الرجل الذي طلب الزواج منها، من أجل الشعر كما قالت من قبل، بل من أجلي. ولو لم تكن الآن أسيرة حلم لما صرحت بهذه الحقيقة. اكتشفت أنها تحبني، في تلك اللحظة، اختارني دون أن أتري، واختارت معي كل ما سوف يأتي، مصيرها ارتبط بمصيري مهما كانت العواقب.

وإذ صحت، تخيلت، رغم أنني ما زلت نائمًا، منظرًا مشرقًا، هجم عليّ من ماضٍ انطوى، وكان في منتهى العاطفية: شعرها منسدل على جسدها الورداني، والنور الخافت يعكس على عريتها المسترخي ظللاً تهادى حارًا، تمنعني الإحساس بوجوده والنعيم آخر لا تشبهه الظنون ولا الآلام. كان عارج حساباتي، أهم بفرقتها، تنهض من غفوتها وتضميني بين فراصمها، أنفاسها في مسمي، تخرق حاجزًا، كان كيميًا وشاعقيًا، وبات شفافًا وهشًا. أتاح لي معرفة ليس الحب، وإنما الباطل، الحقيقة الوحيدة التي يرتع فيها في العالم.

كيف أتقلب على هذه الحقيقة؟

تخيلت عندئذ أنني خرجت من الحلم، حاملًا معي حقائق الزمن والتاريخ والجنون والقتل والنسيان والفقران والخيانة والعنف والكراهية والحماقة... لم أهتم بها كلها، ما دامت الحقيقة باردة ومنحولة، ولا أمان لها، وقد تنقلب إلى ضدها، أو تتغير، وتتعدد أوجهها، أو فأت ألوانها... ارتحت إلى حالة احتوتني كانت:

الأنبي لن يهمني، ما دامت سناء معي في قارب البقاء والبقاء.

لم يستر المشهد على الوثيرة نفسها، أخذ يتشوش، يتناهى إلى بين الآونة والأخرى هدير سيارات، أضواء تشعل وتطفأ على عجل، بدت كأنها هلوسات، لم أكن متأكدًا، أسمع نغيمات وعشخشات تأتي من بعيد، وربما من قريب، سرعان ما تغيب لتجدد بعد قليل، شيء ما يحدث، ولا يني بعيد أصواته، الخلط بوساوس مشهد تهشم إلى أجزاء دقيقة تبثرت وتشتت، أقلب بينها. كنت مصراً على عدم الرحيل، وأنا أعهد وأكرر، لم أنجز شيئاً بعد.

ومع هنا فضيت الليل وأنا على وشك المغادرة، لكن إلى أين؟

تجنبني الأكتع طوال النهار. اعتقدت أن سائر أعطى تعليماته للجميع بعدم الاقتراب مني، أو التوسط معي. ومع هذا ناديت وسألت عن مكان وجودهم. قال لي إنهم في المضافة. ثم سألت عن اسم المنطقة التي نحن فيها. قال، لا أعرف.

مررت بالمضافة، رأيت المتطوعين الستة في الغرفة الماعلية يتدربون على ارتداء الأحزمة الناسفة وطريقة تشغيلها. وقفت على سفرة منهم أرائبهم، ثم تابعت إلى الفرقة المجاورة، كانت فارغة.

تمسبت في الخارج، كان هناك درج وراء البيت، نزلت فيه، وجدت مستودعاً للمؤونة، في المقعدة أكياس طحين، وفي الخلف أسلحة وأدوات تفجير، وراجمات صواريخ، ومواد لصنع القنابل، وأجهزة توليت ومعقات توصيل، وأوراق تتضمن إرشادات عن كيفية صنع المتفجرات، مع كميات حول عذاب القمر والحرور العين، وأكفاس من الكتب المبسطة تُعلم الإسلام خلال بضعة أيام، لا يزيد الواحد منها على ثلاثين صفحة، تتناول أحكام

الوضوء والصلاة والطهارة، الزكاة والحج، الولاء والبراء، جاهلية العالم، الجهاد والشهادة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

عندما رجعت إليهم، كانوا قد أنهوا تدريباتهم، ودارت أحاديثهم حول أسلوب تجهيز السيارات وتفخيخها. انسحبت فلحق بي الشاب أبو عبادة العراقي، كان مضطرباً. قال لي إن اسمه حازم:

«سمعت أن عبد الله السوري ابنك».

هزرت برأسي.

«قال إنك ستغامر قريباً إلى سورية».

لم أكن راغباً في الحديث، شعوري بالنقمة عليهم دفعني للكلام معه. قلت له جئت للاطمئنان على ابني. لكنني لم أطمئن، وكما ترى، لا عمل لدي هنا. لا مفر من العودة.

لم أستطع التوقف عن الكلام، تابهت حانقاً: أنا لا أوافق على ما يفعل، وبإلحاحي ما تسمعون إليه، وقرأوا شياهم للحياة، للعبادة، لأسركم، أليس لك أب، أم، إخوة...؟

نتيحت فجأة إلى أنني أتحدث بشيء لا يجوز الكلام عنه مع شاب مقدم على عملية استشهادية. ومع هذا تفاقم النزاعجي، وسأته غاضباً:

«ما الذي جاء بك إلى هنا».

«أنا هارب من القتل».

وكانها أجنبية، ما دام أنه ذهب إلى الموت ظمأفا يهرب منه؟

لا، لم تكن أجنبية، ما هو حارب منه قاده إليه!! والسبب أخوه، كان تابعاً لميليشيا أخذت على عاتقها تطهير أجزاء من منطقة الأعظمية من الأهالي الشيعة. أرسل إنذاراً لعائلة بإخلاء منزلها ومغادرة الحي، لكنهم لم يستجيبوا، أرسل إليهم إنذاراً ثانياً، فلم يرحلوا. اقتحم البيت مع رفاقه ليلاً وأطلق عليهم النار وأرداهم قتلى جميعاً، عدا ولد في السابعة من عمره، لم تكن إصابته سيئة، تعرف إليه. فاعتقلته دورية من فرق الموت، بلبس أفرادها ملابس الشرطة، رموا بهجته مشوهة بعد ساعات في الحي. وفي اليوم نفسه، أكملوا المهمة وقتلوا زوجته وولديه، هرب ما تبقى من العائلة إلى سورية، حلزم اختار البقاء، رغم أنه أصبح مطلوباً من فرق الموت، عزم على الانتقام منهم لأخيه وعائلته. لم يكن لديه الفرصة ولا الإمكانية إلا بالتحاقه بإحدى المجموعات الحفائية، بعد عدة تنقلات بين المناطق والأحياء، عشر على المقاعد، فأرسلوه إلى الموقع. الآن يحس بأن ما هو مطلوب منه غير قادر على الوفاء به. ويريد الانتحاق بعائلته.

فهمت أنه يرغب في مرافقتي بطريق العودة. سيتابع دراسته في جامعة دمشق، كان في الصف الثاني - كلية الاقتصاد.

أما العملية، فلن يقوم بها، لكنه عجلان من إعلان رغبته.

هل تستطيع أن تقول هنا لعبد الله؟

وعده إبلاغ سامر. أمسك بيدي وشدَّ عليها:

«بصراحة لا أريد أن أموت».

«لن نموت، سنعود معاً».

اقتربنا، وتقابلنا في وقت الغداء، تناولنا الطعام، ثم غادر الجميع
المضيفة، وبقيت أنا وسامر وحدنا. قلت له:

«أبهر عبادة يشعر بالخجل منك ومن الآخرين، لا يريد القيام
بالمسئلة، يرغب في المضادة إلى سورية، ومتابعة دراسته الجامعية،
اقترحت عليه أن يعود معي».

التفت نحوي، لم يعترض، توقعت أن تظهر علي ملامحه معالم
الامتناع، أو أن يثور ويتهمني بأنني شجعت على المضادة. قال:

«هنا شأنه، وقفه الله في اختياره».

بل وأظهر أن الخير شره:

«سوانك في طريق العودة».

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الساعة تجاوزت منتصف الليل، كنت صاحياً لفكر، سمعت نقرأ على الباب، نظرت من الشق الضيق، لم أر شيئاً، سمعت صوت حازم يطلب رؤيتي، فأدخلته. طلب مني ألا أشعل الضوء. جلسنا في العتمة. كان يرتعش، وصوته يتهدج، ثم أقلت لنفسه العنان، ما رآه لا يمكن تصديقه.

بعد صلاة العصر، دعاهم سامر إلى جولة في الجوار. ظن حازم أنها جولة للاطلاع على المجتمع الإسلامي الصغير في المنطقة. لم يذهبوا إلى القرية المجاورة، بل ركبوا سيارة واتجهوا صوب الأراضي الوعرة، نحو مناطق كانت خواء، لا بيوت لا بشر، سوى الحراس الملتصين على طول الطريق. بعد مسيرة نحو نصف ساعة من الزمن، نزلوا من السيارة، وأخذوا بالسير على الأقدام لمدة ربع ساعة.

توغلوا بين الصخور والأحجار كأننا دوننا هدف.

ولم نكن ندري أننا ذاهبون إلى مجمع خلفي لعمليات القاعدة، ولجماعات أخرى غيرها، بجمعهم التعاون معاً، عندما تكون الأمور على ما يرام بينهم.

الشمس تتراجع متفلة بروائح غريبة وواغزة، وكلما تقدموا تزايدت الرائحة وأصبحت زنخة وكرهية أكثر. كانت الرائحة صائفة عن أنفاق المهجورة ومغالق قديمة!!

الأنفاق المهجورة شبكات مجار ضخمة وواسعة، شيدت قبل الاحتلال بسنوات، أوقف العمل فيها بسبب الحصار، جدرانها عالية، استولوا عليها وحولوها إلى سجون ومراكز اعتقال، وغرف للتحقيق تجري فيها عمليات التعذيب والاستطقال، قيل أن بحال الموقوف إلى المحكمة الشرعية، غالباً يكون نصيب الإعدام.

تقدموا فيها منتصبى القامة دون أن يضطروا إلى الانحناء، وهم يسمعون صرخات المعتقلين يتوسلون إلى سجانهم، ويقسمون بأعظم الأيمان أنهم أبرياء من العمالة، الخيانة، الردة، التجسس، الكفر... أحياناً كثيرة تجري الإعدامات من دون محاكمة. تتم عادة بإطلاق الرصاص في الرأس من الخلف أو الصدغ أو بين العينين، وأحياناً قطع العنق بالسيف.

كانت العصابات تزودهم بهم باصطياد المسافرين على طريقي بغداد عمان، وبغداد دمشق. يُختطفون على الهوية، أو لمجرد أنهم من الشيعة. المارحة ليلاً اختلطت ثلاث عائلات شيعية من الطريق السريع، أنزلوا أحياء من حافلات كانت تقلهم إلى عمان، جازوا

بهم وأعدوا على الفور، بينهم أطفال لم تتجاوز أعمارهم خمس سنوات أو ست سنوات.

«كنا نمشي فوق الأشلاء والدماء».

داخل المقالع الجرداء مقبرة جماعية كبيرة، لا تدفن الجثث كلها، بعضها يجري تشويبه، ثم تُرخل.

الأرض تنتشرت فوقها الأيدي والأرجل والأصابع والعيون والأسماع.

كان المكان يسكونه المروع، يرسم بالأجساد المنورة استعراضاً احتفالياً يمنح للحملات المظفرة بعداً وحشياً لامبالياً. إلى الجدران أسندت وعلقت الأدوات المستخدمة من سكاكين، وسيوف، ومخالب، ومثاقب ومناشير كهربائية، ملطخة بالدم الأسود. تندر رؤية جسد متصل برأس، وإنما أجساد عارية تبدو وكأنها ذبحت للتو، لا يترها سوى بقايا أسماك بالية ومزقة، رؤوس متدحرجة، مبعثرة في الأرجاء. مسلخ بشري... هذه لشرطي وأخرى لضابط أو جندي أو متطوع في الجيش، أو رجل دين استنكر أعمالهم، وأنتى بالمشاركة في الانتخايات، أو امرأة لرتكبت الفاحشة، عميل للأمن كان، جاسوس، سائق، أستاذ جامعة، مترجم... بعدها يجري لإرسال الجثث إلى مقاصدها لإحداث التأثير المرجو منها، تعلق على عمود، تشحط في شارع، ترمى في نهر دجلة، أو إلى مكبات القمامة.

التشوية يعارض للترويع ومث الذعر في قلوب الكفرة المتعاطلين مع الاحتلال. قال عبد الله السوري إنهم لا يفعلون سوى ما يفعله

أعدائهم: التمثيل بالجنث مقابل التمثيل بالجنث، وحب ندرجاته، الذبح بالذبح، نشر الأجساد بنشر الأجساد، قطع الرؤوس بقطع الرؤوس. أما الوجوه، فجذع الأنوف بجذع الأنوف، اقتلاع العيون باقتلاع العيون، ثقب الجماجم بثقب الجماجم... مضطرون إلى استعمال أساليبهم، التهاون يعني الضعف وعدم القدرة على الرد.

وكانت مناسبة كي يشرهم أن أحداً لن يستطيع التمثيل بحقهم، أجسادهم ستلاشي في الأثير مع الانفجار، وأرواحهم الطاهرة ستصعد إلى مشاها السماوي.

وفي يوم القيامة، فاعرروا بما قسم به، الله يقيم حروباً لا غرض منها إلا إسقاط الشهداء؟!

مركة الإيمان والكفر دائرة، المؤمنون مدعوون إلى إثبات إيمانهم بعظيم قدرتهم على الفداء، هذا يومكم الموعود، وورثنا يحدث اللقاء في يوم القيامة، حيث الحساب الأوحى، الحساب الذي لا حساب غيره، لا بد من الاستعداد له بجسد هو قبلة، جسد حان أوان التضحية به، والانطلاق من دونه إلى البري عز وجل.

وفي الآخرة سؤال: ما الذي قسم به لنصرة الإسلام؟ ما الذي فعلته بجسدك، وديعة الله لديك، كيف تصرفته؟ هل تركته يترخ في الملأ، أم كان سلاحاً أزهيت به أعداء الله؟!

ثم التفت نحو أبي عباده وعصمه بنظرة استحسان ورويت على كفه.

«في تلك اللحظة، والدم يغلي في عروقي، لو قال لي لذهب إلى حتفك، صفقتي لما ترددت ثانية واحدة، وتنفيذ ما يطلبه مني دون مناقشة أو تفكير».

لم يعد هناك ما يمنعه من اعتراف أي عمل يُطلب منه، كان للموت معنى مؤثراً، في حياة ليست إلا سمر عبور مفضي إلى الآخرة.

«طربني الوحيد بات صوب السماء».

لم يكن ثمة أعظم من الصعود إلى الله بصفة شهيد.

عندما انفرد بنفسه، استعاد رشده، ما الذي جرى له؟! هذا الانقلاب، جرى تحت تأثير عبد الله، طوال ساعات كان أسيراً له. وإذا كان قد تركه قبل قليل، فلما يتخلص من خطره بعد، قد يعاوده في يوم قريب، بينما هناك أم وأب وأخوة ينتظرون وبحاجة إليه. لا يخشى عبد الله لأنه الأمر وتجب عليه طاعته، بل لقدرته على الاستحواذ عليه وتنفيذ جميع حججه وإبطالها.

صمم، لن يقوم بأية عملية، ولن يقتل أحداً، مهما كان هذا الأحد شيعياً أو حتى أمريكياً.

«ألا تساعدني على الهرب؟».

«عندما تكلمت معه بشأنك لم يبد اعتراضاً على انسحابك من العملية ولا مراقبتك لي».

«ما زال يحترني واحداً منهم، لقد اصطحنى معهم».

«ربما لأنك ستخاطر قريباً، أريد أن يرسل معك تحذيراً، أشبه

بتوصيل رسالة إلى الخارج في حال بعت بمشاهداتك.

ومع هذا لم أطمئن أبداً. سأنته إذا كان يعرف أين نحن؟ قال إننا في منطقة إلى الشرق من الرمادي، تبعد عنها حوالي عشرين كيلومتراً.

وعدته بالمغادرة بعد غد.

طوال الليل، لم أفلح في إبعاد الجثث عن خيالاتي، كانت تأتيني مثلما رأيتها في مشرحة بغداد، تنجول مقطوعة الرأس، مشوهة، وبلا فخذين، أقدام تمشي وحدها، وأهد تستجير، وعيون تهرق في الظلام.

أصبحو على الحقيقة الأكثر فظاعة، سار أحد مورديها إلى نهر دجلة والحاربات وفارعات الأرصعة. والأكثر إلهاماً: لا يجمع بينا أبوة ولا بنوة، ولا مجال للتفاهم حول أي شيء مهما كانت ضآلته. لم أعد أرنجي سوى إنكاره ونسيانه إلى الأبد. كان قد ذهب إلى مكان لن يعود منه أبداً. أصبح شخصاً آخر، لا بعت لي بعلة.

أحسنت أنني أكرهه، وأحقد عليه؛ نمت له الموت.

راودني أن مشاعرنا الواحد نحو الآخر متشابهة إن لم تكن متطابقة، إذا كنت أتمنى له الموت، فهو لا يتعناه لي بغفر ما يسمي إليه. ما الذي يمنع؟ ألم يكن إصراره على سفري لئلا يضطر إلى قتلي؟!

بكل مرارة، تبيهت إلى نفسي، أنا الأب المجنون، أتمنى الموت لولدي، هذا الذي نمت أن أمنحه حياتي.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

صوت أذان الفجر خالط هلوساتي المخيفة، لكنه كان طوق نجاة
أنقذني، وهاتفاً حسي على التهوؤ والذعاب إلى المضافة.

عند العتبة وصلني صوته صائماً في الجو الرائق، سامر ورفاقه
يصلون صلاة الفجر. ألقيت نظرة إلى الداخل. كانوا على وشك
الانتهاء من الصلاة، في وضعية القعود، يمسكون ذات اليمين
وذات اليسار. ارتددت نحو الشرفة المطلة على الحقل. وقفت
هناك، لم أشأ أن يقع بعصره عليّ.

الصباح الوليد يرسم صورة أعانة للبساتين الخضراء، مبللة بالندى،
مجلجلة بخلاصة من الغيش، لو كان الله موجوداً، فليس لغيره أن
يخلق كل هذا البهاء، ولا لسواه القدرة على إخفاء هذه الروعة
عليها. منظر افتقده منذ زمن بعيد، أراه في غير أوقاته، لا هنا
سكانه ولا زمانه. أعرف، بعد اليوم، لن أشهد مثلاً له ولا شبيهاً

به، منظر ولا أبداع... جمال تختلج أعضائه بأنواء لامرئية، لن يتكرر أبداً على هذه الشاكلة، لا الجمال ولا الأنواء، وكلما حاولت تذكره سأعنى ثلاثيه، أعني لسانه، وعلى أي وجه. كان غير حقيقي، منظر ساوي من اختلاق البصر لا الصباح.

صوت سائر يعلو وهو يتلو الورد اليومي:

أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين، اللهم إني أسألك خير هذا اليوم. وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده.

يا واسع المنطرة يا غفار، يا غافر الذنب، يا قائل التوب، اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

أضواء المنازل العيفة تتناقص مع تسلل النور، ثقب الضفادع يودع أشلاء الليل الأقل. رياح عفيفة تتسلل عبر الحقول، تتخلل صف النخيل، حاملة رائحة التربة وحشائش الأرض.

اللهم أنت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشيع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

أنفاس النهار الأولى تتردد بين أزقة القرية النائمة، سكانها مضطجعون فوق الأسطح، نائمون في العراء، فوق الأعشاب بجوار أكوام الحطب والقش. ثمة حياة وأحلام باتعة على امتداد دروب الشمس المفضة.

يا خير الناصرين، يا عزيز يا مقدر، انصر لعبادك المؤمنين فإنك

تعلم ما حلّ بأمة نبيك سيدنا محمد، وليس لها من دونك شفيع
ولا نصير، يا الله.

السراشي نشق المدى الداكن للحقول الجرداء، الخنادق الكاسدة
تتلون بألوان الضوء، يحاذيها اعضرار البقل البري، وتعايل الأوراق
المریضة لبات الخروج.

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد. اللهم
اغذف في قلبي رجائك، والطمع ورجائي حتى لا أرجو أحداً غيرك،
ظننت مولاي وولائي في الدنيا والآخرة يا ذا الجلال والإكرام.

فلاح يفتح مياه الساقية، ويخلق الثانية، وأخر يحشر النباتات الطالعة
على أطرافها. يتغنى الماء في سكون الصباح إلى الباتين، وتزفوق
المصانير بين التحليل، وتخور بقرة.

اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق
والمغرب. اللهم تقني منها كما تقني الثوب الأبيض من الدنس.

رائحة التفاح تهب، مترافقة مع وشوشة الأوراق المتساقطة.
المطحنة التي ظنتها قديمة لا تعمل، تفت الدخان بعيداً وعالياً
في الفضاء، وشذى عطر...

اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والطحل والزبد. اللهم أرجع نفسي
إليك راضية مرضية، وأدخلها جنتك مع عبادة الصالحين.

صباح ولا أصفى، ليله بلوم، ردتني بعد هذا العمر إلى المدرسة
الابتدائية، وكانت بيتاً شاباً يقع في آخر طلعة سوق الهال على

مقرية من حمام الخانجي، الأستاذ الشيخ بلقي دوس الديانة
الأسوعي، قبح النافذة المطلة على الياحة، فظهرت أحواض أشجار
التارنج والليمون وعرائش الياسمين عرائلي والخمسة، وإلى جوارها
أصغر الورود والأزهارا انظروا، إنها تسبح الخالق وتحمده ليل
نهار!!

صوت سامر يتردد صله على مسمي، كان أهبأ يسبح الله
بكلمات طاهرة، ويسأله غير هذا اليوم... من؟! والقرآن... على
ماذا؟! الثبات والعزيمة... لماذا؟! النصر لأمة محمد... ولجس
خطاباه... أهي خطابا فقط؟

نفرت إلى الخلاء، لم أطق رؤية أحد منهم، تشببت على مهل،
جلست على طرف السانحة وذهبت بعيداً بالكاربي، كلما عالجني
أمل، أراجع منه خاسراً، ودائماً بلا سامر، لم يعد مجرد ابن ضاح
وضمضي، فقدته أو فقدني، وإنما أنا نفسي في ذلك المستقبل
الذي لن أمسه، ولن أكون فيه، يُشجِد دون أن أظح بتقرضه.

رأيت الأكنع قادماً من الطرف الشرقي للقرية، ركض إليّ ومشي
معي، شكاً شكواه المعتادة؛ دوره نأخر للمرة الخامسة وأكثر، عبد
الله وعده البارحة بعملية استشهادية، لكنه بعد الصلاة، تلب عن
التعريب الصباحي، لا بد أنه أرسل أحدهم، لم أسأله أنهم،
الجزائري أم المغربي أم السوداني...؟

قبل قليل ذهب إلى أبي الحارث في خلوته، وعاد ببطعام البارحة
مع الحساء والماء، لم يسهم، وما ردّ عليه بكلمة. هذه حاله منذ
اعتكف. سأته عن مكانه، أشار إلى بيت صغير من الطين على
الطرف الثاني للساقية. اتته الأكنع أنتي لم أعد أصغي إليه،

فتركني ورجع. غيرت طرفي، واجتزت الجسر الخشبي العالم فوق الساقية، متوجهاً نحوه.

ثار غضبي وبلغ ذروته خلال لحظات على المعتكف الذي حرد عن الطعام والشراب، وآثر الخلوة حتى الموت، بدلاً من استنكاره لسلحة القتل التي لا تكف عن الدوران، أعنفه بالذبح والنشر... تحت غطاء من الله العلي القدير.

طرقت الباب بقبضي، فما أتاني منه رد. دفعتة ودخلت. كان جالساً على الأرض يقرأ القرآن والدموع تبلل عديه. لم أملك نفسي، صرخت حانقاً:

«لن تكفّر عما لا يكفر عنه إلا بالخروج من هنا الوكر، والذهاب إلى جماعتك. قل لهم قتل النفس حرام، وقتل الغير حرام. ما حال الأسر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ألا يحشر التمثيل بالبحث منكراً، إذا لم يكن، فماذا يكون؟!».

لم أع ما تفوهت به، ربما أنكرت الدين والدنيا، وقد أكون رميت الله بالظلم، ووصفتهم بخاتلة من المجرمين سفاكي الدماء...

لم ينهض أو يلتفت نحوي، أو يرمقني بنظرة واحدة. كان متبلداً في مكانه، ما رأته له جفن، تركني لغضبي وبأسي وقلة حيلتي. وربما يدوت له مجرد أب يطلب شيئاً لنفسه، أب أتاني، يفعل كل هذا الضجيج لاستعادة ابته. وكان في هذا التفكير طرف من الحقيقة، وإن كان ما أریده أمراً آخر أيضاً، لكنه لم يأت بحركة. لصرخت به:

«افعل شيئاً يجعلني أؤمن».

فتح فمه، وقال دون أن يلتفت نحوي:

«اعرج، البشر لا يمتلكون الأجوبة. أنا أنتظر جواباً من الله».

ما أوقع في يقيني لحظتها، أن انتظاره سيطول ولن يحظى
بجواب.

عدت إليهم حانقاً وصابغراً، والحة الشاي الساخن المعطر فاتحة،
 أنصح لي سامر مكاناً إلى جواره، وصب لي كأساً من الشاي.
 لاحظت فوراً غياب حازم، لا بد أنه في الجوار، لم أسأل عنه
 حتى لا أثير الشكوك حول وجود علاقة خاصة بيننا. كان
 الحديث يدور حول تقديم الجهاد على الصلاة.

تابع سامر قائلاً، إن هدف الجهاد هو إقرار ألوهية الله على
 الأرض، وعدم الامتثال لغيره من الألوهيات المادية التي تفرد البشر
 إلى الانحطاط الخلقي والإفلاس الروحي، الحكام ومعهم الكفار
 الأجانب، يتحولون بظلماتهم وجبروتهم دون حاكمية الله المطلقة.
 لا حاكمية لرئيس أو ملك أو أمير، الحاكمية لله وحده.

لا حاكم إلا الله... لا حاكم إلا الله... لا حاكم إلا الله.

سد نظراته إليّ وهو يختم حديثه:

نحن نخوض معارك الله على الأرض، معارك الحق والإيمان، وإذا كنا نضحي بأرواحنا، فلأن أمرها يعود إليه، هو خلقها وإليه مرجعها وعليه حسابها، نحن جنود الله. وموعدها الجنة، إن شاء الله.

خلال حديثه كان يشرق النظر إليّ، نهيتي نظراته إلى أنه ما زال ذلك الطفل الذي يخشى أن أعلم بما ارتكب خفية عني. فأدركت أنه أنجز عملاً، والأغرب ارتكب شيئاً، لا يرغب في أن أعرفه، كان يريد مفاجئني به، فلم أطمئن، تشتت ذهني، لا أسمع ما يقوله، بقدر ما كنت أراقبه. وأبقت عندما سد النظر نحوي، أنه تغلب عليّ!!

لاحظت عندما ارتفعت بسمعي إليهم، من كلام أبو الأبهيم الجزائري أنه اقتنع بفكرة الاستشهاد، وأخذ يؤيدها. هل هنا ما أنجزه سامر البارحة ليلاً؟ إقناع مقاتل بتفجير نفسه؟ هل كان هذا فوزه المين؟

توقف سامر عن المشاركة بالحديث، وتعلقت عيناه بشاشة التلفزيون، كان في انتظار نشرة الأخبار. سألت المغربي عن أبي عياده. أجاب سامر:

واقف غادرنا، الله يكون معه.

لم أستوعب ما قاله المفترض أن غادر أنا وحازم معاً!! لماذا غادر وحده؟ إذا كان سامر سمح له بالرحيل، فلماذا لم يدعني أراقبه؟ حازم أيضاً لم يخبرني!! ربما لم يشأ إيقاظي. بما الاحتمال ضعيفاً.

لم يكن سائر في انتظار الأخبار، بل في انتظار خبر عاجل. ظهر فجأة وقطع البرنامج الحوارى. كان الخبر عن تفجير الانتحاري خارج مسجد على مقربة من سوق عجم بالبشر المذمورين يتراكمون لا يتفرون في أي اتجاه يذهبون، وهم يحاذرون الاقتراب من الساحة القريبة من السوق، ويتعشرون علمين على أطرافه خشية أن يحقبه تفجير آخر، ينفون بعيداً وينظرون.. هذه المشاهد التقطت مصادقة فور حدوث الانفجار، الناس لم يصحوا بعد من وقعه. لكن بعد سيطرة الشرطة على السوق وتهدئة الناس، انكشف السوق مزدهماً بالباعة والعمال والأولاد.

حصيلة الانفجار، حسب تقرير الشرطة، بعض الخسائر المادية، ولا ضحايا، الانتحاري لم يفجر نفسه في السوق، اختار منطقة قريبة من الساحة تكاد تخلو من البشر. وصف أحد شهود العيان ما جرى بأن الانتحاري الذي لم يدخل إلى السوق، وقف على طرف الساحة الصغيرة، وكانت مركز سفر يتجمع فيه العمال في انتظار الباصات، خرج عدد منهم من المسجد القريب، فصرخ طالباً منهم الأبتعاد لئلا يصيبهم مكروه!!

اقرب شرطي مسلح من جثة الانتحاري، ولم يكن قد تبقى منها سوى أنشلاء، وأشار بيده إلى كتلة غير واضحة المعالم، مزيج من عردوات أو حطام، اقتربت الكاميرا منها، كانت كتلة من اللحم والحديد، عرفته فوراً من مزق جلايته وجزء من حزامه. أما قطع اللحم فكانت ربما جذع حازم أو قدمه. هتف المغربي:

وأمر عباده!!.

ونظر الجميع نحو سائر مستفرين، يلتسمون نفسياً. قال التونسي:

«لم نودعه!!».

لم يلتفت إليهم، التفت نحوي، كان الكلام موجهاً إلي، قال إنه لاحظ منذ يومين أن أبا عباده كان متردداً وخائفاً، وقد طلب منه البارحة إعفائه من العملية، فوعده بتأمين سيارة تنقله إلى الحدود السورية حسب طلبه. لكن أبا عباده عاد ليلاً واستشاره في أمره ثانية. فنصحه بالجهاد في سبيل الله، بدلاً من الندم على إضاعته فرصة نيل الشهادة.

«واتطلق صباحاً باكراً راضي النفس وبملء إرادته».

«لكن لا تقل، طلب من الناس الاعتناء!!»، قال التونسي.

«شاهد الميدان من مخبري الشرطة، قال هذا كي يوقع في الأذهان أنه تراجع في اللحظة الأخيرة، أو أنه أجبر على القيام بالعملية، لا تجهلون ما يحاولون ترويجه».

«ولم تُسجل إصابات ولا خسائر». تسأل المغربي.

«ربما وقع خطأ في الحزام الناسف وانفجر قبل وقته».

كانت هذه التبريرات تساق لهم وليس لي. لم يكن هناك ما يعني سامر من فعلته، وسواء أقتعه أم أجبره، فكلاهما الأمر نفسه. توقعات حازم كانت في محلها، لم يكن عبثاً عشيقته من تأثيره، كانت لدى عبيد الله السوري قدرة على الإنعاج، لا تقل عن الإجبار، بتروية الالتزام بالجهاد. حازم لم يكذب علي، البارحة كان مصحماً تحت أي ظرف ألا يقتل أحفاداً، وكان صادقاً مع نفسه لحظة التنفيذ.

أدركت وبمرجة ترفى إلى اليقين مدى غيبة سامر، كنت الوحيد
الذي اكتشف هزيمته، ومهما يكن كنت طرفاً في هذا الذي وقع.
كان انتصاري عليه مؤلماً له، وبالنسبة إليّ كان مكلفاً. خسرت
حازم، كان إلى جانبي وشاركتني في محنتي وإن لم يكن يدري،
منحتي الكثير من الدعم، ولم أمتحه شيئاً.

ملاحق سامر اكفهرت، الوجوم مخيم على المضاغة. لم أتابع
الحديث معهم. ملت على سامر وأنا أنهض، وهست في أذنه:
«تكذب، لقد قلت».

كنت أنا الخاسر الأكبر والمهزوم الأوحده، لم يعد ابني شيئاً لي،
بل عدوي.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

لحقني سامر بعد قليل، سمعت لهاته من خلفي، فسارعت
بخطواتي، أتوكني على مشارف القرية، واستوقفتني:

«لو لم تلامر بيزّ الوالدين لأقمت عليك الحد».

تسألت ساخراً:

«أي حد؟».

«حد الردة».

«لا تتفزع بالبر، ولا تهددني بالردة. لا أتق بهذه الاقراضات، لنلا
تتفاعل، لن أذاع عن إلحادي أو أتمسك به، ولا أريد أن أذهب
بضحيتي. لماذا أشرك بالله، ولا مبرر لدي، سواء كان واحداً أو
ثلاثة، أو لا أحد. أما إذا كانت لديك اتهامات أقوى، فلا تتردد».

أقضي، أيها الأمين البار.

ولا يخفى الله لقاتل أبيه.

انقطع حديثنا بظهور الأمتع، كان حزيناً. بمجرد أن رآه سامر عرف ما يريد منه، قطع عليه شكواه، وصرفه بإشارة من يده، ووعده مساء. فتابع الأمتع طريقه نحو القرية. من بعيد كان قطع من الماعز يقوده راع يسير معاذاة البيوت متوجهاً نحو الساقية.

لم يتابع سامر كلامه، كان لديه ما يقوله رداً عليّ، لكنه توقف فائراً منه، رفع رأسه وأخذ يصفي، تسلل إلى سمعي صوت أنيز. رفعت بصري إلى الأعلى، السماء خالية وصافية. قال سامر: صوت طائرة. لبثنا لحظات نصفي وقد حبسنا أنفاسنا. علا الصوت وأصبح هديرًا عافئًا، وبدأ يقترب. لم يكن الأمتع قد ابتعد كثيراً، عندما ناداه سامر وطلب منه أن يُعلم المجاهدين في المنطقة أن يخرجوا منها ويغرقوا.

أسك سامر يدي وشدني نحو الخندق، سارعنا خائضين الرؤوس إلى الانكفاء فيه. بينما أخذت الانفجارات تتوالى من بعيد، وتقترب منا. استندت إلى جدار الخندق، فدلغني بيده إلى الاستلقاء فيه، وإعفاء وجهي. القنابل تتفجر من حولنا، تنزل الأرض من تحتنا، أصوات نغم الأذان وجهم من النيران، اللهب يلسع وجهي، الأثرية والأحجار تتساقط فوقني، القصف لا يتوقف، المدوي يهك سمعي. أحس بالاختناق. لم أفر كم استمر، كل ما أعبه هو أنه لا ينتهي، لم أتأكد فيما إذا أصبت أم لا، نظرت إلى سامر، كان يتلمسني بيده يطمئن عليّ، فضمته إلى صدري وأحطه بذراعني أحبه.

رفعت رأسي رأيت الشابين السعوديين يركضان وقد تماسكت
أيديهما، أدركتهما صاروخ قبل تمكنهما من الوصول إلى الخندق،
وتحولتا بلسح البصر إلى عجاج غصص به الفضاء، تساقط منه رذاذ
من الغبار الكثيف، هبط متناثراً على الأرض، لم تبق منهم حتى
الأشلاء. كانت هذه أُنْتِهَمَا الموت معاً.

بعد قليل حلفت مروحيتان من نوع أهاتشي على مستوى منخفض،
الأولى تطلق القذائف وترمي القنابل اليدوية، ولحقت بها الثانية،
تمشط المكان بالرصاص رشاً ودراكاً دون توقف، بينما عفت
هدم الطائرات الثالثة وتلاشي. عجة الطائرات انتهت، وتركت
ورايها قطع الماعز طريحاً على الطريق وإلى جوارهم جثة الراعي
وكلبه. تراعى بعيداً من خلل الدخان، مدرعات ينزل منها الجنود
ويتقدمون بحذر في طرقات القرية، وهم يطلقون نيران رشاشاتهم،
ترافقهم عربات الحمفي. لم يتابعوا التقدم، انبطحوا على الأرض،
واجهتهم المقاومة، بقذائف الهاون، والآر بي جي، وصلبات
متواصلة من الرشاشات، مجموعة من المقاتلين انجأوا إلى جانب
الطريق هاجموا المدرعة من الخلف بقذيفة مضادة للدروع وقاذفة
صواريخ، أصابوها إصابة مباشرة، ثم أطلقوا عليها قنبلة حارقة.
أعاقهم السجاعتون عن التقدم، فاضطروا إلى التراجع.

دفعني سائر يديه، فتسللنا زحفاً على طول الخندق. وصلنا إلى
نهايته، كنا قد أصبحنا خارج مرمى النيران، على مقربة من
الأحراش والقنوات وأشجار النخيل. التفت إلى الخلف. شملت
الموقع بنظري، الحرائق مشتعلة، الشاحنة والسيارة اللتان وصلنا
إليهما، نالتها القذائف الصاروخية انصهرتا وأصبحنا عجينة
واحدة. الغارة لم تترك بناء في الموقع دون أن يدعرو، لم ينج أحد

من بقي في البيت.

التفت إلى سامر، كان يحدق إلى الطرف القصي من الخندق، تركته يمضي وقلت عائداً، لا أسمع شيئاً، كنت في عالم ليس فيه سوى ذلك الصدى الهائل للموت المخيم على فضاء ضاق فيه الكون، وأصبح بحجم الهباء.

في الخلاء، أمشي فوق أرض ترنج تحت أقلامي، أجيل على المكان بنظري، بيت المضافة، أصبح حفرة كبيرة، جدرانها المهذمة طائفة بالفجوات، دخان أسود كثيف ينتشر ويتصاعد، النيران من حولي تزيد اشتعالاً. الشاحنة المتصفة بالسيارة يطل مسا تلي من نافذتها النصف الأعلى من سائقها متفحماً، وقد مد ذراعيه يبريد الخروج منها، أو أنه يطلب النجدة. جذع الأكتع معلق على شجرة. رائحة لحم بشري... التونسي والمغربي والجزائري نجحوا أيضاً بالخروج من البيت، واختياراً علف الشاحنة، لم يسعفهم الوقت بالوصول إلى مأسن، ماتوا وقد تماسكت أيديهم وتلاحمت أجسادهم: كانت بقاياهم تحرق.

حانت نظرة مني إلى الجسر العنسي العاتم، فلم أجد أثراً له، نظرت إلى البيت الطيني رأيت أبا الحارث واقفاً أمام بابه، كما نقطة في مهب العاصفة، فاتحاً ذراعيه للطائرات، يستقبل القذائف، وهي تتفجر من حوله، دون أن تنال منه إلى أن أصابته إحدىها، ارتفع مع الدخان، وتناثرت أشلائه في الفراغ المدهل.

لم يأت الجواب من الله، جاءه من الأمير كان.

الأرض على مد النظر قد نisht، جثت الأهالي الذين حاولوا

الخروج من منازلهم والاختباء في الأحرش القريبة، أفرقتهم رشاشات المروحيات، بعضهم دامت المدرعات فتسطحت أجسادهم وانسحقت رؤوسهم.

أتقدم نحو القرية، جنود المارينز احتلوا الجامع، القناصة يطلون من المثانة، آخرون ملتصقون بجدران البيوت متحفزون لعبور الطريق، أحدهم في الزاوية المواجهة، عينه على الرشاش ينظي رفاته وهم يتطلقون نحوي ركضاً.

أزهر الرصاص من حولي يخشق سمعي، وخزة في يدي اليمنى وأخرى في قدمي اليسرى، الألم يسري في أعضائي، وأتفسه، النار تشتعل في. أصبت، عسى أن تكون الإصابة مميته، وألفظ حياة بشعة لفترة مجرمة. جنود المارينز يتقدمون باتجاهي كالأشباح، يمدون فوهات باندقهم نحوي، كانوا حقيين.

تابعت تقدمي إلى الأمام، إطلاق النار لا يتوقف، أردت الموت بكل قواي المتهالكة. وكنت في انتظار رصاصة الرحمة أو قبلة الشفقة، على أعبء أمنية ربما تتحقق على عجل لفظ أنفاسي الأخيرة. تحيل إلي، أو أنه كان حقيقة، ما تراهي لي، جوناثان يظهر من خلال الغبار الكثيف، أسقط على بعد خطوات منه، يتقدم ويحملني مع آخرين إلى المحفة.

في هذا السكون الشامل قدت وعي.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

في المستشفى، طالعتني وجه جوناثان، بلا غبار ولا دخان، وأنا على نقالة، وافتني إلى غرفة العمليات. بشرني بأن حالتي ليست سيئة. معنوياتي لم ترتفع، الخوف على ملامحه ألقى عن ذهني أي احتمال للحياة. لم يتبادر إلى ذهني قبل الموت، سوى معرفة، أين ميلر، هل ما زال حياً؟

جوناثان لم يجب. فسألته:

«اتحر أم قتلوه؟»

«مسي في أذني:

«ونحن أيضاً نتحر».

في غايي شبت جت إلى كاليفورنيا.

لم أعرف بالضغط ما الذي أريد ميللر فعله، أو لماذا انتحر. ما أنا متأكد منه، أن دولفته كانت سليمة، رغم ما خالطها من وساوس وأخطاء. الأفكار الجيدة أثنائها باهظة، ميللر لم يقبل الخسارة، لو أنه تحملها لأضاع كل ما كان ضمه.

قال جوناثان بأن ميللر حسب التوصيفات الجديدة المستنكرة، حمل فكرة ومات من أجلها. حتى لو كانت الفكرة تستحق، فالأمر مرفوض، لا تضحية بالحياة. لم أشأ مناقشة غير قادر عليها. عثرت عن حزني بصدق:

والقد فقدت صديقاً عزيزاً.

أنقضت عيني، وودعت ميللر، بصمت ومن غير ضجيج، وداعاً نظيفاً ووديعاً، من فرط وداعته، أوحى لي بصوت مريح. لم أرغب في تعكيره، ولم أسأل سؤالاً آخر، كي لا أوسع عبراً سبياً عن سائر، فأرحل مصدوماً.

والقد نجوت، لكنني لم أستوعب عودتي إلى الحياة، إلا على أنها عودة إلى الرعب. فلم تهمني معرفة القصة التي دارت في الخلفية عن احتطائي وانقاذي.

غير أن جوناثان أخبرني أن ميللر أخطئ في اجتياز المرحلة الحرجة، خلالها استرد وعيه قليلاً واعترف بأنه انتحر، فاعتبر جوناثان نفسه مسؤولاً عن سلامتي. استنكف عن السفر من بغداد، وسارع إلى إجراء اتصالاته، وطلب من رئيسه أن أكون مهمته الأخيرة، لقد جاء بي ميللر إلى العراق وتعهد بكفالة عودتي، هنا ما أوصاه به ميللر عدة مرات.

ما ساعده أن عملية ملاحقة القاعدة لم تتوقف ولطعت شوطاً لا بأس به، وما داموا في أثر الزرقاوي، فقد يصلون إلى سائر، ويجدونني لديه. رافقهم جوناثان في مداخلاتهم بحثاً عني، مداخلتهم الأخيرة لم تخضع لأي أمان، كانت القرية تحت سيطرة القاعدة بالكامل، فنخضع الهجوم لقواعد الاشتباك الجديدة، واعتبرت المنطقة كلها حرة النيران، فكان أي شخص موجود في داخلها، امرأة أو رجلاً، شاباً أو طفلاً، مسلحاً أو أعزل، يتوجب اعتباره معادياً، وهكذا لم تكن غارة، وإنما عملية إفناء، أطلقت فيها النار على كل شيء، وحلفوا وراهم جثاً وأرضاً محروقة. من حسن حظي أنني لم أصب إلا بعدة طلقات، لو أنه لم يكن برقتهم لأجهزوا عليّ.

بقي جوناثان إلى جانبي، لم يتركني، لا قبل دخولي إلى غرفة العمليات، ولا بعد خروجي منها. كان حريصاً عليّ أن أتلقى عناية قصوى. ادعى أن بحوزتي معلومات، من المهم الحصول عليها. ظنت أنه قالها لي كي لا أخفي عنه شيئاً. قلت له:

«أنت أترى بالذي حصل، المكان دمر، والمتطوعون قتلوا».

«أصدقك».

ولقد صدقني فعلاً. لم يسألني المزيد، وأثبتت صداقتنا، أنه من الممكن ألا تكون منعتين، ونراعي مأساة الشخصية قدر المستطاع. بل واحترم مشاهري كآب، وأخبرني أن سائر نجح في الفرار، عنا ذلك لا يدري عنه شيئاً.

زارني فاضل في المستشفى وهو عليّ:

«لا تدع شيئاً يفلتلك».

«أريد أن أنسى».

ليس لأنه لا شيء يستحق أن أتذكره، وإنما لا يجوز تذكره.

في زيارته التالية، عند الباب تبادلنا الابتسامات، ودعته دون أن يدري، وداعاً مضاعفاً ومن العيار الثقيل. إذ بعدما خرج، أسندت رأسي إلى المخدة، ثم كأن بدأ أسبغت عليّ لمة من النسيان الرحيم. في تلك اللحظة تعطلت ذاكرتي. وكان اختياراً لا أندري مدى صوابه، وسواء كان مقصوداً أم لا، لكنه كان الحل الأمثل لتجنب آلام استعادتها فيما بعد وأخذت تتفاقم.

عندما فوجئوا بفقداني الذاكرة، جربوا تحريضها بحكاية التعارف، فجرى تعريفني إلى جوناثان وفاضل من جديد، وهم الأشخاص الذين أحسست بالحرج أمامهم، لحسني بأنني مدين لهم على نحو كنت واثقاً من رغم عدم تأكدي، ولقد عفروا نسياني، ربما لإدراكهم أنني بحاجة إليه، أما أنا فتركت الأمر للزمن. ولم أكن مستجلاً.

تلقيت عناية ممتازة في المستشفى، لكنني لم أرغب في البقاء، ومع أن الأطباء قالوا إن عودتي إلى بلدي ستسرع بشفائي واستعادة ذاكرتي، فقد نصحوا بمتابعة العلاج. جوناثان لم يكن موافقاً على عودتي إلا بعد استرداد قواي. لكنني أصررت على المغادرة، فاضطر إلى ترحيلني في سيارة قديمة لا تسرع الأنظار مع سائتي محك.

كان ما يرسم توجهاتي أمراً سهماً، سواء في إصراري على الرحيل أو تظاهري بأنني في صحة جيدة. سطر علي إحساس قوي بأنني جيدة على وشك أن تكون هامة. وكانت أمني أن تهمد في دمشق.



لكنها لم تهمد في دمشق.

الأنوار الساطعة تضاهيني، إنها لا تطاق. كتبت كي أعود إلى الظلام، كتبت كي أحسن الفهم لا العيش، العيش ذات أوانه، والفهم مطلب عسير. كيف نستدرك ما سوف يصبح تاريخاً يخضع للكذب والتفحيط والتأويل؟ لهذا عانيت. ولذا أترك ورائي قصة يتطوع الآخرون لكتابتها، فيروون قصتهم لا قصتنا، وقد تعتمد على أنها الوحيدة، فكرت بكتابتها.

غير أنني لم أعد إلى الظلام، المرأة التي أحببت، كانت كريمة معي، وفتت إلى جانبي، وتجاوزت عثراتي وعنادي. لم أعتقد يوماً أن الحب يصنع المعجزات، سناء جعلتني أؤمن بالمعجزة الأكبر، أعادتني من الموت إلى الحياة، ومن الظلام إلى النور. أشعر أنني إن لم أكن مخطئاً، ما كنت سعيداً أيضاً، وعلي أن أصمد، إذ لا خيار آخر، ومن الأفضل أن يكون خياري ضلاً.

وهنا ما جعلني لا أصمد فحسب، بل أواجه نفسي، ما كتبه لم أكمله، ما زال هناك فصل منقطع أعشاه. ولقد حاولت أن أسحه من حياتي وذاكرتي، كأنه لم يحدث أو لم يكن، أو أنه مجرد كابوس لا يمتلك ذرة حقيقة. لكنه كان حقيقياً.

حان أشجراً وقت الاستسلام لناكرة لا يجوز أن تروى منقوصة ولا
مجتزئة. هذه ضريبة النور والحياة.

هنا أنا، في فروة الألب، أشجراً وأروي:

تعالى البناء من مكبرات الصوت يطالب الباقين على قيد الحياة بالاستسلام؛ صلبة رشاش وقذيفة هاون أسكته، عاد القصف من بعدها شديداً.

لحقت بسامر إلى الأحرار، في الوقت الذي عاد فيه الأزهر المرعب، وإذا كان الهدير أعقبه، فالطائرات ستعاود ظهورها في السماء، كنا قد نجحنا في اجتياز حقل أعواد القصب. لم يتوقف سامر تابع الركض، وأنا أركض وراءه، كان متجهاً صوب البيت كي يُخرج هند منه قبل أن يُقصف.

تأخر، الضخام دمرت البيت، السقف استوى بالأرض، ولم تكن هند في داخله، كانت هناك سيدة إلى جانب الحوض قد نجحت بالخروج قبل أن تصاب، وزحفت مسافة عدة أمتار، سارعنا إليها، كانت مستلقية على ظهرها، الذعر مطبوع على

ملاصحتها، لم يكن ثمة علع أعظم من هذا الذي برز من عينها. بطنها منتفخ ومثورة الساق، وشيء ما فيها يحترق، رائحة شواء، الدخان يتصاعد من شعرها وفمها وعينها، كانت مينة تسبح في دمايتها. حملها سامر بين يديه، وكأنه يستطيع فعل شيء لها، مشى بضع خطوات، قدماء لم تقربها على الحشي، ركع على الأرض، حدى إلى السماء، مستغنياً بعينين جاعظتين، وكان الكون يسبق عن الله، ويحد كل شيء إلى ما كان عليه.

كان الصمت المهول للرب مرعباً.

تبيست في مكاني، هزعت إليه، أخذت عنه الجثة، حملتها وركنتها إلى جوار شجرة لم يبق منها سوى جذعها، خلعت سرتي وغطيت هند بها. نهض سامر ونزع عنها السرة:

«دماؤها تشهد عليهم يوم الحساب».

انتحي جانباً، بنظر إليها، وربما رأها كما رأيتها أنا، جميلة رقيقة هشة، ولا أظن أنه تسأل مثلي: ألا تستحق شيئاً أفضل من التعذيب والاعتصاب وهذا الموت البشع؟ بالنسبة إليه كان كل شيء مقدرأً عليها، حتى هذا الاحتراق البطيء. لكنه عاكسني، وطاح بأفكارني عنه وعنهما، عندما قال:

«أني، لقد أحببتها».

واغرورقت عيناها بالدموع، والفاً أناسي مكسور القلب، بنوء تحت أنفال الحب والحقد. أنا الأب أشهد ابني بتألم وميكي حبه. أشفت عليه، قلبي يتقطع. وإذا انتفض انتصب بقاته، تُعسراً

وجهه للدخان والرماد، ورفع رأسه ثانية نحو السماء، عيناه لا تخفيان وعينه ولا تهديته، أطلق صوتاً فاق عذيره عذير الطائرات والدبابات:

ربي، تعرف أنني لم أطلب منك مجداً ولا لقباً. ما قاتلتهم طمعاً بطرفتك ولا رضوانك، لم أسألك الجنة لي، وإنما للهوي. لم أزدك منك طمعاً ولا مكياً، أردت تطهير أرض المسلمين من رجسهم، وإقامة دولة الإسلام، لتحكم شريعتك، ونظام الصلاة خالصة لك، وبني كتابك الكريم، وتوقيع كتابك وصحفي.

لوح بفضته، صوته يرق كالرق، ويرعد كالرعد:

سبحانك اللهم رب العرش العظيم. أنا على عهدك لم أنكث به، فما بال وعدك؟ تخليت عني ونصرت القوم الظالمين.

أحنى وجهه بين فراخيه، متردداً في حيرته ولوثته، لا يهدأ على حال، عيناه حراوان كالدم.

ربي، ألغى إليك أمري، فلا تخلفني. نعم العولى أنت والنصير. سامحني إن تزعمت نوابي، أو خالط قلبي الشك، واعلم عني يا أرحم الراحمين. أنت خلقتني وأنا عبدك، فاهدني وسددني وأتمم علي نعمتك، يا ذا الجلال والإكرام.

ورجا الله بصوت كالنحيب.

العدل يا ربي... العدل يا ربي... العدل يا ربي.

توقف تبادل النيران، بعدما أسكت القصف أسلحة فلول

المقاومين. ساد السكون للحظات، تعالى بعد قليل النداء من مكبرات الصوت مطالباً الباقين على فهد الحياة بالخروج وانصي الأيدي. لكن فذهبة أرى بي حي، جدت القصف.

تحامل سامر على نفسه. أسكنه ورجوته أن يسلم نفسه وأنا سأضمن عودته إلى سورية سالمًا. أشاح بوجهه عني، ونظر صوب الأحرار، إلى طريق لا عودة عنه.

لا مفر من الوداع، ولا متسع للوم ولا للصلاة ولا لمزيد من البكاء... إلا ليضع كلمات أخرى، عبرت عنها نظرتي الجريحة وهو ينقل بصره بين جثمان عند والطائرات التي ارتدت تقذف صواريخها. نظرة لم يفتني معناها، وكلمات نمتت ألا يودعني بها، لكنه قالها جواباً على سؤال لا أجهل فحواه:

«هل عرفت لماذا نقتلهم؟».

أسكت به وشدته من يده، كني يسارع بترك المكان. نزع يدي عنه، لم يردني أن أتقدم معه خطوة واحدة. نتمم بروجوني:

«حافظ على حياتك».

تبدد في داخلي كل ما كرهته فيه، كان اني المكلم والمكروب. قلت له بأسى:

«تميت لك شيئاً آخر».

«لا تمن شيئاً بشأني».

وأردت ألا أفجع بك.

أني، هل ستكرني؟

ليس بسعي، هنا فرق طائفي.

وأنا سأحمل وزرك يوم القيامة.

عانتني مودعاً، بقلته، قبلت الطفل الذي كانه، والأمير المقاتل الذي أصبحه، والجريح طالب العنابة.

تراجع خطوات إلى الوراء، وهو يتأملني بعيون مفتوحة على وسعها، يختزن في ذهنه صورتي. هل خطر له ما خطر لي؟ هذه آخر مرة يرى فيها واحدنا الآخر، لن نلتقي ثانية. وكل منا يخطر نحو الخلف بثقة، كانت الدموع تسيل على خديه...

أه من هنا القلب الجبار الذي لا يرحم، كم يخفي من دموع.

عسى هذه اللحظات تطول إلى الأبد، لكنها مضت.

لوح لي بيده، رفعت يدي ولوحت له. ثم استغلر وغاب في الأعراس.



فواز حداد

جنود الله

الاح السراب اليبعد العظيم على الأفق مثاقفاً، كما لوحة مرسومة
بجمال رقيق ومسالم، مجللة بصمت بهي، تنزل ألوانها ثم تتحلل إلى لون
واحد، بلا لون، غيوم تعبر على مهل زرقاء سماوية، لوحة تتجاوز
بعنفوانها الهادئ، سخف الأسلحة والقنابل واللحى... من الأفق لا منها،
يأتيني موتي هائلاً وخفياً، يتهادى على أمواج الأثير، يمستي كما العبير،
يقيني من بؤسي ويعصمني من ظنوني، أو، لو كان لي قبر في هذا الغبش
لا في ذلك الشراب.

تخلت موتاً سريعاً دون اعتراضات أو طلب للرحمة، بلا شكوى ولا
أنين أو بكاء، لن أسألكم الشفقة بي، ما سأطلبه ذبحي وأنا مغمض العينين،
دون رؤية ما حولي، لا العناصر المسلحة الملثمة ولا كاميرا الفيديو، لن
أسمع صيحة "الله أكبر" أو أتوقب اليد التي ستمتد، وتلتف من الخلف
حول رقبتي، أو أحس بالذعر والتصل الحداد بحز عنفي، وذهب بي التمني
إلى ما بعد الموت، لن يشوهوا ملامحي أو يمتكوا بأعضائي، وأكثرت
من التمني، سيتمكن شخص من العثور على جثتي قبل أن تتفسخ، ويصادف
من يتعرف عليها، ويقرا الماتحة على روحي، وربما أرسلت للدفن في
مقبرة العائلة بدمشق.

كان الموت هكذا حلماً مترهاً ولا أجمل.

(من الرواية)

